أمي نورة
رحمها الله في سرير المستشفى
في آخر رمضان لها في الحياة
يحيط بها ذريتها جميعا لولو وغانم وعلي وصالح
تصوير عبد الله المسند ابن شقيقتي لولو.

أمي نورة

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

تشرف بكتابتها
د. ابراهيم بن عبدالله الغانم السماعيل

الطبعة الثانية

ح إبراهيم عبدالله السماعيل، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السماعيل، إبراهيم عبدالله
أمي نورة، الأم الصديقة رحمها الله تعالى/ إبراهيم عبدالله السماعيل. الرياض، ١٤٣٦هـ
٢٢٤ ص؛ ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ١-٨٣٨٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- السماعيل، إبراهيم عبدالله ٢- الأمهات أ- التربية

ديوي ٩٢٠،٧٢ ١٤٣٦/٥٥٠٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٥٥٠٣
ردمك: ١-٨٣٨٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨

للتواصل

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

00966 555443744

ias1429@gmail.com

@DribrahimG

dribrahimg

www.DribrahimG.com

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد أما بعد فهذه حلقات عن أمي نورة -رحمها الله تعالى - تناولت فيها جوانب من حياة فقيدتي الغالية رحمها الله تعالى، حلقات كنت أتشرف بنشرها بين وقت وآخر في مدونتي (www.DribrahimG) التي كانت تسعدني فيها قراءة الأخوة والأخوات وتعليقاتهم.

وأحببت أن أجمع هذه الحلقات في كتاب واحد هو الذي بين يديك الآن.

مع امتناني لشقيقتي الغالية (لؤلؤة) أم عبد الله بن علي المسند، التي كانت تراجع لي مشكورة حلقات هذا الكتاب حَلَقةً حَلَقة قبل نشرها مشيرة عليّ بما تراه الأصح تاريخيا والأنسب واقعًا وهي مضرب المثل في تقدير المشاعر، ومراعاة الخواطر، فلها مني جزيل الشكر، ووافر الدعاء.

وقد شرَّفني من لا أملك مكافأته إلا بالدعاء، شرَّفني الأخ الكبير معالي الأستاذ الدكتور (علي بن إبراهيم النملة) حفظه الله تعالى بقراءة الكتاب، وأكرمني معاليه بالتقديم له، شكر الله لمعاليه ما تفضل به، وبارك في علمه وأهله وشأنه كله، ورحم والديه وزوجه وكل فقيد لديه.

شاكرًا لكم إخوتي وأخواتي تكرمكم بقراءة كلماتي عن أغلى مَنْ عايشتُ وأعزّ مَنْ فقدتُ أمّي نورة رحمها الله، وبارك في ذريتها، وحفظ لنا والدي الكريم الشيخ عبد الله الغانم السماعيل، الذي عايش فقيدتنا المترجم لها في هذا الكتاب كما لم يعايشها أحد غيره.

والآن أترككم مع الحلقات بعد الإطلالة على معالي الكلمات من كلمات معاليه.

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

الرياض

١٥ / ٣ / ١٤٣٦هـ

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

أ.د. علي بن إبراهيم النملة

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله الذي لم ينس -على ما ألقاه الله تعالى عليه من أعباء تبليغ الأمة وحمل الرسالة - أمَّه آمنة بنت وهب، فكان - عليه الصلاة والسلام - يذكرها ويزورها بين الفينة والفينة بالأبواء. وبعد،

فإنَّ الله تعالى قد أوجب على الأولاد، بنين وبنات، أنْ يكونوا بارِّين بوالديهم، لعلهم يلحقون شيئًا نزرًا مما قدَّمه الوالدان لهم في حياتهم. وجعل الله تعالى لهما عليهم وعلى غيرهم فضلاً كبيرًا، وجعل فضل الوالدة أكبر من فضل الوالد بمراحل، مع ما للوالد من فضل لا ينكره إلا عاقٌّ بوالديه لا بأحدهما فحسب.

ولعلَّ البرَّ بالوالدين أحدهما أو كليهما لا يقف عند حدٍّ في هذه الدنيا، بحيث يظن أحدنا أنه بلغ الغاية في برِّ والديه أو أحدهما. ومن وصل به الغرور إلى هذا الشعور فهو على خطر عظيم. ومن المعلوم لدينا أنَّ من أجمل ما يتركه الوالدان أولادًا صالحين يدعون لهما دائمًا. وفي كلِّ مناسبة لا يفترون يدعون لهما، مع ما يمكن أنْ يقدموه لهما من الصدقات الجارية والعلم النافع بالأوقاف والصدقات المتتالية.

ولعلَّ من البرِّ بالوالدين كليهما أو أحدهما أنْ يعبِّر الابن أو البنت القادران على التعبير عن شعورهم عن فقدهما بما ييسِّر الله تعالى من تعبير يظلُّ عاجزًا عن التعبير عن مكنوناته تجاه والديه. ومن غير المستغرب أن يعجز بعضنا عن التعبير عن فقدهما، مع أنَّ هذا العاجز قد يكون من أساطين الأدب والفصاحة والبلاغة.

وأحسب أنَّ هذا النوع من البرِّ يكاد يكون نوعًا من أنواع الأدب الذي له مكانة مرموقة بين أنواع الأدب، والرثاء منه خاصة. ومن أحق بالرثاء من الوالدين والزوجة والزوج والأولاد؟! حيث العبارة الصادقة والوجدان المتدفِّق والقلم الذي ينضح دموعًا لا مدادًا.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

والزميل الصديق الدكتور إبراهيم بن عبد الله السماعيل يطرق هذا الباب من الرثاء؛ برًّا بوالدته نورة بنت عبد العزيز المانع -رحمها الله تعالى - التي بان من حديثه عنها أنها تركت فراغًا واسعًا في وجدان ابنها وإخوته وأخواته تمكَّن من تصوير بعضه لا كلِّه. ويظل الرجل طفلاً حتى تموت أمُّه.

ولا تقتصر وقفته مع والدته -رحمها الله تعالى- على الوجدانيات، وهي مطلوبة وهذا مجالها، ولكنه يسبح بأكثر من هذا، بحيث يعطي صورًا مختلفة، شملت الجوانب التربوية والنفسية والاجتماعية، وتصويره البيئة التي نشأت فيها الوالدة -رحمها الله تعالى - تستحقُّ التأمُّل والإفادة منها في تصويره الحياة الاجتماعية في رقعة غالية من بلاد الثبات والنماء وفي وقت عاشت فيه أمَّاتنا حياة مليئة بالكفاح والصبر والتحمُّل والمعاناة. ووراء كلِّ رجل عظيم امرأة.

من سيقرأ هذه الخواطر ولا يذرف دمعة على والدة إبراهيم نورة المانع، فعليه أنْ يعيد قراءتها بروح من فقد والدته أو عزيزًا جدًّا عليه، وإنْ لم يرقَ إلى مقام الوالدة، فلا يظهر أنَّ أحدًا من أفراد العائلة يرقى على مكانة الوالدة.

استطاع الدكتور تصوير المواقف ببلاغة قريبة من القارىء، فلم يعمد إلى التفاصُح، وإن كان يملك القدرة على ذلك. وهو في الوقت نفسه احترم لغته واحترم المتلقِّي عندما لم يتهاون بلغته، ولم يُطلسم عباراته بكلمات تضيِّع العبرة من هذه الخواطر.

رحم الله تعالى الوالدة نورة بنت عبد العزيز المانع رحمة واسعة، وجميع أمَّاتنا وآبائنا وأزواجنا وأولادنا وموتانا جميعًا، وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى، حيث النظر إلى وجهه الكريم، وحيث تقرُّ بهم العيون وتقرُّ عيونهم بأحبابهم. والله يتولاَّنا جميعًا برحمته وعفوه وغفرانه لما يبدر منَّا دائمًا من تقصير في برِّ والدينا ووالديهم وكلِّ عزيز لدينا. والحمد لله ربِّ العالمين.

أ.د. علي بن إبراهيم النملة

الفهرس

م	العنوان	رقم الصفحة
١	من أمي نورة رحمها الله ؟	١١
٢	أمي عروسا	١٣
٣	صِلة أمي نورة –رحمها الله – أهلَها	١٧
٤	تعسّر ولادة أمي نورة	٢٣
٥	ميلُ قَدميّ عند ولادتي	٢٧
٦	يومٌ دراسيّ مع أمّي نورة	٣١
٧	عناية أمّي نورة – رحمها الله – بوالدي حفظه الله	٣٧
٨	قيامُ أمي نورة – رحمها الله– بكل ذي حاجة	٤٣
٩	علاقة أمي نورة – رحمها الله– بزوجات أبي وأولادهن	٤٧
١٠	حُبُّ أمي نورة –رحمها الله– التعارف والتواصل مع الآخرين	٥١
١١	الكويتيون في ضيافة أمي نورة – رحمها الله–	٥٧
١٢	الضيوفُ الضُعوف	٦٣
١٣	الدمعات الأربع !	٦٧
١٤	حميميَّةُ أمّ !	٧١
١٥	أمي نورة – رحمها الله– وضربُ الأمثال	٧٥
١٦	طعم العيد والجمعة مع أمي رحمها الله	٨٣
١٧	عزّة نفس أمي نورة رحمها الله	٩١
١٨	مساعدات أمي –رحمها الله – المالية	٩٥
١٩	أمي – رحمها الله– ورمضان	٩٩
٢٠	يا هلا بالدختور	١٠٥
٢١	(اللاءات) الثلاث التي قالتها لي أمي رحمها الله	١٠٩
٢٢	حُسن خُلقٍ وعفّة لسانٍ	١١٣
٢٣	مهندسة التغيير أمي نورة رحمها الله	١١٧
٢٤	أمي نورة – رحمها الله– حبيبة الأطفال	١٢١

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

م	العنوان	رقم الصفحة
٢٥	قَدرُ أمي نورة – رحمها الله– عند والدي حفظه الله	١٢٧
٢٦	إبراهيم تعال بسرعة !	١٣١
٢٧	أمي نورة – رحمها الله– ومراجعة العيادات	١٣٥
٢٨	آخر رمضان في حياة أمي نورة رحمها الله	١٣٩
٢٩	عيد الأضحى الأخير في حياة أمي نورة رحمها الله	١٤٣
٣٠	آخر زيارات أمي – رحمها الله– العيادات الخارجية	١٤٩
٣١	مواقف في الشهرين الأخيرين لأمي رحمها الله	١٥٣
٣٢	أمي نورة– رحمها الله– في العناية المركزة	١٥٧
٣٣	العافية التي سبقت الموت	١٦١
٣٤	إبراهيم ! ماما نورة خلاص	١٦٥
٣٥	نقاءُ بات يغسله نقاءُ	١٧١
٣٦	من المسجد إلى المقبرة، الطريق الذي تمنيت أن يطول	١٧٧
٣٧	على شفير القبر	١٨١
٣٨	الأماكن	١٨٧
٣٩	الملاحــق	١٩٣
٤٠	ما بعد الوفاة	١٩٥
٤١	وداعًا يا كرسي أمي	١٩٧
٤٢	الزفرة الأولى : وفي الجنّاتِ يا (أمّي) اللقاءُ	٢٠١
٤٣	الزفرة الثانية : (أختاهُ) فَقدُ (الأمِّ) جَمْرٌ لاهِبٌ!	٢٠٥
٤٤	الزفرة الثالثة : أَفرٌّ من العيد	٢٠٩
٤٥	الزَّفْرَةُ الرَّابِعَةُ : سيَّانِ بَعْدَكِ أيامُ عَيشي!	٢١١
٤٦	الزَّفْرَةُ الخامسة : أمّي بِهَا قَلْبِي الجَرِيحُ مُعَذَّبُ	٢١٥
٤٧	الزفرةُ السادسةُ : ثلاثُ سنينَ وفقدُكِ أمّي	٢١٧
٤٨	الزَّفرةُ السّابعةُ : أمّي مُعَطِّرةٌ لنا رمضانَنا	٢١٩

١- من أمي نورة رحمها الله ؟

جدي عبد العزيز المانع رحمه الله

نورة بنت عبد العزيز بن غنيم المانع من قبيلة العجمان.

وُلدت في القصيم، ثم انتقلت إلى الرياض منذ طفولتها، ونشأت بين والدين رائعين -رحمهما الله تعالى - فهي بنت (عبد العزيز) الأب الذي كان غاية في الوفاء والرحمة، والكرم، وبنت (مزنة بنت محمد النصار) الأمّ التي كانت مضرب المثل في العقل، والحزم، والرأي، والصبر، والجلَد.

أمّا أبوها (عبد العزيز الغنيم المانع) فكان آية في الوفاء؛ ذلك أن زوجته (مزنة النصار) والدة أمي نورة قد ابتليت بالعمى، ثم بعد مدة زاد بلاءها أن أصيبت بالشلل، وما كان من زوجها الوفي (عبد العزيز) إلا أن صبر معها على هذا البلاء؛ بل وزاد على الصبر وفاء، حيث لم يكن ثمت خادمات، ولا كان في المنازل ممرضات مرافقات، فكان الزوج الوفي هو الخادم لزوجته، الممرض لها، الطاهي طعامها، الغاسل ملابسها، القائم بشؤونها (كل شؤونها) !

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

كان يعد لها قهوة الصباح، ويحمل جسدها المشلول من مكان مبيتها ليلاً (القهوة) وهو الاسم الشعبي للمجلس في البيئة النجدية، يحملها إلى مجلسها النهاري في (المشراق) حيث الجلسة المشمسة، أول النهار، وإذا كان الجو حارًا أو باردًا تكيّف معه الزوج الوفي فحمل زوجته العمياء المقعدة إلى حيث المكان المناسب من البيت، ويحمل معها ما تحتاج إليه من الفراش، والمخدات، والمجلس المحيط بها لزوارها، وهاتفها الملازم لها (هاتف أخضر ذو قرص دائري) كأني أراه الآن.

وهذا الزوج الوفي (والد أمي نورة) كان مضرب المثل في الرحمة والكرم، فقد مات رحمه الله يوم مات ولا يكاد يُحصى عدد الذين كانوا قد استدانوا منه، مبالغ مالية قليلة أو كثيرة، عاد بعضها، ولم تعد بقيتها !

وهو مع ذلك لم يكن من ذوي اليسار ؛ لكن « الغِنى غنى النفس»، كان موظفًا ذا راتب محدود، ومع ذلك إذا كان يوم استلام راتبه يضرب على محفظته ويتبسم مناديا : «اليوم البئر فاضت، من أراد أن يستدين حياه الله» !

وأمّا صبر (مزنة) والدة أمي ورجاحة عقلها، وحزمها، ورأيها فكان مضرب المثل لمن عاصرها من كبير أو صغير، من ذكر أو أنثى، من أمير أو غيره، لا أذكر -كما لم أسمع ممن عاش معها أكثر مني- أنها اشتكت المرض يومًا من الدهر! رغم إصابتها بالبلاء ما يزيد على عشرين عامًا قبل وفاتها !

وقد كان مجلسها، وهاتفها المصاحب لها، شاهدين على استشاراتها، التي كانت تزوّد بها كل من يطلب رأيا، أو يشكو حالاً، أو يسأل عن قصة، أو يستنشد قصيدة من مقولها أو منقولها!

إذًا فهذه أمي نورة، وهذان هما والداها، رحمهم الله جميعًا.

٢- أمّي عروسًا

سُفرة سعود

سَمِع والدي -حفظه الله تعالى- أن في بيت عبد العزيز المانع بنتًا اسمها (نورة)، فأسرع لخطبتها، ولم يمنعه قلة ذات يده، ولا كونه متزوجًا وأبًا أن يبادر إلى خطبة البنت المدللة في كنف أبويها ! كما أنه لم يلتفت إلى عبارات المثبطين، وتعليقات الساخرين الذي لم يساورهم أدنى شك أن خطبته هذه ضرب من الجنون، وأن الاستجابة لها لون من المحال !

فذهب للخطبة طارقًا الباب، وشاء الله أن تتم الموافقة، غير أنها موافقة لم تتم إلا بعد سنة كاملة كان والدي -حفظه الله تعالى- يتردد على بيت جدي مرة كل شهر تقريبًا ! قلت لأبي ممازحًا : كيف وافقوا على خطبتك ؟ فقال متبسمًا مباشرة: أشغلتهم بالإلحاح حتى وافقوا !.

ومع الموافقة قالت جدتي (أمي مزنة) لوالدي حفظه الله - وكان قد اشترى

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

(جَهاز أمي) منذ العام الماضي، حسب عادتهم تلك الأيام أن العريس يشتري الجهاز للعروس من الملابس والأواني ونحو ذلك - قالت جدتي : «يا أبو غانم (تخاطب والدي ؛ لأن كنيته منذ صغره أبو غانم باعتبار اسم أبيه الذي مات وأبي طفل في عامه الثاني) يا أبو غانم : الدنيا تغيّرت وجهازك صار له سنة عندك ؟! فقال والدي مباشرة: يا خالة: جهاز العام الماضي في محله، ومعه زيادة جهاز السنة!! يقول لي والدي -حفظه الله- وأنا أقول في نفسي: ((المهم لا يغيرون رأيهم)) ! وفعلاً زاد والدي في الجهاز المقدّم للعروس واشترى موضة تلك السنة وهو فستان فخم يعرف باسم (سُفرة سعود) وهو فستان مطرّز في وسطه ما يشبه حزام الذهب، وكان هذا أبرز الفروق بين جهاز العام الماضي وجهاز هذه السنة .

ولكن هذه الموافقة -أيضًا - جاءت مشروطة؛ ذلك أن الأهل غير مهيئين في هذا الوقت لبُعد بنتهم عنهم ؛ لسبب مهم، هو أن أمي نورة هي البنت الوحيدة في البيت وكانت جدتي مزنة النصار (والدة أمي نورة) قد فقدت بصرها في هذه المدة، فكان لا بدّ للعروس (أمي نورة) أن تضحي بفرحة عرسها وتؤخر الزواج ؛ خدمةً لأمها الكفيفة، إلا أن والدي حفظه الله قد اتفق مع والدي العروس على أمرٍ سواء؛ وهو أن يتم الزواج على أن لا ترحل العروس من بيت أهلها إلا بعد عام، فوافق العريس - والدي حفظه الله تعالى- وتم الزواج وعاش العريسان في بيت الكرم (بيت عبد العزيز ومزنة) ما يقارب السنتين.

وكان الخطّاب الذين خطبوا أمي نورة قبل والدي قد غبطوه على الموافقة، ولم يخفوا مشاعرهم تجاهه، بل أظهروا ذلك إمّا له شخصيًّا على سبيل الممازحة، وإمّا لجدتي مزنة بصفته لونًا من العتاب ! فهذا أحد الخطّاب السابقين ممن يعمل مع والدي في السوق (حيّ يُرزق حتى كتابة هذه السطور) قال لوالدي : ((أنت الحين ما تقول لي كيف كلما خطبنا بنتا رفضونا وزوجوك أنت؟!)) فقال والدي

(بكل سماحة ورضا نفس وتقبل يعكس يُسْر الحياة آنذاك): «وِشْ أسوّي»؟ النصيب والأرزاق! وأمّا الخطيب الآخر فهو (أحد محارم جدتي مزنة رحمه الله ورحمها)، فقد جاء لجدتي وقال: «الله يهديك يا خالة، أخطب نورة وترفضيني، وتعطينها أبو غانم وهو معه زوجة؟!» فقالت جدتي (الحصيفة الفخورة بصهرها): «أبو غانم مثل الصندوق ما يتكئ إلا على أربع»! فقال لها: «الله يسامحك يا خالة وأنا قِدْر أرتكي على ثلاث»!

وخلال بقاء أمي نورة مع زوجها في بيت والديها حملت بعد ستة أشهر من زواجها ببكرها مولود ذكر نزل من بطنها ميتًا عسى الله أن يجعله فرطًا وشفيعًا، ثم حملت بعده بزينة الدنيا (شقيقتي لولو) وقبل ولادتها بأشهر قليلة انتقلت مع عريسها من بيت والديها إلى بيتها الخاص.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣- صِلةُ أمّي نورة- رحمها اللّه -أهلَها

كاتب السطور مع جدي والد أمي رحمهما الله عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م تقريبا

تتمثل صلة أمي نورة -رحمها الله تعالى - أهلَها في عدة صور؛ لعل أهمها وأميزها ما عايشتُه منذ وعيتُ الحياة من كونها جادت بفرحتها الأولى (لولو) وجعلتها تنوب عنها في القيام بواجبها تجاه والديها (عبد العزيز ومزنة)- رحم الله الجميع -ذلك أن أختي الكبرى (لولو) كانت تبقى في بيت أخوالي طوال الإجازة الصيفية، ولا ترجع إلى بيتنا إلا مع بداية الدراسة، خدمة لجدتي مزنة، وجدي عبد العزيز- رحمهما الله تعالى- وخلال العام الدراسي كاملا كانت (لولو) تذهب للمبيت عند والدَيْ أمها نورة -رحمهم الله جميعا- من عصر الأربعاء إلى عشاء الجمعة، وكأني بأمي نورة -رحمها الله تعالى - وجدت في (لولو) امتدادا لبرها وخدمتها لوالديها، مع أن (لولو) هي أول فرحة أمي بالذرية، وهي البنت الوحيدة لها؛ إذ إن باقي ذريتها ذكور، ومع ذلك آثرت أن تبقى البنت الوحيدة في خدمة من يحتاجها أكثر، لعل في ذلك ما يخفف عن أمي (نورة) انفراد والديها في البيت مع

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الحاجة إلى من يشارك في خدمتهما، فليس في البيت إلا جدي وجدتي، أما خالي (محمد) فلم يمهله الأجل؛ إذ مات في عنفوان شبابه - رحمه الله تعالى - (قبل ولادتي)، وأمّا خالي (صالح) فقد كان كثير الأسفار، وبذلك تعظم الحاجة إلى (لولو).

وبهذه المنزلة أصبحت (لولو) منذ صغرها صديقة الكبار! هي الصغيرة سنًّا الكبيرة عقلاً ورأيًا ورحمة وبرًّا، وكأني بألطاف اللطيف الحكيم وحكمة المولى الخبير كانت تعدّ (لولو) لمواقف الحياة التي مرّت بها فيما بعد !

كما أن (تجربة لولو) الفريدة أضافت إليها إضافة بالغة الأهمية، من ملازمتها مجلس جدتي (مزنة) الحكيمة الشاعرة المستشارة، ذلك المجلس الذي يغشاه متعددو الأطياف، ومختلفو الأعمار، كلٌّ يجد عندها بُغيته، حتى قال أحد الأمراء من معاصري جدتي مزنة : « لو كانت الحريم تؤمّر، كان أُمّرت أم عبدالله!» يعني جدتي مزنة النصار -رحمها الله تعالى- ولأجل ذلك يمكن أن نسمي (لولو) راوية أشعار جدتي -رحمها الله تعالى- وأخبارها (على حدّ المصطلح النقدي في رواية الأشعار)؛ فهنيئًا لـ(لولو) تلك الملازمة، إضافة إلى الأجور العظيمة في البرّ والصلة، والخدمة ونفع الآخرين، والله لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً .

ومِن أوجه صلة أمي (نورة) -رحمها الله تعالى- أهلَها زياراتُها المتتابعة لهم، مع قيامها بحق الزوج، فمنذ أن عقلت الحياة وأنا أعي زيارتنا الأسبوعية لبيت جدي كل أربعاء، نركب جميعًا مع والدي -حفظه الله تعالى - (أمي ولولو وغانم وعلي وصالح وأنا) ثم نعود مساء الجمعة ! وهكذا هي زيارة أسبوعية لا أذكر أن أمي (نورة) -رحمها الله تعالى- قطعتها في أي ظرف ! ومن الطريف في زيارة أمي (نورة) الأسبوعية لوالديها -رحمهم الله جميعا- أن والدي اعتاد كل جمعة أن يتناول العشاء مع جدي (عبد العزيز) عندما كان يأخذنا مساء، مع أن والدي

- حفظه الله - كان يمرّ على بيوت أخوال إخواني غير الأشقاء ليقلهم مع أمهاتهم، بمعنى أن والدي يُركب معه - في سيارة واحدة (الجمس الأزرق) ! - كلّ جمعة نساءه وأولادهن بعد أخذهم من بيوت أنسابه (ثلاثة بيوت)، ولكنه لا يبدأ أسبوعيا إلا ببيت جدي -رحمه الله - ليتناول العشاء عنده، يتعشى هو ومن معه من أولاده الذين يكونون معه في محله التجاري قبل الذهاب إلى بيوت أخوالهم.

تلك الزيارة ذات مذاق خاص حيث يوقف والدي سيارته في العاير (وهو الاسم الدارج لطرف الشارع) لأن الشارع المفضي إلى بيت جدي - رحمه الله - ضيق لا يكاد يستوعب سيارة (الجمس) ! فيحتمل الأطفال والنساء النزول في آخر الشارع والركوب منه !

تلك الزيارة الأسبوعية كانت محل انتظارنا - نحن أبناء أمي نورة- للراحة التي نجدها في بيت (جدي) -رحمه الله- وللدَّلال الذي كنا نعيشه، فما عرفتُ (السيكل) الدراجة ذات الثلاثة إطارات إلا في ذلك البيت ! وكذلك الشأن في الهدايا المتتابعة على جميع أولاد نورة ! لكن لهذا (السيكل) طعمه الخاص ومذاقه المتميز؛ ذلك أنه جرت عادة جدي -رحمه الله- على شراء (سيكل) لكل واحد منا يتجدد كل صيفية !

وبيتهم الطيني كان مضمارًا للعبنا ومنافساتنا الماراثونية في (الدراجات) مع صغر مساحته (في عرفنا اليوم) إلا أنه في ذلك الوقت كان ذا شأن كبير ! فلا زلت أذكر أخذنا جولات السباق في (المصابيح) - وهي الممرات المحيطة بالفناء الداخلي لبيوت الطين- ولا زلت أتذكر لعبة (الغُميما) بيننا، والجيد منّا المخاطر هو الذي يختبئ خلف المساند في (الروشن) - المجلس العلوي لبيوت الطين - لصعوبة البحث في الأماكن العلوية!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومن أجمل ذكرياتنا في زيارتنا مع أمي (نورة) لأهلها -رحمهم الله جميعًا- ما كان يتكرر صباح كل خميس عندما أستيقظ فجرًا مع جدي عبد العزيز -رحمه الله- وأخرج معه حاملا (علاقة) الخبز - وهي حقيبة بلاستيكية مخصوصة تؤخذ من البيت يوضع فيها الخبز أثناء حمله من الفرن لئلا يبرد ولا يتعرض للأذى - أخرج معه كل صباح من البيت على الأقدام، فأبقى أنا في المخبز في طابور الانتظار (السِّرا) ويذهب جدي -رحمه الله- للجهة المقابلة من الشارع الآخر ومعه القِدر الصغير ليملأ به (الفول) في الأيام الأولى من افتتاح محلات الفول ! ثم ألتقي مع جدي معه الفول ومعي الخبز لنعود معًا إلى البيت، حيث يكون باقي إخوتي قد استيقظ، فنتناول الإفطار في اجتماع كان يتكرر كل خميس، والآن الآن فقط عرفت القيمة الحقيقية لذلك الاجتماع، آهٍ ! لو عاد منها خميسٌ واحد !

واستمرت زيارة أمي (نورة) لوالديها إلى أن توفيت جدتي (مزنة) - رحمها الله - في رجب عام ١٣٩٧هـ . وصُلي عليها في جامع (ابن مساعد) في شمال المربع، ولم أشارك في الصلاة ولا الدّفن ؛ لصغر سني آنذاك، مع أننا عشنا الأحداث في المنزل، من الحزن والعزاء، ماتت جدتي، ماتت مجالس الحكمة، ماتت مزنة فطويت جلسات الاستشارات، ماتت مزنة صابرة على البلاء، وأيّ بلاء ؟! ماتت مزنة ففقدت نورة أمَّها التي كانت بها برّة، ماتت مزنة وتركت نورة وحيدتها من الإناث لتبدأ صفحة جديدة .

أمّا جدي (عبد العزيز) الرجل الشهم الذي كان قائمًا على شؤون زوجته مزنة التي أقعدها المرض سنين عددا بسبب جلطة أصابتها، ولم يقصّر في حقها، فقد تزوج امرأة أصبحت كالأخت لأمي (نورة) - رحمها الله - وبذلك استمرت زيارات أمي لوالدها وزوجته، ولم يتغير البر،ولا انقطعت الزيارة، وقد فرح جدي -رحمه الله- بمولودة ملأت عليه حياته، وأخذت جزءًا كبيرًا من دلاله، وُلدت له (ليلى) أو

(الليل) كما كان يطيب له أن يسميها، ويغنّي لها ملاعبًا : « الليلَ الّي ما فيه مسْرى « ! يغني لها وإن لم تفهم طفلته (ليلى) ما كان يغني لها ؛ لأنها لا تذكر أغاني أبيها، بل ولا تذكر أباها إلا فيما بقي من صوره (الفوتوغرافية)؛ ذلك أن الأجل لم يمهل جدي (عبد العزيز) بعد جدتي (مزنة) كثيرًا ! فقد مات -رحمه الله- في طريقه إلى العمرة أواخر رمضان عام ١٤٠٢هـ مات على فراشه في مدينة الطائف !وقد أقبلت عليه الدنيا ضاحكة في صورة زواج جديد، وفرحة ببنت مثل الوردة بين يدي أبيها، يشمّها ويضمّها، ويقبّلها، مات دون سابق مرض، مات الرجل الوفي، مات ويا لَحزنَ أمّي (نورة) على فراق أبيها بعد فراق أمّها، مات أبوها وهو نشيط يؤمّل من الحياة الجديد!

ومن صور صِلة أمي (نورة) -رحمها الله تعالى- أهلها استمرار الزيارات لريح والديها بعد فراقهما، حيث استمرت في زيارة زوجة أبيها أم أختها الصغرى (ليلى)، وكنا نذهب مع أمي -رحمها الله تعالى- في زيارتها لزوجة أبيها أينما كانت ! حتى بعد خروجها من بيت جدي الذي كانت فيه يوم مات -رحمه الله تعالى- ومع ذلك كانت بيوت زوجة جدي محل زيارة أمي (نورة) - رحمها الله تعالى - كانت تزورها زيارة الأخت أختها، وكنا نستمتع بهذه الزيارة استماع الصغار في الزيارات ! وهكذا استمرت الزيارات المتبادلة بين أمي (نورة) - رحمها الله تعالى - وبين زوجة أبيها خالتي (منيرة البليهد) - حفظها الله تعالى - إلى آخر يوم في حياة أمي - رحمها الله -، بل إن خالتي (منيرة) في أواخر سنوات أمي - رحمها الله - كانت لا يطيب لها صباح العيد إلا في بيت أمي منذ الفجر الباكر ! فيا لهذه العلاقة الوطيدة والصداقة الوثيقة التي صارت فيها ابنة الزوج ابنة وأختًا لزوجة أبيها.

ومن صور صِلة أمي (نورة) - رحمها الله - أهلَها استمرار زياراتها المتتابعة لأخيها الأكبر من أمها (عبد الله بن نافع الفضلية) - رحمه الله تعالى - حتى

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

إنه لا يكاد يأتي علينا أسبوع إلا وأمي - رحمها الله تعالى - في بيت أخيها (عبد الله)؛ مما جعل سنوات طفولتنا تمرّ علينا نحن أبناء أمي نورة وعلى أولاد خالي من بنين وبنات ونحن بمثابة الإخوة والأخوات، ولولا الاستطراد لذكرت (تفاصيل صغيرة) أذكرها بأدق جزئياتها مما كان بيننا نحن أولاد (نورة) وأولاد أخيها لأمها (عبدالله الفضلية).

وهكذا استمرت صلة أمي (نورة) - رحمها الله تعالى - لوالديها مدة حياتهما، ولريح والديها حتى وفاتها ! فرحم الله النور والصلة.

٤- تعسّر ولادة أمّي نورة

مستشفى الدبيخي

« الحمد لله ما راح تعبي خسارة » مقولة طالما سمعتها من أمّي نورة – رحمها الله تعالى – وهي تروي لي تعسّر ولادتها بي ! حيث لم يشاركني في هذا التعسر إلا شقيقي الأكبر (غانم) – حفظه الله تعالى – لكن ولادتي كانت أشد تعسّرًا، ولأقرّب الصورة أكثر فسأجعل الحديث على لسان أمّي – رحمها الله تعالى – تقول: «جاءتني آلام ولادتك عدة أيام، ألمٌ مع عدم وجود آثار الولادة، ألمٌ رأيت معه الموت، حتى وصلت حالتي من الحرج ما اضطرني للنقل إلى المستشفى إذ أعلنت الطبيبات الزائرات اللاتي لازمنني في البيت أن حالتي حرجة، حتى صرحت الطبيبة الزائرة من المستشفى الأهلي (مستشفى الدبيخي) التي جاء بها جدك (عبد العزيز) صرحت لأمي مزنة بقولها : بنتك نورة حالتها حرجة، وتراها ستموت، ولكن الأفضل ألا تموت عند أطفالها (تعني لولو وغانم وعلي) فوافقت أمي مزنة على نقلي للمستشفى بشرط أن تصحبني (أم إبراهيم) –وأم إبراهيم هذه

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

هي(رِبعيّة) أمّي نورة- رحمها الله تعالى -كانت مع أمي ليلة زواجها، وهي التي ترافقها في نفاسها، وفي انتقالها إلى بيتها، وهي التي تحمل لها طفلها عند خروجها ليلة خروجها من النفاس إلى بيتها - ولما انتقلتُ إلى المستشفى الأهلي ازداد الألم دون انفراج ! وبقيت يومًا كاملاً على ذلك الوضع! حتى رأى الطبيب المسئول أن تتم عملية قيصرية! وهي قليلة الحدوث تلك الأيام، إلا أنهم تأخروا في تقرير العملية مع أنهم رسموا على بطني، (يعني حدّدوا مكان العملية)، لكنهم تأخروا ينتظرون توقيع والدك (تعني والدي عبد الله حفظه الله) الذي لم يكن في المستشفى ساعة تقرير العملية، فأخذت القلم من الطبيب من شدة ما أحس به من الألم، وقلت أنا وليّةُ نفسي، أنا المسئولة، أنا التي أوقّع لكم بما تريدون ! وفي هذه الأثناء كان فرجُ الله أقربَ، وتيسيرُه أسرعَ، فبدأ الطلق الأخير، وكانت الولادة طبيعية والحمد لله».

هكذا كانت أمّي نورة - رحمها الله تعالى - تخبرني قصة ولادتي، وتقول «أشد ما لقيت من ولاداتي ولادتي فيك أنت وقبلك غانم، لكن الحمد لله ما راح تعبي خسارة» !

وهنا أستطرد ؛ لأشير إشارة سريعة إلى وِلادات أمي نورة - رحمها الله - أمّا أول ولادة لها فكانت بطفلها الذي مات لحظة ولادتها، مع القابلة التي تأتي إلى بيت أمها مزنة، للتوليد لأن أمي مزنة - رحمها الله - كانت ترفض ذهاب بنتها (نورة) للمستشفى خوفًا عليها من المستشفيات! وهذه الوفاة - كما أخبرني أبي - جعلته- حفظه الله - يُخفي عن أمي مزنة - رحمها الله - قرب ولادة أمي نورة - رحمها الله - الثانية (ولادة لولو) حيث لم يذهب بأمي نورة - رحمها الله - إلى بيت أهلها، وإنما استعان بعد الله تعالى بأمه - جدتي هيلة رحمها الله - التي باشرت توليد أمي رحمها الله . وأما الولادة الثالثة (ولادة أخي غانم) فتمت في بيت جدتي مزنة - رحمها الله - وحينها كان والدي- حفظه الله - مسافرًا إلى (فِينَّا) لعلاج أخته

(عمتي منيرة). وهناك بُشِّر بأول مولود ذكر له. وأما الولادة الرابعة (أخي علي الأول الذي توفي صغيرا) والولادة الخامسة (أخي علي حفظه الله) فكانت ولادة طبيعية في بيت جدتي مزنة رحمها الله.

وبعد تعسّر أمي نورة - رحمها الله - بولادتي اقتنعت جدتي (مزنة) - رحمها الله - بضرورة الولادة بالمستشفى، وهذا ما تم دون نقاش في الولادة الأخيرة لأمي (نورة) - رحمها الله - (ولادة أخي صالح) التي تمّت في مستشفى الشميسي دون معارضة.

وبعد ولادتي دخل أبي بيت جدي وجدتي - رحمهما الله تعالى - مسلِّمًا على أمّي نورة وهي في نفاسها بي، فقال إيش أخبار (حجاب) ؟ - وهو الاسم الذي كانت أمي (نورة) سمتني به آنذاك - فسمعت جدتي (مزنة) ذلك من أبي فقالت: أفَا يا بو غانم، حتى أنت ؟ ما ظنيتها منك ! تعني تسمية (حجاب)، فقال أبي: هذه رغبة نورة، فقالت : اترك عنك نورة، ما يصلح هالاسم ! فرجعت أمي نورة لرغبة أمها مزنة- رحمهما الله - وغيّرت رغبتها بتسميتي (حجاب) مع حرصها عليها بِرّا بأمها، وسمّتني (إبراهيم)!

ولكنْ ! ماذا بعد ولادتي ؟! تفاجأت أمي ووالداها - رحمهم الله تعالى جميعًا- بأن المولود الجديد يحمل عيبًا في قدميه!

وللحديث بقية ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٥- مَيلُ قَدَميّ عند ولادتي

بين يدي شقيقتي لولو سلمها الله ١٣٩١هـ - ١٩٧١م

بعد ولادتي تفاجأت أمي نورة - رحمها الله - بعد ولادتي بأمر أقلقها !

نعم فالذي فاجأها ووالديها ! أنني خرجتُ من بطن أمي - رحمها الله - مائل القدمين ؛ فقد كانت قدماي ملتفتين إلى الداخل، مما يعني عدم قدرة هذا الطفل على المشي ! فكيف سيتخلف عن أقرانه؟ وكيف سيعيش مع باقي إخوانه؟! - خاصة مع وجود أخوين لي غير شقيقين قد وُلدا قبلي بأيام قليلة - فما كان من أبي - حفظه

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الله – وجدي – رحمه الله – إلا أن اتفقا على المبادرة في العلاج مهما كان الثمن! وأنّى كانت معاناة الطفل من الألم ! ولكن عاطفة أمّي – رحمها الله – على مولودها سبقت، فلم تتحمل بكاءه، ولا آلام فحوصاته، وما يصحب ذلك من الإجراءات، ولذا كانت أمي نورة – رحمها الله – عندما تفتح مهادي تواري قدميّ عن أنظار أبي – حفظه الله – وتطلب من (أم إبراهيم) ذلك؛ لئلا يرى أبي وضع القدمين فيعالجهما! خوفًا منها عليَّ من ألم العلاج، ورحمةً منها – رحمها الله –بطفلها، غير أن إخفاءها مرضي لم يستمر طويلا، فقد علم أبي بالأمر ! بعد خمسة عشر يومًا من ولادتي، وهنا حاولت أمي – رحمها الله – جاهدةً إقناع زوجها وأبيها بتأخير العلاج! حتى يكبر طفلها قليلا! لكنّ حزمَ الرجلينِ غلبَ عاطفةَ المرأة ! وهنا استشار أبي طبيبًا شعبيًا (من أهل سدير) فأخبره أنه لو رأى الطفل في يوم من ولادته لعالجه في جلسة واحدة ! ولكن الأمر الآن اختلف ! وهذا ما جعل أبي – حفظه الله – يستشير طبيبًا لبنانيًا مشهورًا آنذاك، وهو الدكتور (عبد الله الرايس) الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للداخلية في لبنان، فأشار عليه هذا الطبيب أن يراجع بي طبيبًا مميزًا في هذا المجال، حتى قال له: إنه مميز ليس على مستوى المملكة فقط، بل على مستوى العالم أجمع، وهو الدكتور(كميليو سعد) طبيب يحمل جنسية أمريكية، ذو زوجة لبنانية، وبعد اطلاع الدكتور (كميليو سعد) على وضعي قرر أن قَدَمَيّ الطفل بحاجة إلى (حذاء خاص)، بحيث يكون بين الحذائين حديدة صلبة مستقيمة تمنع من ثني القدمين، حتى تعتاد القدمان الطريّتان على الاستقامة في الوضع الطبيعي، وفعلا فقد عشت في هذا الحذاء الحديدي عدة أشهر! والضحية في ذلك زينة الدنيا (لولو) التي كانت تتحمل عناء ذلك، فقد كانت تحملني معها أثناء لعبها مع الأطفال! وتتحمل تقلبي بجوارها وضربي جسدها بما أحمل من حديد أثناء نومنا؛ لأن إخوتي يتحاشون قربي في النوم (يوم كان نومنا في غرفة واحدة، على الأرض في فُرش متقاربة) ولولو وحدها كانت تتحمل النوم بجواري ! حتى حدثتني

(لولو) أنها كانت تذهب هي وإخوتي وأخواتي (الأشقاء وغيرهم) وهم أطفال مع والدي -حفظه الله- لمحلات والدي التجارية في شارع الغرابي، فما أن تقف سيارة والدي حتى يتواثب الأطفال من السيارة فرحًا بالسوق، ولولو الأخيرة نزولا من السيارة؛ لأنها تحملني بحذائي الثقيل، فيصعب عليها مجرد النزول، وحينئذ يكون الأطفال قد ابتعدوا عنها، وبعد نزولها من السيارة تتعب الفتاة (النحيلة جدًا) من حمل الطفل (الممتلئ) وحذائه الحديدي! فترجع تنتظرهم في السيارة! تاركة اللعب واللهو المحبب إلى نفسها؛ بسبب ما تحملت من مسئولية!

آهٍ يا لولو! منذ صغركِ وأنت تخففين عن أمي نورة - رحمها الله - آلامها، فَشَكَر الله لك أيتها البنت البارّة، ورحم الأم الحانية.

بنـت الأصيلـهْ دوم تطلـع أصيلـهْ	والمهـره العليـا أبوهـا حصـاني
ذي بنـت نـوره سـالمة مـن رذيلـهْ	والزهـر يثمـر في فسـيح الجنـاني
ربيـت يمـه قرتـك ذي الكحيلـهْ	لولـو يايمـه ناصعـه بالبيـاني

(أبيات من إحدى قصائدي المتشرفة بـ«لولو» كُتبت في تأريخ ٢٦/١٠/ ١٤٢٥هـ)

وكأنّي بأمي ووالديها - رحمهم الله جميعا - وبأبي ومعهم (لولو) يعيشون فرحة صبرهم، ولذة تحملهم، وهم يرون (إبراهيم) يخطو خطواته الأولى في وقتها المحدد مع أترابه، متزامنا مع أقرانه، إذ بَرِئَ تماما من تداخل القدمين، مما جعل أمي نورة - رحمها الله - تردد عند ذكر هذه القصة، ذاكرة فضل أبي وجدي: «الحمد لله إنهم ما سمعوا كلامي، وتركوك دون علاج»!

ومن مظاهر فرحة أمي نورة – رحمها الله – وأهل بيتي بعافيتي أنهم احتفظوا بحذائي الخاص في بيت جدي إلى أن انتقل الحذاء بعد وفاته – رحمه الله– إلى بيت أمي – رحمها الله – ثم أخذتُه معي في بيتي ورآه الكبار من أولادي، ولكنني فقدتُه – مع الأسف – قبل سنوات قليلة. آهٍ يا ذلك الحذاء! طالما كنت أراه، وأجدِّد حمدي الله تعالى على العافية ... وللحديث بقية

٦- يومٌ دراسيٌّ مع أمّي نورة

(ابني سلطان) أمام باب بيتنا في شمال المربع

كانت أمّي نورة -رحمها اللّه- في الغاية من العناية بأولادها الخمسة (لولو، وغانم، وعلي، وإبراهيم، وصالح) حتى لا تكاد تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وفّرتها لنا، وهيأتها لننعم بالعيش الآمن، ونتفرغ للدراسة، فمن ذلك أنني لا أذكرُ أن أمي -رحمها اللّه - أيقظت واحدًا منا بصراخ أو عتاب، فضلا عن الضرب الذي لا يعرف إلى يديها سبيلا ! بل كانت توقظنا بكل حنان، ولطف مصحوبين بالدعاء! وعند اجتماعنا على سُفرة الحليب كل صباح، كانت - رحمها اللّه - من مزيد العناية بنا قد سنّتْ سنّة في إعداد الحليب لنا، عُرفت بها فيما بعد؛ حيث كانت تأتي بالحليب الساخن والأكواب التي بعددنا الخمسة، وتزيد كوبًا أو كوبين لغرضٍ آخر، يمكن أن أسميه الآن (كوب الرحمة)! بحيث تقوم بترديد سكب الحليب بين الكوبين لتكسر حرارته، فيشربه الواحد من أولادها دافئًا، وبذلك تضمن - رحمها اللّه - أن طفلها لن يتعذر عن شرب الحليب لحرارته، كما أنه لن يشربه حارّا فيؤذيه ! فيا للّه

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

كم كان قلبها كبيرًا ! والعجيب أن هذا العمل يتكرر معنا كل صباح دون أن تشعر – رحمها الله – بأدنى ملل، أو تبدي أي ضجر ! كانت هذه الأحداث متكررة يوميًا دون انقطاع لأعوام عديدة، في حدود الأعوام (١٣٩٥هـ – ١٤٠٥هـ).

ولكون هذا الأمر كان مما تميّزت به أمي نورة – رحمها الله – وعُرفت به، فقد صارت الأحداث المشابهة لها العمل تُذكِّر بها وبعملها الرائد، ومن ذلك أن خالتي أم إسماعيل (زوجة والدي) حدّثتني قبل أشهر أي في مطلع عام (١٤٣٤هـ) أن ابنها الكبير أخي (إسماعيل) جاء ليفطر عندها إفطار عاشوراء، وأرادت أن تخدمه فقامت بتبريد (الشوربة) في باديتين (على طريق أمي نورة) تقول: فذكرت نورة وتبريدها الحليب لأولادها، فبكيتُ وخصصتُها بالدعاء في وقت الإفطار ! سبحان الله تذكرها ضرتها باكية داعية لها، ذاكرةً منقبة من مناقبها، مرَّ عليها ما يزيد على الثلاثين عامًا! وهنا كانت خالتي(أم إسماعيل) تمسح دموعها قائلة : والله فقدناك يا نورة، الله يرحمك يا نورة !

ونظرًا لما لهذه الطريقة الرحيمة أعني تبريد الحليب من تمكّن في نفس أمي نورة – رحمها الله –فقد استمرت معها، وانتقلت بها من أولادها إلى أحفادها، فها هم أولاد أختي لولو عندما تكون أمهم نائمة عند أمي نورة رحمها الله لأي ظرف نحو سفر والدهم، أو نفاس أمهم، فإن هؤلاء الأطفال (عبد الله، ومشعل، وهيفاء) ينالهم من تبريد الحليب ما نال أمهم وأخوالهم من قبل! وهو ما علق في ذاكرتهم حتى بعد وصولهم إلى الجامعة وتخرج بعضهم فيها.

وعودًا على اليوم الدراسي مع أمي نورة – رحمها الله – فبعد أن نتناول الحليب (على الطريقة النُورية) ونهمّ بالخروج للمدرسة تقوم – رحمها الله – مرتدية (جِلال الصلاة) وتقف بباب الشارع ترقبنا بلحظها ولا تغلق باب البيت حتى ندخل باب مدرستنا الواقعة في آخر الشارع ! ولو سألنا مدرسة محمد بن القاسم

الابتدائية في حي شمال المربع لأخبرتنا كم كانت أمي نورة - رحمها الله - ترقب تلك المدرسة بنظرها حتى تواري أسوارها الرفيعة فلذات كبدها! الله كم هو رائع الشعور بالأمان والاطمئنان الذي يصحبنا ونحن نرى مصدر أمِننا (أمّنا رحمها الله) وهي ترعانا بعينها، حيث جمعت بين الحشمة والحياء من جهة، وبين الرحمة والحرص على الأبناء من جهة أخرى!

وإذا حان وقت الظهر وكان خروجنا من المدرسة ركضنا إلى البيت بشغف! تَسُوقنا فطرتنا إلى التوجه مباشرة إلى البيت، فلا مرور على مطاعم، ولا نزول في بقالات على الطريق! وإنما التوجه إلى البيت، حيث خاصية من خصائص بيتنا وقت الظهيرة ألا وهو مذياع أمي نورة - رحمها الله -الذي كان يستقبلنا يوميًا بصوته الروحاني حيث المصحف المرتّل للشيخ (ابن سبيّل) - رحمه الله - صوت يملأ البيت كله اطمئنانًا وإن كان مقر المذياع المطبخ حيث تمضي أمي سحابة نهارها في إعداد الغداء لنا، لكنه يملأ جنبات البيت الصغير في حجمه الكبير بقيِّمته، العظيم بملِكته ومدبِّرة شؤونه (نورة) - رحمها الله - بيت مكون من غرفتي نوم ؛ غرفة أمي وأبي، والغرفة الأخر ىغرفة بقية العائلة (لولو وغانم وعلي وإبراهيم وصالح)، والمقلّط، والمجلس، والبلكونةوهي المتنفّس لنا، ذات السور القصير المزين بحوض زراعي لا تتجاوز مساحته قدر (شبر في متر)! لكن هذا الحوض- مع صغره - كان يزدان بأعواد الريحان! الذي يملأ بعبقه المكان، تطل هذه البلكونة الأرضية على الحوش ذي الأمتار القليلة الذي كنا نعدّه ملعبًا دوليًّا يتسع لمبارياتنا الكروية كل يوم! إذْ كنا نلعب فيه نحن أبناء أمي نورة - رحمها الله - ونستضيف فيه باقي إخواننا (غير الأشقاء)، وبطبيعة الحال كنا نستضيف بعض أولاد الجيران! الكلّ كان في هذه المساحة الصغيرة! ولا أذكر يومًا من الأيام أن أمي - رحمها الله - تضايقت من لعبنا أو استضافاتنا! وكأننا لا نزعجها وقت الظهيرة، أو العصر، أو ربما ما بعد المغرب!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وفي ليالي الشتاء إذا استدعى الأمر أن (تروّش) الأم الحنون أطفالها قبل النوم فإن الأم المجتمعة رحمة المليئة شفقة ورأفة أمي نورة - رحمها الله - لا ترضى أن يبيت الأطفال دون نظافة، ولا تسمح نفسها أن يتعرضوا للبرد، فتلجأ إلى طريقة تنظيف خاصة، حيث كانت تتخذ عدة إجراءات للوقاية من البرد أثناء التنظيف، فمن ذلك أنها تجهّز الغرفة بالدفاية، وتأتي بالماء الدافئ في إناء واسع كبير، وتجهّز الفوطة والملابس، و(تروّش) الواحد منا داخل الغرفة بالقرب من الدفاية، بحيث تجفف أجسادنا، ونلبس، وننام مباشرة!

وإذاكان وقت الخلود إلى الراحة والسكون للنوم فإننا نبيت مع أمي نورة - رحمها الله - على وضعين اثنين ؛ إمّا أن يكون أبي - حفظه الله - عند أمي تلك الليلة، بمعنى أن الليلة ليلتها، فهذا يعني أننا لن ننعم معها بنوم، لنومها في غرفتها الخاصة التي لا نكاد ندخلها، إجلالا لأبي، وحفاظًا على نظافتها وخصوصيتها، وهي ليلة تتكرر كل أربع ليال ؛ لأن أمي - رحمها الله -كان يشاركها في أبي ثلاث زوجات، وفي الليالي الثلاث التي لا يكون أبي عند أمي تأتي الأم الحنون تاركة سريرها الذي هو بطبيعة الحال أريح لها، وأوفر، وأكثر راحة، وأقل إزعاجًا، تأتي لتتوسطنا في النوم على الأرض بين الفرش ! وليت الأمر يقف عند هذا الحدّ ! ولكننا بحكم طفولتنا وربما ما نسمع مع الأصدقاء من القصص المخيفة من نحو (السعلو، وعوّف يالله، وأبوعيون خطوط!) وغيرها من الأساطير الشائعة تلك الأيام،كنا بسببها لا نشعر بالأمن إلا في حال كانت (أمي نورة) يقظة بيننا لم تَنَمْ بعدُ ! ولذلك فصار عادة لنا بين حين وحين أن يسألها أحدنا : يمّه نمتِ ؟ فيكون اطمئنانا بجوابها، وسماع صوتها ! وربما كانت مجهدة أونائمة فتسمع السؤال الخائف من أحد الأبناء فتغالب نومها لتجيب بعدم نومها ليطمئن ولدها ! وليت الأمر يقف عند ذلك ! حيث إننا نحن الأبناء (وربما أنا وصالح على وجه الخصوص) نعيش حربًا باردة ! ذلك أن أمي نورة - رحمها الله - كانت تتوسط بجسدها الطاهر

المليء بالرحمة والشفقة على أولادها،تتوسطنا في نومها لتوزع دفأها وحنانها بيننا بالتساوي، ولكنّ مَنْ يقرب منها يطمع بالمزيد، ولذلك كنا نزعجها - سامحنا الله - وربما نوقظها من ألذ نومها في بدايات غفوتها بقول الواحد منا : « يمّه خلّي وجهك عندي « فإذا كانت نائمة على جنبها الذي يلي (صالح) كنت أنا من يقول ذلك، والعكس بالعكس! وهكذا تتقلب بين جنبيها إرضاء لولديها ! حتى يغلب النوم أعين الصغار، ولا يستيقظون إلا دعوات الأم الرؤوم، وكأس الحليب الساخن الذي سيمرّ الآن بعملية التبريد، على (الطريقة النُورية) ليبدأ يوم دراسي جديد، بكل ما فيه من تفاصيل !

وللحديث بقية ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٧- عناية أمّي نورة - رحمها الله- بوالدي حفظه الله

من ذكريات الماضي الجميل

أتعجَّبُ كيف كانت عناية أمي نورة – رحمها الله – بوالدي على درجة كبيرة، تكاد تصل (حدّ التقديس) ! أقول ذلك غير مبالغ، ودليلي في ذلك عدة صور تحتفظ بها ذاكرتي منذ الطفولة (وذاكرة الطفل صادقة)، فمن تلك الصور أن الليلة التي يكون فيها مبيت أبي – حفظه الله – عند أمي – رحمها الله – أن تلك الليلة تكون مميزة من غروب الشمس، وذلك بمزيد العناية بنظافة المكان، وبرائحة البخور التي تملأ البيت، وبالعطور التي تفوح من غرفة أمي – رحمها الله – كل ذلك قبل وصول أبي من محلاته التي يمضي فيها نهاره (باستثناء الظهر) وجزءا من الليل، يعود أبي لتستقبله أمي – رحمها الله – بتلك الروائح الزكية، وبالعَشاء المعدّ على أحسن وضع، (المطبوخ) طبخًا في البيت، حيث لا طلب من المطاعم، ولا اكتفاء بحواضر البيت، والجاهز من المعلّبات !

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

والعجيب أن أحد جيراننا في ذلك الوقت - حي يرزق حفظه الله - كان يقول مقولة اشتهرت تلك الأيام ؛ إذ يقول:» أعرف الليلة التي يكون فيها أبو غانم عند أم غانم من روائح البخور التي تفوح من البيت من بعد صلاة العشاء» !

وإذا كان من الغد حيث وقت الغداء فروائح الأكل المميز الأصيل ببهاراته، تكاد تجذب المارّة في الشارع فضلا عن أهل البيت، وعندها نجلس باحترام عجيب بين يدي والدي - حفظه الله - الآن علمت أن منشأ ذلك الاحترام هو ما نجده من طريقة التعامل (شبه المقدّس) الذي يحظى به والدي من قِبل زوجته الرائعة أم أولاده نورة - رحمها الله- وهنا أذكر جانبًا من غدائنا في حضرة الوالد حيث الرز بنكهة خاصة كأنني أتذوق طعمه الآن ! الرز الذي قد حفّت به الكوسا، واللوبيا، والبطاطا، والبزار، وعلى السفرة إدام الباميا، الذي لا أعلم هل مذاق ذلك الإدام في المعدة ؟ أم في الدماغ ؟! طعم جعلني حتى الساعة أفضل إدام الباميا، وإن اختلفت الطعوم! هذا فضلا عن إتقان أمي نورة - رحمها الله - طبخة (الجريش) إتقانًا جعلها تحمل الاسم نفسه حيث تعارفنا على اسم (جريش أمي نورة)، ونعني به الجريش المتصف بعدة صفات، فهو الجريش المتماسك، ذو البزار العبق الرائحة، الموضوع في البوادي الخاصة، إضافة إلى تفننها - رحمها الله - بالقرصان المصحوب بقطع اللحم، الممزوج بأصناف الخضار المطبوخة مع القرصان، بطريقة أخّاذة، مع العناية الفائقة في شكل صف (السفرة)، وتوزيع بوادي الجريش بإتقان، لأن أمي نورة -رحمها الله -كانت كثيرًا ما تقول لنا: «العين هي التي تأكل، وليس البطن»! تقول ذلك لنا؛ لتحثنا على الإتقان في إعداد الطعام، وفي صفه، وفي نظافة المكان، وهذا ما تعلمناه منها - رحمها الله - عمليًا.

الله ما ألذّ تلك السفرة ! وما أطيب ما فيها ! وما أغلى الجالسين حواليها ! سيد الجلسة أبي - حفظه الله- وأمي ربّة المنزل المتقنة- رحمها الله - والفتاة

المؤدبة المتعلمة المثقفة (لولو)، والأبناء الأربعة (غانم، وعلي، وإبراهيم، وصالح)، الجميع في المقلّط الذي كنا نراه أوسع الغرف، وهو في الواقع لا يتجاوز مترين في أربعة أمتار، لكنه يزدان بتيار الهواء الطبيعي النافذ من خلال فتح البابين الشرقي والشمالي، وكأننا تحت تبريد أحسن المكيفات عالية الجودة!

وأثناء وجبة الغداء لا أزال أذكر ترديد والدي - حفظه الله - النكت والطرائف، ونحن في غاية الضحك على نكته، حيث لا يزيدها التكرار إلا استحسانًا، فكم مرة كان والدي يمسك قارورة البيبسي، أو كأس اللبن، ويمدّه إلى أحدنا فإذا أراد الواحد منا تناوله يقول والدي ممازحًا: خذ بالك من أولادك! (على طريقة عادل إمام المشهورة)، ونضحك رغم أننا أكلنا هذا المقلب من والدي ما يقارب مئة مرة! وكثيرًا ما كان أبي في جلسة الغداء يذكرنا بقصة أحد معارفه يوم كان صغيرًا الذي كان يقول لأهله وقد بقي لقمة أخيرة في الطعام: «أويلاه، خلوا لي هاللقمة»، يقصد هذه الردة من الأكل، فنضحك عند سماع هذه النكتة في المرة السبعين كضحكنا عند سماعها في المرة الأولى! والذي يزيد حسنها وجمال وقعها أن والدي يستشهد بها كلما تكلم أحدنا بكلام فيه لثغة، ومن ذلك ما كان يكرره أبي مستملحًا من إيراد قصة أخي (علي) عندما رأى أحد أطفال عمي وقد جَرحت زجاجةٌ مكسورةٌ قدمَه فأدْمتْها، فقال علي (بلثغته آنذاك): «لو هو أنا كان أنقَّها!»، والترجمة: لو كنت مكان هذا الطفل لقفزت فوق الزجاجة، وما أصابني الأذى! فطالما ردَّد والدي على مسامعنا: «كان أنقَّها»! أمّا أخي (صالح) فلأنه أصغر الأولاد (القِعدة) فكلّ شيء منه محبَّب، على حدّ قول أمي - رحمها الله -: «القِعدةْ، حُبُّه رِعدةْ»!

ومن أحاديث (القِعدة) ما يردّده أبي - حفظه الله - كثيرًا من طرافة القصة التي مرّت به عندما كان يقوم بتدريس أخي صالح (القراءة والهجاء) في درس الأفعال: يزرع، يحصد، ينام، يضرب، وأمام كل كلمة صورة معبّرة،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

والطفل(القِعدة) كان فيما يبدو يقرأ الصور لا الكلمات! بدليل أنه لما وصل إلى كلمة (يضرب) ورأى الصورة المعبّرة (صورة رجل معه عصا يضرب بها) فقرأها صالح : (يَلْسُطُ)! وهنا لا تسل عن ضحك والدي – حفظه الله – من هذه القراءة الخاصة ! التي لا يزال يذكرها والدي حتى اليوم وقد صار الطفل (القِعدة) مدرِّسًا في المرحلة نفسها! هذه القصص وأمثالها تزيد جمالا بابتسامة أمّي نورة – رحمها الله – المشرقة، عند سماعها على مائدة الطعام العامرة الجامعة.

وبعد وجبة الغداء هذه يخلد والدي – حفظه الله – للقيلولة، وعندها لا يحتاج أبي أن ينبهنا نحن الأطفال إلى عدم الإزعاج؛ لاعتماده على مَنْ ربّتنا فأحسنت تربيتنا، وعوّدتنا على احترام والدنا وعدم إزعاجه لا سيما في حال نومه، وما أن يستيقظ والدي – حفظه الله – مع أذان العصر إلا ويجد أمي – رحمها الله – قد أعدت له قهوة العصر، وتوابعها، والشاي ذلك المشروب الأساسي بالنسبة لوالدي الذي لا بد من تناوله قبل أن يخرج لمحلاته التي يمضي فيها غالب وقته، حيث يخرج من أمي – رحمها الله – مع صلاة العصر ليعود إليها بعد ثلاث ليالٍ بعد العِشاء.

وهنا يمكنني أن أصف غرفة والدي– حفظه الله – المعدّة بعناية من قِبل زوجته الصالحة أمي نورة –رحمها الله –شريكته في الحياة وفي الغرفة، فالتسريحة تزدان بالعطور، وبالكريمات المعروفة في ذلك الوقت، والسرير يتغير مفرشه في كل ليلة يأتي فيها الوالد – حفظه الله – والمخدّة الطويلة (أم نفرين) تزيد جمال السرير بغطائها المتجدد المزدان بما نُقش عليها من الورود.

ولا أذكر طوال حياتي أنني رأيت في تلك الغرفة ورقة على الأرض، أو أمرًا يحتاج إلى إصلاح، أو غبارًا، أو نحو ذلك، وما ذاك إلا للعناية الدائمة، والصيانة المتكررة لتلك الغرفة التي سيدخلها مَنْ التعاملُ معه (شِبه مقدّس)! غرفة لم تطأها أقدام الخادمات، غرفة قد حظيت بعناية خاصة ممن ترى وجوب العناية بالزوج ومتطلباته.

ومن أبرز مظاهر عناية أمي نورة – رحمها الله – بوالدي قيامها بإكرام ضيوفه، والعناية بالمناسبات والولائم التي يقيمها والدي – حفظه الله – بين الحين والآخر، والعجيب أن والدي – حفظه الله – كان يقيم مناسباته في بيت أمّي – رحمها الله– في اليوم الذي يبيت عندها، وفي غيره من الأيام! مع توافر المجالس في البيوت الأخرى، يطلب أبي من أمي – رحمها الله – إعداد الوليمة، فيكون الطبخ في المنزل، والقهوة، والشاي، والبخور، يزين مجلس الرجال، وأبي سيّد في مجلسه جالس مع ضيوفه، حتى إذا تمَّ إعداد السفرة جاء لينظر إليها ويدعو الضيوف للدخول، وقد رأى من حسن الترتيب ما يدعوه إلى الفخر، ببيته وربّة بيته أمي نورة – رحمها الله –

أذكر أنني كنت أتحدّث مع إحدى خالات والدي – رحمها الله –في حياة أمي نورة – رحمها الله – وأيام نشاطها، فجاء ذكر أمي عند خالتي – رحمهما الله جميعا – فقالت : « والنعم بأمّ غانم، تحشم ولد أختي، وتقود وجهه»، وأضافت خالة والدي في حديثها عن أمي نورة – رحمهما الله – : «حبيبة، ليّنة، طاهر قلبها، ما بها غِلّ» وذلك مما رأته من عناية أمي – رحمها الله – بزوجها الذي هو ابن أختها.

ومن مظاهر عناية أمي نورة – رحمها الله – بزوجها عنايتها بأهله من أمّ وأخوات، وأقارب. ومن المواقف العجيبة جدا فيما يدخل في احترام أمي نورة – رحمها الله – زوجها وأهله أن إحدى قريباتي– حفظها الله – حدّثتني بقصة مفادها أنها قالت لجدتي (هيلة أم والدي) – رحمها الله وحفظه – : «يا أم عبد الله خلينا نروح لفلانة»، تعني إحدى قريباتي اللاتي هن أقرب لجدتي من أمي رحمهما الله فرفضت جدتي – رحمها الله – الذهاب، فغيّرت تلك القريبة طلبها وقالت لجدتي – رحمها الله – : « طيب خلينا نروح لأم غانم»، فقالت جدتي (أمي هيلة) – رحمها الله – : « إن كان لأم غانم مشينا !» سبحان الله ! وهنا أتساءل ما الذي جعل (أم

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الزوج) تفضّل الذهاب إلى زوجة ابنها على الذهاب إلى من هي أقرب إليها منها؟! ما السرُّ في تعامل أمي نورة - رحمها الله - مع أم زوجها وأخواته، حتى يَرغبنَ في الذهاب إليها، بل ويُفضِّلنَ ذلك على زيارة من هن أقرب إليهن منها ؟!

رحم الله الزوجة الصالحة التي قامت بحق زوجها خير قيام،... وللحديث بقية

٨- قيامُ أمي نورة -رحمها الله- بكل ذي حاجة

من الصفات الرائعة التي حبا الله – تعالى- بها أمي نورة – رحمها الله – رأفتها بكل ذي حاجة، وقيامها بشؤون كل محتاج، أيًّا كانت حاجته، وهذه الصفة تحمل العديد من الصور التي عايشها كل من خالط أمّي نورة –رحمها الله-

فمن تلك الصور ما نشأنا عليه في بيتنا السابق (في شمال المربع) حيث كان أمام بيتنا أرض فضاء (براحة) وقد أقام بها بعض أهل المناطق النائية عن الرياض بيوتًا من خشب (صنادق)، ولأن أهل هذه (الصنادق) يفتقرون إلى الحاجات الأساسية من مثل الثلاجات ونحوها، فقد اعتدنا أن نرى من أمي نورة – رحمها الله – عملا صالحًا نشأ معنا منذ طفولتنا الأولى، ألا وهو قيامها – رحمها الله – بوضع كميات من الماء في (الفريزر) في أوانٍ صغيرة (طاسة) أو (غضارة) حسب ما كنا نسميها ذلك الوقت حتى تتجمد، وذلك ليسهل حملها وهي قوالب ثلجية، فتطلب منا –رحمها

الله – أن نذهب بها إلى جيراننا الذي لا يملكون ثلاجات، وكم هي سعادتنا أن نذهب بالماء المثلج لأولئك الجيران، وكم هي كبيرة تلك الفرحة التي تلقانا بها جارتنا (أم يحي) أوغيرها من سكان تلك (الصنادق) حينما تبرّد عليهم أمي نورة – رحمها الله – لهيب الصيف، ووهج سقف بيوتهم (الشينكو) المشتعل بانعكاسات الشمس الحارقة! عمل يتكرر يوميا، والآن عرفتُ أنه عمل لم تكن ترجو منه أمي نورة – رحمها الله – من الناس جزاء ولا شكورا، عمل يُقدَّم إلى فئة لم تكن تأمل من ورائها ردَّ جميل، ولا تبادل مصالح، ولا طمعًا في حصول منافع دنيوية!

ومن الصور التي تجلي صفة عناية أمّي – رحمها الله – بمن يحتاجون العناية– أيا كان شكل تلك العناية –أن امرأة من جيراننا كانت أمي نورة – رحمها الله– تتعاهدها بين الحين والحين بهدايا، وطعام من طعامنا، يُغرف لها من أصل الطعام، ويصل إلى تلك المرأة قبل أن نشرع نحن في تناول طعامنا، حفاوة (خاصة) بتلك المرأة؛ ذلك أنها من ذوي الجاه واليسار، لكنها عقيم لا يُولد لها، وهذا سرُّ عناية أمّي –رحمها الله– بها حتى كأنها أخت لها، ولا أذكر أن أمي –رحمها الله– كانت تزور أحدًا من الجيران في بيوتهم كزيارتها الخالة (لطيفة) هذه، وأما إرسال (الجريش) لها بالأواني الفاخرة عند الظهيرة فأكثر من أن أحصيه، جريش مزدان بالبزار الذي تسبق رائحته رؤيته، موضوع في بادية خاصة يعلوها غطاء يزيدها جمالا، وفوق البادية وغطائها منشفة المطبخ النظيفة الخاصة بتغطية الأواني، تفاصيل أذكرها في مجملها وإن كان بطل تلك المهمات في الغالب هو أخي (علي) –حفظه الله تعالى – الذي كان له مع جارتنا هذه وغيرها من أهل حارتنا بعض المواقف التي تُحفظ وتُروى مشافهة فقط، وبعضها مواقف تُطوى ولا تُروى بسبب ألفاظ وتصرفات ناتجة عن براءة الأطفال آنذاك! والعجيب هو قدرة أمي –رحمها الله– على احتواء تلك المرأة العقيم، بتلمّس حاجاتها دون المساس بكبريائها، وتفقُّدُها دون التدخل في خصوصياتها، وإكرامُها دون الإشعار بحاجتها إليها.

ومن الصور الرائعة في عناية أمي نورة - رحمها الله - بكل محتاج قيامها بالعناية الخاصة بأقارب والدي من الشباب الذين يقدمون إلى الرياض للدراسة، حيث لم تكن ثقافة الشقق المفروشة آنذاك، بل كانت بيوت الأقارب في كل بلد هي محل إقامة أقاربهم عند السفر، والطريف في الأمر أننا اعتدنا أن يكون بيت أمي - رحمها الله - من بين بيوت والدي الأخرى، هو محل إقامة الأقارب المسافرين، وإن كانت إقامتهم تمتد أحيانًا أشهرًا، وربما عدة سنوات، وهنا أذكر ما رواه لي ابن عمي (إسماعيل) مما لم تسفعني ذاكرتي الطفولية في تذكره، حيث كان ابن عمي هذا من الجيل الأول الذي أتى لإكمال دراسته في الرياض، والذي استبشر باستضافة والدي - حفظه الله - في بيته، وهنا تبدأ مهمة أمي نورة - رحمها الله- في إعداد الطعام للطالب الشاب حسب أوقات حضوره للبيت، مع تهيئة فراشه في المجلس، والقيام بما يلزمه من غسيل ملابسه وكيّها، وتعليقها له في محل إقامته نظيفة مكويّة، حتى إذا عاد من دراسته وجد حاجاته جاهزة بخدمة (الخمس نجوم) المنزلية! كل ذلك يحدثّني به ابن عمي وقد مرَّ على هذه التفاصيل ما ينيف على الثلاثين عامًا، يرويها كأنها حدثت له يوم أمسِ ؛ وما ذلك إلا لحُسنِ وقعِها على نفسه يوم كان محتاجًا لتلك الخدمة، يذكرها الآن وقد كبُر وأثرى، وصار بفضل الله جَدًّا!

ومثل هذه الأحداث يذكرها أيضًا ابن عمي (صالح) ذاكرًا استضافة والدي -حفظه الله - له، وقيام أمي نورة - رحمها الله - بشئونه، ويضيف: «كانت أمك نورة - رحمها الله - تعاملنا مثل أولادها، لا نشعر بالفرق أبدًا، حتى كأننا ما سافرنا ولا تركنا أهلنا» ! ذكريات يرويها لي، لم أكن أذكرها بحكم صغر سني آنذاك، لكن الذي يرويها كان قد عاش حلاوتها يوم الحاجة إليها، وها هو ذا يعيد ذكراها مصحوبة بعبق تلك الأيام!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومن أعجب ما مرّ بي في هذه الصفة لأمي نورة - رحمها الله - أعني إكرام أقارب والدي من الشباب الزائرين، من أعجب ذلك ما حدّثني به أحدهم أنه كان يفضِّل المبيت في منزل أمي - رحمها الله - على المبيت في منزل إحدى خالاتي (زوجات والدي) - حفظ الله الجميع - مع أن زوجة والدي تلك مَحْرَمٌ له ! لكنه -حسب روايته لي بنفسه - يقول كنا نأخذ راحتنا أكثر في المبيت في بيت (أم غانم)!

واستمرت هذه الصفة النبيلة؛ أعني عناية أمّي - رحمها الله - بمن يغتربون للدراسة في الرياض! حتى بعد ما انتقلنا إلى منزلنا الحالي، وبعد ما انتشرت الشقق المفروشة، وتوسّعت الدنيا، وتغيّرت الثقافة، لكنّ لُطف أمّي - رحمها الله- وما تناقله عنها (شباب العائلة) واحدًا عن الآخر أغرى بها ابن عمي (عبدالرحمن) الذي درس الكلية العسكرية ثلاث سنوات (في حدود عام ١٤٠٤هـ) وهو يخرج من الكلية عصر الأربعاء إلى منزل أمي - رحمها الله - مباشرة، ولا يغادر المنزل إلا عصر الجمعة حيث الالتحاق بالكلية لقضاء أسبوع جديد داخل أسوار الكلية، أمّا ملابسه، وكتبه فكأني أراها اليوم في مجلسنا الذي صار هو ومنافعه خاصًا به، لا زلت أذكر كتب كلية الملك فهد الأمنية في بيتنا وكأنّ من بين أولاد أمي - رحمها الله- طالبا في العسكرية ! يحضر الطالب (عبد الرحمن) خلال إجازة نهاية الأسبوع ليدخل البيت متى شاء، ويخرج متى شاء، فجناحه الخاص تحت أمره، وفي كامل تصرفه. وعلى الطريقة نفسها : الثياب مغسولة، ومكويّة، ومعلّقة! لا يضايقه أحد في دخوله ولا في خروجه، بل إنه يستقبل ضيوفه وزواره في جناحه هذا ! ابن عمي هذا (الطالب) في الأمس (العقيد) اليوم، يقول : «والله إننا مقصّرون مع أمك نورة - رحمها الله - فقد كانت تقوم بحاجاتنا فوق ما يمكن وصفه» !

رحم الله أمي نورة، وأذاقها برد العيش جزاء ما برّدت على أهل (الصنادق) حرّ معيشتهم، و قضى الله لها حاجاتها جزاء ما قامت بحاجات كل محتاج !

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى ...

٩- علاقة أمي نورة- رحمها الله- بزوجات أبي وأولادهن

والدي حفظه الله مع إخواني الصغار (أولاد أم عمر) في ضيافة أمي رحمها الله

في حدود عام ١٣٩٧هـ تسافر (خالتي) إحدى زوجات والدي لظروفها الخاصة سفرا يمتدُّ إلى أشهر متواصلة، وبحكم دراسة الأولاد من بنين وبنات وبحكم ظروف أخرى فإن خالتي تلك تضطر إلى ترك أولادها والسفر وحدها، ومنذ سفرها إلى حين عودتها فإن هؤلاء الأولاد يعيشون في رعاية أمي نورة - رحمها الله - مسكنهم مسكننا، ومبيتهم مبيتنا، وطعامهم طعامنا، ومشربهم مشربنا، وزياراتنا واحدة، وبيت أخوالي (جدي عبد العزيز وجدتي مزنة) - رحمهما الله - الذي هو متنفسنا صار متنفسًا لإخواني وأخواتي أيام سفر أمهم، الكل يعاملهم كأنهم أولاد نورة أو أكثر! ولا زلت أذكر ذهابنا وإيابنا معًا، فقد زادت أمي نورة - رحمها الله - على عدد أولادها أربعة آخرين إن لم تزد في رعايتها إياهم على أولادها فقد ساوتهم بهم!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وهنا أتساءل كيف ارتاحت خالتي في ترك أولادها طوال هذه المدة مع (جارتها- ضرتها) إلا لما لمسته من تلك الجارة أمي نورة - رحمها الله - من صفات الطيبة، والرحمة، وحسن التربية، ولين الجانب، وهدوء الأعصاب.

والعجيب أن هذه المحبة المتبادلة بين أمي نورة - رحمها الله - وبين زوجات والدي الأخريات - حفظه الله وحفظهن ورحم من تقدَّم منهن - محبة لم تكن لواحدة دون أخرى، بل إن عموم زوجات والدي كنَّ يعاملن أمي - رحمها الله - معاملة الأخت، ومن مظاهر تلك الأخوة زياراتهن المتكررة لأمي نورة - رحمها الله- في منزلها، فلا زال (بيت المربع) يشهد تلك الزيارات، و لا تزال قهوة الصباح، وأحاديث العصر شاهدة على تلك الجلسات. زيارات امتدت حتى آخر الأيام في منزلنا الحالي وقد كبر الأولاد، فكبرت مع أمي - رحمها الله - وزوجات والدي العلاقات، وكثُرت الزيارات، مع رضاهن أن تكون غالب تلك الزيارات في بيت أمي - رحمها الله - دون أن يضطرهن إلى تبادل الزيارة ! وكأنهن - جزاهن الله خيرا- قد أنزلن أمي نورة - رحمها الله - منزلة الأخت الحنون، التي تُزار فترحِّب بالزائرات، دون أن يشترطن شروطًا لتلك الزيارة.

بل ربما وصل الأمر من المحبة إلى أن تصحب زوجات والدي أمي - رحمها الله- في زيارتها الأسبوعيةلأهلها حيث (عبدالعزيز ومزنة) - رحمهما الله - حيث الكرم والاستقبال الحسن.

وإني أذكر في أواخر عام ١٤٢٤هـ تكرار زيارات خالتي (أم محمد) - رحمها الله - لأمي -رحمها الله - قبل وفاة أم محمد بمدة قليلة. زيارات ودّ وأحاديث أُنس، وابتسامات صادقة، فهل يا تُرى كانتا تشعران أنها زيارات مودِّع ! أما أنا فكنت أتشرف بصبّ القهوة والشاي في مجلس أمي - رحمها الله - أمدُّ لها ولزائرتها الكريمة ومن معها من الأولاد الفنجال تلو الفنجال دون أن أشعر أنها زيارات الوداع!

وزيارات خالتي (أم إسماعيل) - حفظها الله - لأمي نورة - رحمها الله -زيارات -إن صحّت العبارة - خاصة ! زيارة ذات طابع قل أن أراه بين المرأة وجارتها (ضرتها) ! تكاد تكون الزيارة من أولها لآخرها ضحك في ضحك، ضحك يصل إلى أن تدمع العين ضحكًا، ذلك أن أمي نورة - رحمها الله - تطرب لأحاديث خالتي أم إسماعيل - حفظها الله - وتتذاكران المواقف الطريفة، وأيام الحج الأولى وما كان فيهما من مواقف أحتفظ بذكراها الآن، وإن لم يسمح وضع الكتابة بإيرادها !! ومن المتكرر في جلسات أمي - رحمها الله - مع خالتي أم إسماعيل - حفظها الله- أن أم إسماعيل كانت تردد عبارة (لا تغار نورة) ! ذلك أنني إذا دخلت مجلس أمي نورة - رحمها الله - وفيه الزائرة الكريمة - أم إسماعيل أقبِّل رأس أمي - رحمها الله - ويدها، ثم أتوجه للسلام على خالتي أم إسماعيل فأنحني مقبلا رأسها فتقول ضاحكة مازحة مع أمي - رحمها الله - لا تقبّل رأسي (لا تغار نورة)، ومع تكرر هذه العبارة في كثير من الزيارات تتكرر ردة الفعل الصادرة من أمي - رحمها الله - وهي الابتسامة المتقبلة هذه الطرفة، ومن صدرت عنها.

وأما خالتي (أم ناصر) - حفظها الله - فكثيرا ما تقسم على أن أمي نورة -رحمها الله - أخت لها، وأنها تحبها ولم ترَ منها طوال عشرتها لها إلا الخير.

ولكن الحديث إنما يستفيض في علاقة زوجة والدي الصغرى (أم عمر) -حفظها الله - بأمي نورة - رحمها الله - حديث ذو شجوون، حديث تختصره هذه الصورة التي مفادها أن أم عمر تزور أمي - رحمها الله - كل يوم من العصر إلى صلاة العشاء ! ولا تستثني من ذلك إلا اليوم الذي يكون والدي - حفظه الله- عندها فتستأذن خارجة من أمي - رحمها الله - مع أذان المغرب لأن والدي في هذه السنين الأخيرة صار يمضي المغرب في البيت، زيارات يومية أو شبه يومية على الأقل، تأنس أم عمر بأمي نورة - رحمها الله - أنس الأخت بأختها الكبرى،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وتستمع إلى أحاديث أمي نورة – رحمها الله – وتجلس مع ضيوفها الآخرين، حتى باتت أم عمر بالنسبة لأمي نورة – رحمها الله – أختًا حقا، وقد امتدت عناية أمي نورة –رحمها الله – بأم عمر إلى العناية بأطفال أم عمر التي تصطحبهم معها في زيارتها اليومية لأمي – رحمها الله – فالبسكويت مع الشاي لهؤلاء الأطفال عصرًا، حتى إذا كان بعد المغرب فإننا نسمع مقالة أمي – رحمها الله المشهورة : «حطُّوا العشاء قبل ينام الصغار» تعني إخوتي عمر ومن معه.

ومن المواقف الطريفة الدالة على عناية أمي – رحمها الله – بزوجات والدي أنه حصل ذات يوم أن زارت زوجة لوالدي (غير سعودية) أمي – رحمها الله – في وقت قد رُفعت فيه القهوة، ولم يكن عند الزائرة من الوقت ما تنتظر فيه إصلاح قهوة جديدة، فأخرجت أمي – رحمها الله – ورقة نقدية من الفئة العالية، وأعطتها إياها قائلة لها : سامحيني هذي قهوتك اليوم ! ويزيد الموقف طرافة أن الزائرة الكريمة سألت ببراءة : هل عادتكم أن تعطوا هذا المبلغ لمن لا يتقهوى عندكم ؟!

علاقة رائعة ما بين أمي – رحمها الله – وبين زوجات والدي – حفظه الله وحفظهن ورحم من تقدم منهن – منذ عقلت الدنيا في حدود عام ١٣٩٥هـ إلى ما قبل دخول أمي – رحمها الله – المستشفى الدخول الأخير أوائل عام ١٤٣٠هـ، تعددت الزوجات وطبيعة أمي نورة – رحمها الله – معهن كلهن واحدة!

وهنا سأحبس قلمي عن ذكر بكاء أمي على فراق أم محمد – رحمهما الله – التي توفيت قبلها، وعلى بكاء زوجات والدي الفراق الأليم في وفاة أمي – رحمها الله – لأنني سأفرد لذلك الموضع حديثًا خاصًا في وقته – إن شاء الله –

وللحديث بقية ...

١٠- حُب أمي نورة- رحمها الله- التعارف والتواصل مع الآخرين

سوق الحلة

أذكر وأنا صغير عندما كنت أتجول مع أمي نورة – رحمها الله – في السوق، موقفًا يكاد يتكرر في كل مرة تذهب فيه أمي – رحمها الله – للسوق، يتكرر في وصفه، ويتغير في كنهه، ذلك أنها – رحمها الله – بعد انتهاء الجولة والتبضع، قبيل المغرب – يوم كانت النساء تعود من الأسواق قبل المغرب ! – فالعصر بنوره ووضوحه، وحركة الناس والباعة هو الوقت المناسب للتسوق، إذ لا يُتصور أن تبقى المرأة في السوق ليلاً، أو على الأقل لا أذكر أنني رأيت أمي – رحمها الله – في السوق ليلاً ! أعود فأقول عندما تنتظر أمي – رحمها الله – أخي الأكبر (غانم) لتركب سيارته عائدة إلى البيت، في وقت الانتظار القليل كانت – رحمها الله – تتعرف على النسوة اللاتي ينتظرن أولادهن أو أزواجهن، فتتعرف على فلانة، وتحادث فلانة، وتتبادل أرقام الهواتف مع فلانة، كل ذلك في حشمة ووقار، وسلامة نية، وحسن طويّة، في انطلاق للفطرة على أرقى صورها، بلا كبر ولا تعالٍ، فليس للتصنّع ولا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

للتفاخر بينهن مجال.

مشهد يتكرر، وإن اختلفت النسوة، وتعددت باختلافهن الأرقام! تعود - رحمها الله - معها قصاصات الأوراق المتضمنة أرقام من تعرفت عليهن ذلك اليوم، فتطلب منا أن نضيف الاسم والرقم إلى دفتر الهواتف المخصص، ومع أنها- رحمها الله -أميَّة لا تقرأ ولا تكتب إلا أن لديها قدرة عجيبة على حفظ الأرقام، ومعرفة أشكالها، والوصول إليها في دفترها الذي يشهد لها بمحبة الآخرين، والحرص على التواصل معهم، دفتر استمر معها - رحمها الله - وتجدد حتى آخر يوم في حياتها.

ويا لله كم شهدت (صيدلية الرشيد) في سوق الحلّة من تلك الجلسات، حيث كان دَرَجُها المكانَ المعتادَ للانتظار قبيل المغرب للعائدات من التسوق، الكراسي هي الرصيف ! وأي راحة في الرصيف ؟! لكن القلوب - آنذاك - أصفى وأنقى وأتقى.

أما مراجعة المستشفيات فقلَّ أن تعود أمي - رحمها الله - دون أن تتعرف على واحدة أو اثنتين ممن لاقتهن ذلك اليوم، وكم عادت أمي - رحمها الله - من (مستشفى طلال)مستشفى الملك عبد العزيز حاليًا سعيدة بأرقام هواتف لا بأس بها من النسوة المراجعات في المستشفى ذلك اليوم، ولمراجعات مستشفى طلال ذكريات وأي ذكريات ! فقد كانت أمي - رحمها الله - على الأكثر تسعد بصحبة والدي - حفظه الله - في السيارة إلى المستشفى صباحًا، ثم تعود إذا انتهت على قدميها ؛ تقديرًا منها لظروف والدي في محلاته التي يصعب تركها لإرجاع أمي -رحمها الله - إلى البيت، تعود على قدميها بصحبة من تيسّر من أولادها، وعادة ما نكون (صالح وأنا) أكثر الملازمين لها في مثل هذه المشاوير، ربما لأننا أصغر الأولاد، وهنا لا تسأل عن حرصها - رحمها الله - علينا أثناء تجاوز الشارع العام (طريق الملك عبد العزيز) الواقع غرب المستشفى، حيث كانت -رحمها الله - تخاف علينا من السيارات المتوجهة للمطار (القاعدة الجوية حاليًا) والعائدة منه،

فإذا تجاوزنا الطريق الرئيس بسلام انزاح عن أمي - رحمها الله - الهم، وصار لنا -نحن المرافقين - متنفَّسا أن نلعب ونحن بصحبتها، فنقطّع المسافة بالجري حينًا، والأحاديث حينًا آخر، وهي ترقبنا بالعين الحانية، والدعوة الصادقة، تشفق علينا ولا توبّخنا، تحنو علينا ولا تحدّ من حريتنا، ترعانا ولا تحاصرنا، نُطلق لطفولتنا العنان بمباركتها، وقربها، كل ذلك نستشعره الآن دون أن نعلم آنذاك ما الآلام التي ذهبت بسببها للمستشفى، ولا الأدوية التي تحملها معها وهي عائدة من المستشفى ؟ لأنها - رحمها الله - كانت تعيش معنا ولنا وبنا ! فالمهم لديها سعادة أولادها ولو على سبيل راحتها رحمها الله.

وفي عام ١٤١٦هـ اصطحبها -رحمها الله- أخي (غانم) -حفظه الله - متشرفًا في رحلة الحج، في حين كنت (صالح وأنا) في موسم الحج ذلك العام ولكن مع صحبة أخرى، إلا أننا نتزاور كثيرًا، ومما كان يلفت انتباهنا في ضحوات الحج وعشيّات العيد وأيام التشريق حديث أمي - رحمها الله - الشائق عن جيرانها في المخيم، حيث تعرفت على (أم الجربوع) كما كنا نعرفها بذلك طوال السنوات التي تواصلت فيها مع أمي رحمها الله بعد الحج، إلى أن قام آل (الجربوع) بتعزية أختي (لولو) - حفظها الله - في رحيل أمي نورة - رحمها الله - وقد فقدوها بعد تعارف الحج، واستمرار العلاقة سنين عددا.

وفي عام ١٤٢١هـ سافرت أمي - رحمها الله - إلى بلاد الشام في رحلة علاج واستجمام، فسَعدتْ بجيرانها وسَعدوا بها، إذ كانوا طوال الشهرين اللذينِ قضتهما أمي هناك بمثابة أهل بيت واحد، حيث كانت تأنس بها جارتها (أم غياث) كل صباح، مع القهوة والشاي، وامتد الأمر إلى باقي عائلة أم غياث، من الزوج والأولاد، فتجاوزت المسألة كونهم مؤجرين بيتهم لعائلة سعودية إلى كونهم قد كسبوا إخوانًا لهم من السعودية، وأختًا كبرى صارت تتواصل معهم بعد عودتها من الشام،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وتزودهم بالهدايا وتتحفهم بين وقت وآخر بالعطايا، وهذا ما جعل التواصل الهاتفي قائمًا بينهم، والتوصية بالسلام منهم وإليهم، فمن ذهب للشام منا نقل سلام أمي - رحمها الله - إلى أم غياث وأبي غياث، وبقية الأسرة مشفوعًا ذلك السلام ببعض الهدايا الصادرة من النفس الرضية من حيث أم غانم التي صحبت ابنها غانما في رحلة الشام، ولا أزال أذكر أسبوع الزمان الذي زرت فيه أمي -رحمها الله- في الشام، زرتها شوقًا إليها، ولم يتيسر لي إلا أسبوع أخذت فيه إجازة اضطرارية من العمل، وحقا فقد كنت مضطرا إلى زيارتها ! وأي اضطرار أكبر من الشوق إلى رؤية محياها والتنعم بوافر ظلالها ! زرتها أسبوعًا رغبة في إطفاء الشوق لكنها زادت الشوق تأجّجًا، وألهبت نار الفراق ضرامًا، فقد تعبت في الأيام التي تلت عودتي من الشام مفارقًا أمي -رحمها الله- بعد ما عشت معها أسبوعا أُصبح معها وأُمسي، وأنام بجوارها، وأجالسها داخل البيت وأصحبها للعيادة، وأسامرها في المطعم والمجلس !

عدت من زيارة أمي -رحمها الله - مودِّعًا إياها وقد تعرفت على جيرانها أبي غياث وآل أبي غياث، عدت إلى الرياض فبقيت مع الشوق، وانفردت مع الحنين، ولم يكن يسليني عن شوقي لأمي -رحمها الله- إلا زيارتها في المنام ! ووقتها في ١٤٢١/٣/١٦هـ كتبت بعض الأبيات، شوقًا إليها -رحمها الله- كنت أشتاقها وهي موجودة في دنيانا !! أشتاقها لسفرها أيامًا، فكيف بنا اليوم وقد سافرت السفر الذي لا لقاء بعده إلا يوم الحشر؟!، ومن تلك الأبيات:

باتتْ (رياضي) بغيركمْ في ظلمةٍ ... وأرى الفسيحةَ بضعةَ الأشبارِ
العيشُ صفوٌ يومَ كنتِ بيننا ... والصفوُ شِيبَ اليومَ بالأكْدَارِ
البيتُ بعدكِ أوحشتْ أرجاؤهُ ... ولذاكَ لمْ أهنأْ بهِ بِقَرَارِ
أماه زرتكِ جمعةً أسلو بها ... لكنّها زادتْ تَوَهُّجَ ناري
بِغيابكمْ أنا ما مررتُ ببيتكمْ ... أمّاه نفْسي مثلُ جُرْفٍ هَارِ
أخشى برؤيتهِ تجدُّدَ لَوْعتي ... أمّاه حالي مثلُ حالِ صغارِ
إنْ بتُّ زرتِ في المنامِ فيا لَها ... من شعلةٍ خَفتَتْ بضوءِ نهاري
ربَّاه عجِّلْ في رجوعِ حبيبةٍ ... أمّي التي طَاشَتْ بها أفكاري
أمّي التي كانتْ مَصيفَ أحبّتي ... ففناؤها للأهلِ والزوارِ
والبردُ إنْ يقدُمْ فذاكَ هناؤها ... إذ نارُها في الليلِ أكرمُ نارِ
هي خيمةٌ هي دوحةٌ هي روضةٌ ... هي (نورةٌ) أصفى من الأنوارِ
خالاتُنا وبناتُنا بغيابكمْ ... صاروا إلى خَبَرٍ من الأخبارِ
مِنْ بعدِ أنْ كانَ الجميعُ بِقُرْبِكمْ ... يُحْيي المجالسَ في الحديثِ الجاري
أطفالُنا يتسابقون ببهجةٍ ... حتى يفوزوا عندَكُمْ بِجِوارِ
أمّا الذي يحظى بنومةِ ليلةٍ ... فسرورُه قدْ جَلَّ عن مِقدارِ
وتراه يغدو بالحُبورِ كأنَّما ... حِيزتْ لهُ أملاكُه بفَخارِ
ويقولُ يا أطفالُ إني فُقتُكمْ ... إذ بتُّ مسروراً كذي الأطيارِ
أمّي أنا مِنْ بعدِكمْ في حيرةٍ ... لكنَّ (لؤلؤةً) تزيلُ غُباري
في بيتِ (لؤلؤةٍ) تجمَّعَ شَملُنا ... فوجودُها أمنٌ كضوءِ الساري
ووجودُها أمَّاه فوقَ ترنُّمي ... فكلامُنا غَيْضٌ من الإكثارِ
أمّي أنا لا أستطيعُ ثناءها ... أو بِرَّها بالعُشرِ من مِعْشارِ
فأطلْ إلهي في رضاكَ بقاءها ... واكتبْ سلامتَها من الأضرارِ
أمّي وإنْ جادَ القصيدُ بذكرِكمْ ... فلذكرُكمْ نورٌ لذي الأشعارِ

وللحديث بقية ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

١١- الكويتيون في ضيافة أمي نورة- رحمها الله

أبراج الكويت

في صيف عام ١٤١٠هـ - ١٩٩١م كان الحدث الأشهر في منطقة الخليج الذي كان له ما بعده، ولا زلنا نعيش آثاره وتبعاته والمتغيرات الناجمة عنه إلى يومنا هذا، وهو غزو العراق للكويت، وما تبع ذلك من خروج أعداد كبيرة من إخوتنا أهل الكويت من دولتهم، وفرارهم بأنفسهم، وأعراضهم، ولو كلّفهم ذلك المسير الطويل البُعدَ عن الديار، وهجرةَ الأوطان ؛ فالحياة غالية، ولذلك طلبوها في الخروج من الكويت إلى بعض دول الجوار، ومن أهمها السعودية.

كان أخي (غانم) - حفظه الله - عائدًا من عمله ظهيرة يوم شديد حرُّه، بعيدٌ مغيب شمسه ! وأخي غانم معروف بسعة صدره وسيره الهادئ (جدا) في سيارته، وفي أثناء سيره هذه وجد عددًا من السيارات الكويتية قرابة أربع سيارات تقف خلف بعضها حائرة لا تقِلُّ حيرتها عن حيرة مَنْ فيها من رجال ونساء وشيوخ،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وعجائز، وأطفال، أُسرٌ متعددة من ذوي القرابة، وحّدتهم (الأزمة)، وأخرجهم الخوف من شبح الحرب في الكويت، ألجأهم الأمل إلى الرياض، لكنهم لا يعلمون ما مصيرهم؟ ولا ما الذي ينتظرهم؟ ولا متى سيعودون إلى موطنهم ؟ هذا إن كانوا سيعودون! كل الذي يعلمونه في الساعة التي رآهم أخي غانم فيها هو أن الحكومة السعودية قد حددت مواضع لمساعدة إخواننا الكويتيين متفرقة في المدن، ومنها مركز في (أستاد) الأمير فيصل بن فهد في حي الملز، حيث سألوا أخي غانما عن هذا المركز، وهنا كانت بداية الحكاية !

رحّب بهم غانم برحابة صدره المعهودة، وطلب منهم الكريم ابن الكريمينِ أن يقبلوا ضيافته هذه الظهيرة، وبعدها يكون خيرا! وعندها ساروا بسياراتهم كلها خلف غانم الذي لا تكاد تسعه الدنيا فرحًا بقيامه بهذا العمل الجليل، وتوجّه بهم إلى منزل أمي (نورة) – رحمها الله تعالى – حيث كان غانم يسكن هو وأولاده معها – رحمها الله – فتح باب المنزل وأدخل ضيوفه وسياراتهم داخل فناء البيت، وأخبر أمي –رحمها الله– بالضيوف، وكانوا فيما أذكر قرابة الخمسة عشر، تكبرهم الجدة ذات الثمانين عاما تقريبا، ويصغرهم الطفل ذو الأربع سنوات، دخلوا فرحّبت أمي – رحمها الله – بالضيوف، وقامت بواجبهم على أتمّ وجه، وطلبت من غانم أن يخبر ضيوفه أنهم أصبحوا ضيوف أمي نورة – رحمها الله – وأنهم لاحاجة لهم إلى البحث عن مركز إعانات، فبيتنا صار بيتًا لهم، شاطرونا البيت مبيتًا، ومطعمًا، ومشربًا، وبقوا على ذلك عدة أيام يستيقظ الجميع وقد أُعدَّ لهم الإفطار (الرّيوق) كما يسميه أهل الكويت، ومعه أو قبله القهوة والتمر، والشاي وما يتبع ذلك، ثم الأحاديث المسلية، والقصص والجلسات، رجالهم في قسم الرجال، ونساؤهم مع القلب الحنون أمي نورة – رحمها الله تعالى – استمرَّ هذا الحال أياما حتى تكرَّم والدي – حفظه الله تعالى – بإهداء ضيوفنا أهل الكويت منزلا مستقلا ملاصقًا لمنزل أمي – رحمها الله – معهم مفتاحه، وجعله لهم طوال مدة بقائهم

لمزيد من راحتهم.

استقلّ ضيوفنا أهل الكويت في المنزل المؤقت الجديد، فكانوا يبيتون فيه، ويجلس رجالهم في مجالسه، أما نساؤهم فلا يكَدْنَ يذهبن إليه إلا للمبيت، أما سحابة النهار وجزء من الليل فكان أمتع ما يُقضى فيه الوقت في صالة أمي نورة - رحمها الله - التي كانت فيها لحظة البداية في تعرفهن على أمي - رحمها الله - فكانت أخواتنا الكويتيات الجدة أم غانم (كنيتها وافقت كنية أمي رحمها الله)، وأم بدر، وأم أحمد، كنَّ جميعًا يأتين لجلسات الشاي والمكسرات، والقهوة والتمر، وربما (الكراث مع الزنجبيل)، وهو ما صِرنَ يذكرْنَه حتى بعد العودة إلى الكويت، صار مجيئهن لبيت أمي - رحمها الله -يوميًا، حتى باتت - رحمها الله - ابنة لجدتهم أمّ غانم، وأختًا وصديقة لأم بدر وأم أحمد.

أمّا أول يوم ذهبوا فيه لبيتهم المستقل فأترك الحديث عن لحظاته الأولى لمن عايشت الحدَث أولا بأول إذ سأنقل رسالة (إقبال أم أحمد) بحروفها، تقول عن أمي نورة ـ رحمها الله ـ : «أول ما وصلنا جت عندنا بالبيت ترحب وتهلل ومعاها ذبيحة ... والأغراض والبهارات، وكل ما صار المغرب رحنا لها وقعدنا بره بالحوش، وسوالف وضحك» الرسالة نقلتها بحروفها.

ومن هنا نشأت علاقة وطيدة بين أمي نورة - رحمها الله - وضيوفها إلى حدٍّ أن أقاربنا تعرفوا على الضيوف، وأصبح هؤلاء الضيوف رقما مهما في زيارات أمي - رحمها الله - وفي استقبالها الأقارب والزوار، حتى غدوا معها - رحمها الله- أهل بيت واحد! ولمّا ازدادت (الأزمة) تعقيدًا وأصبحت صواريخ (سكود) تصل من العراق إلى الرياض، صارت الرياض شبيهة الكويت في الخوف والهلَع، وهنا اضطرّ كثير من أهل الرياض -ونحن منهم- إلى الخروج منها غير قالِين ولا كارهين، لكنهم مضطرون للخروج كما اضطر قبلهم أهل الكويت ! فخرج غالب سكان

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الرياض إلى مكة، والمدينة، والضواحي القريبة، وذهبت الأسر إلى حيث مدنهم الأصلية التي فيها أهلهم، ولذا فقد قرر الوالد -حفظه الله- الخروج إلى القصيم، وهنا لم يكن لنا أن نخرج دون ضيوفنا، فخرج أهل الكويت معنا إلى القصيم، لهم ما لنا، وعليهم ما علينا ! إن تيسّر لنا سكن فهو لنا جميعًا، وإن تعبنا من السفر فلا فضل لنا عليهم، إذ إنهم أصبحوا منا لا تفرقة بيننا، وهذا ما حصل فعلا فقد وصلنا نحن وضيوفنا إلى القصيم ! وبقينا فيها ما شاء الله أن نبقى، إلى أن شاء الله تعالى بفضل منه سبحانه أن تنجلي الكربة عن الرياض، وتتوقف الصواريخ الموجهة إليها فنعود مع العائدين إلى رياضنا.

ويُتمُّ الله - عز وجلَّ -فضله، ويجدِّد نعمته فتنتهي (الأزمة) من الكويت، ويُعلن التحرير رسميًّا، فتتقاطر الوفود عائدة إلى الكويت، وهنا كانت الفرحة ممزوجة بالبكاء ! فرحة الانتصار والعودة إلى الوطن المسلوب ممزوجة بمشاعر الفراق لمن غدوا أهلا وأحبابا، الفراق بين أمي نورة - رحمها الله - وبين والجدة أم غانم، وأم بدر، وأم أحمد، كيف لجلسات يومية أن تنتهي فجأة ؟ كيف لضحويات القهوة والشاي أن تقوم دون كامل الجليسات ؟ كيف للسَّمر أن يكون ناقص الضحكات ؟ فاقد الصويحبات؟

وعند الفراق ركب أحبابنا أهل الكويت سياراتهم عائدين، كما ركبوها قادمين، وما أشبه الليلة بالبارحة ! بالأمس يسيرون يتقدمهم أخي (غانم) لا يعرفون عن بيتنا أدنى معلومة، لا يعرفون وصفه، ولا حال أهله، ولا تربطهم بهذا البيت ولا بساكنيه أية صلة ! واليوم يخرجون مودِّعين من امتلأت قلوبهم بالمحبة المتبادلة، والانسجام الكامل !

وهنا كانت لحظات لا يمكن أن تصفها كلمات ! حيث انهمرت عَبَرات لا توفيها العبارات ! وليس عَجبي ساعتئذٍ من بكاء أمي نورة - رحمها الله - على وداع ضيوفها؛

لأني أعرف أمي – رحمها الله – وأعرف رِقَّتها، وقُربَ دمعِها، وضعفَها الشديدَ أمامَ الفراق ! كيف لا ؟ ومن أشهر كلماتها –رحمها الله– «أنا ما أحب الموادَع» ! ولذلك لم أعجب من (انهيارها) بالبكاء ! ولكن عجبي أن ينتقل هذا البكاء المرُّ إلى مَنْ يعيشون لحظة العودة إلى البيت والوطن، البكاء ممن جاءتهم اللحظة التي باتوا أشهرا يتمنونها، ويحسبون دقائق البعد عن الوطن ! بكاء العائدين إلى الوطن لماذا؟ ما هذا المحبة التي بلغت بين أمي – رحمها الله – وبين ضيوفها كل هذا الحدّ ؟!

أما السنوات التي عاشها أحبابنا في الكويت بعد التحرير فكانت سنوات وَصْلٍ بينهم وبين أمي نورة – رحمها الله – فكلما سنحت لهم فرصة الحج أو العمرة تكون الرياض محطة توقف لزيارة مَنْ أحبتهم مِنْ خالص قلبها ! وإذا ما ذهب أحد منَّا إلى الكويت فإنه يذهب محمّلا بالهدايا من أمي – رحمها الله – إلى من عاشوا في قلبها ! الهدايا بأنواعها،خاصة (كراتين الكليجا) التي ألِفها أهل الكويت – رُبما بسبب زيارتهم القصيم تلك الأيام – وأحيانا لا تنتظر أمي –رحمها الله – من يذهب إلى الكويت من الأولاد أو الأقارب، وإنما ترسل الهدايا (الكليجا) وغيرها في الشحن !

ومن الطقوس التي باتت ملازمة لضيوفنا أهل الكويت أنهم إذا اجتمعت أُسرهم صباح العيد اتصلوا مجتمعين لمعايدة أمي نورة – رحمها الله – وهكذا استمر هذا الأمر لديهم طوال العشرين عامًا التي كانت بين عودتهم للكويت وبين موت أمي نورة – رحمها الله – والعجيب أنهم استمروا في هذا الاتصال حتى بعد رحيل أمي – رحمها الله – ولكنَّ المُتَّصَلَ عليه في أعياد السنوات الأربع الأخيرة هي الغالية بنت الغالية (لولو) حفظها الله تعالى.

ومن صور التواصل بيننا وبين أحبابنا أهل الكويت تلك الهدية المرسلة من أبي أحمد لوالدي – حفظه الله – إذ ما زال والدي – حفظه الله – يحتفظ بمصحف

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

خاص له من طباعة (دار الصحوة) في الكويت، أرسله إليه (أبو أحمد) بعد ما ضعُف بصَرُ والدي- حفظه الله - وصار لا يبصر من المصاحف إلا ما كبُر حرفه.

أما تأثرهم بوفاة أمي نورة - رحمها الله - فأكبر من أن أصفه ! فقد أبكتنا عبارات رجالهم الذين كلّمونا في مجلس العزاء، وما سمعنا من أختي لولو من مكالمات نسائهم كان أشدّ تأثيرًا !

والعجيب أن رسائلهم في الحنين لأمي نورة - رحمها الله - لا زالت تصلنا حتى بعد وفاتها بسنين ! فها هي (أم أحمد) تضمّن رسائلها الشوق إلى جلسات العصر، وأحاديث العشاء، والضحك والوناسة مع مَنْ فتحت لضيوفها قلبها قبل بيتها ! وأما آخر تلك الرسائل فهي رسالة (أم أحمد) التي وصلت أختي لولو - حفظها الله - أثناء كتابة هذه الحلَقة، وهذا نصُّها : «الله يهداج لولوه أكتب وعيوني مو واقفة، الله يرحمهم ويتغمد روحهم الجنة»

وبرسالة «أم أحمد» هذه أختم حلقتنا الخاصة بالضيوف الغالين ... وللحديث بقية

١٢- (الضُيوف الضُعوف)

كيرم أمي نورة رحمها الله وعلبة الحبوب نفسها (كرتون الساعة) مباراة بحضور خالي صالح المانع شقيق أمي نورة رحمها الله بين شقيقيّ علي وصالح وكاتب الكتاب وراكان المسند ابن شقيقتي لولو ومشاهدة سلمان المسند وابني عبدالله بن إبراهيم

(الضُيوف الضُعوف) كلمتان تنطلق منهما أمي نورة - رحمها الله تعالى - في تعاملها مع الخادمات والسائقين، وعمال النظافة، في المطارات والمستشفيات، وفي كل مكان يمكن أن يجمعها - رحمها الله - بواحد، أو واحدة من هؤلاء (الضيوف الضعوف)، تنطلق من هاتين الكلمتين؛ لتتعامل معهم التعامل الحسن، الراقي، الإنساني، الإسلامي، وكلما كان أحد هؤلاء الضيوف أقرب إلى أمي - رحمها الله - فحظوته ستكون أكبر؛ ولذلك فازت الخادمات الخاصات بها بهذا القُرب .

ولكي أقترب أكثر من الواقع فسأذكر بعض الملامح من هذا التعامل، مشهد يتكرر بين الحين والآخر، أدخل على أمّي - رحمها الله - وإذا بالخادمة أو أكثر قد اجتمعن معها على سفرة طعام، أو جلسة شاي، أو تناول قهوة، وهي تتجاذب

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

معهن أطراف الحديث، ولا تجد في ذلك أدنى غضاضة! حتى إذا حضرتُ أو حضر أحد غيري تفرقت الخادمات عن أمي - رحمها الله - وتفرَّغت لنا بقلبها وقالبها، مرحِّبةً بنا سائلةً عن أحوالنا، مستطردةً في الحديث، مستمعةً لأخبارنا.

ومن المشاهد العجيبة الدالة على حب أمي -رحمها الله - لفئة (الضيوف الضُعُوف) أنه إذا كنَّا في سفر لمكة أو المنطقة الشرقية، أو غيرهما فإنَّها في الغالب تفضِّل أن تنام الخادمة معها في الغرفة نفسها ! سواليف قبل النوم، وأحاديث ما بعد الاستيقاظ، والإيقاظ للصلاة، كل ذلك يكون مشتركًا. وقد يكون هذا النوم -أحيانًا - في غير السفر، في غرفة من غرف البيت، إلا غرفتها الخاصة - رحمها الله - التي لا ترتاح أن ينام فيها من هؤلاء الضيوف إلا الضيفة الخاصة (مارسلا) الفلبينية التي تُعدُّ بنتًا أخرى لأمي - رحمها الله - لازمَتْها ما يزيدُ على العِقدينِ من الزمان (وسيأتي إن شاء الله حديث خاص عنها في الحلقات القادمة).

ومن المشاهد الرائعة في تعامل أمي -رحمها الله - مع ضيوفها الضعوف، ما بات أمرًا اعتياديًّا من لعبهن معها اللعبة المفضَّلة (الكِيرم)، حتى باتت (آسيا) و(سلمى) وغيرهما من الخادمات مجيدات فنون اللعبة، وقوانينها، فالمراكي تُجهَّز وتوضع أولا لترتفع خشبة (الكيرم)، و(البودرة) ضرورية لتنعيم سطح اللعبة، وقطعة الخمسين و(غطاها) لابد أن يُكسبا متتابعتين، ثم ما الذي يُكسب أولا ؟ وما الغرامة لو سقط (الملطاخ) وحده ؟! وغير ذلك مما تتفنَّن به وأتقنَّه من أختهن الكبرى أمي نورة - رحمها الله - وكم شهدت جلسات العصر هذه المنافسات!وحتى اليوم إذا لعب بعض أحفاد أمي - رحمها الله - الكيرم يرددون نلعب لعب أمي نورة الله يرحمها ؛ يقصدون اللعب المتسامح الذي لا تدقق عليهم إذا تجاوزوا قوانين اللعبة !

ومن أوجه التعامل الحسن بين أمي نورة - رحمها الله - وبين ضيوفها هؤلاء

المكث معهن الساعات الطويلة في المطبخ تُعلِّمهنَّ فنون الطبخات المحليّة، تعلمهنَّ بتؤدة وتأنٍّ، تُعلِّمهن الطبخ على أصوله، تعلمهنّ وتدربِّهن تدريبًا، حتى يمكننا أن نقول إني أمي - رحمها الله - أمضت ساعات تدريبية مع المتدربات معها، ساعات لا يمكن حصرها ! مدرِّبة محترفة دون شهادات اعتماد !

ومن اللطائف ما سمعناه عن (سلمى) بعدما كبرت وسافرت سفرتها الأخيرة أنها افتتحت مطعمًا في (إندونيسيا) للأكلات السعودية الشعبية ! ويحقُّ لها ذلك، فهي خريجة مدرسة (ماما نورة) التي طالما جلست بين يديها متدربةً متعلمةً، حتى صارت اليوم المدرِّبةَ المعلِّمةَ (سلمى).

ومن الرائع في الأمر أن أمي - رحمها الله - تجمع بين الرحمة ومحبة هؤلاء الضيوف، وبين أمرٍ اُشتهرتْ بها - رحمها الله - وهو الحرص على النظافة والدقة في ذلك، حتى إنها - رحمها الله - لا تشتهي الأكل في الصحن إذا غسلته إحدى الخادمات ! فماذا عساها تفعل ؟ ستقع في حرج ؛ إذ إنها لا بدَّ أن تغسل الصحن بعد غسل الخادمة، وهي في الوقت نفسه لا تريد أن تكسر خاطرها، ولا أن تحرجها ! فما العمل ؟ كانت - رحمها الله - تلجأ إلى طريقة وسط، ترتاح فيها، ولا تحرج غيرها، ذلك أن الخادمة تأتي بالصحون مجتمعة في السفرة مغسولة لنا جميعًا، فتنتظر أمي - رحمها الله - خروج الخادمة حتى تتأكد أنها لا ترانا فتسحب نفسها إلى أقرب مغسلة لتمرر الماء عليه بشكل سريع ! بمعنى أنها تَمُوصُه بعد غسل الخادمة دون أن تحرجها! (وبالمناسبة الموص : غسل الإناء، وهو من العامي الفصيح)، فرحم الله صاحبة هذا الخُلُق النبيل.

ولذلك فمن الطبيعي - وإن كان أمرًا مكلِّفًا ماليًّا - أن تتصل الخامة من جاكرتا اتصالا دوليا للتحدث مع أمي نورة - رحمها الله - وتسلم عليها، وتطمئن عليها، لماذا كل هذا ؟ ما الرابطة التي تربط بها ؟ أهي المحبة ؟ أم الرحمة ؟ أم الحرص

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

عليها ؟ أم مؤانستها ؟ أم اللعب معها ؟ إنها العشرة والعمر الذي أمضته البنت مع أمها الحنون ثم سافرت البنت وقلبها مع أمها هناك في الرياض ! اتصال يعقبه لحظات بكاء من أمي نورة – رحمها الله – تبكي وهي بين أولادها ! نعم تبكي إحدى بناتها المسافرات إلى هناك، هناك حيث تفصل بينهما آلاف الأميال .

والعجيب أن أمي – رحمها الله – بسبب حبها الشديد لخادماتها، وتعلقها بهن، وتعلقهن بها، لم توادع واحدة منهن قطُّ ! ذلك أنها إذا اقترب موعد السفر قالت لنا كلمتها المشهورة : « لا تعلموني عن وقت طلعتها، ما أحبّ الموادَع» !ثم تتوارى –رحمها الله – عن الأنظار قبيل الموعد بساعات ! هي لا تطيق النظر إلى الخادمة وهي تخرج مسافرة، حتى لو كان السفر خروجا وعودة، لا تطيق – رحمها الله – وداع الخادمة، فضلا عن محاسبتها الحساب الدقيق قبل الخروج أو تفتيشها خوفًا منها، مع عدم اعتراضي على التفتيش حال السفر، لكنني أبين أن العلاقة المبنية بين أمي – رحمها الله – وبين خادماتها علاقة لا تتحمل الوداع فضلا عن أن تضطر إلى التفتيش !

ولذلك فلا تسأل عن بكائهن عليها يوم وفاتها – رحمها الله –(مما سأفرد له الحديث مستقبلاً إن شاء الله تعالى)

وفي ختام هذه الحلَقَة فإني أحمدُ الله تعالى أنْ وفَّق أمي نورة –رحمها الله– للعمل بتوجيه النبي الكريم – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في شأن الخدم لأَبي ذَرٍّ – رضي الله عنه – «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» رواه البخاري

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى ...

١٣- الدمعات الأربع !

الأصل في أمّي نورة- رحمها الله - بحمد الله تعالى الأنس، والضحك، والتبسّط، وهذا الوضع هو السائد في حياتها. لكنَّ دمعتها سريعة وغالية، فهي - رحمها الله- هشّة الطباع، رقيقة المشاعر، لا تتحمل المواقف المؤثرة. ولو سردتُ القليلَ من تلك المواقف لطال بنا المقام، لكنني سأقتصر على (أربع دمعات) فقط في أربعة مواقف متباعدة في زمنها، مختلفة في سببها، واحدة منها (دمعة فرح).

(ثلاث دمعات) منها لها تماسٌّ مباشر بي، والرابعة حضرتها وإنْ لم أكن سببًا فيها. وكل هذه (الأربع الدمعات) لم تفارق ذاكرتي رغم مرور (تسعة وعشرين) عامًا على الدمعة الأولى منها.

ففي شوال عام ١٤٠٥هـ أخبرتُ أمّي نورة - رحمها الله -بمشاركتي في رحلة خارج الرياض مع زملائي طلاب تحفيظ القرآن في (مكتبة جامع الفرقان)، ولأنها

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

كانت المشاركة الأولى بالنسبة لي، فهي تعني سفري الأول الذي سأبتعد فيه عن أمي نورة – رحمها الله – عدة أيام، وإن كانت لن تتجاوز الأيام الخمسة، لكنها تعني لأمي – رحمها الله – الكثير، أمي التي لم تفارق ابنها في سفر قبل هذا، فهي لم تعتد السفر مفردة، ونحن لم نسافر بعيدين عنها، ولذلك فقد كانت التجربة الأولى صعبة في غاية الصعوبة، شاقة على النفس المرهفة؛ نفس الأم الحنون!

ولكنَّ رهافة الحس هذه، ورقة المشاعر تلك لم تحمل أمي – رحمها الله – على منعي من السفر؛ لأنها ربما تجد في منعي حرجًا أكبر! ولذلك وافقت على مشاركتي في هذه الرحلة ولم تُبدِ لي أي اعتراض، وعندما بحثتُ عنها للسلام عليها قُبيل السفر، إذا بي أراها قد اضطجعت في (مجلس النساء) مولِّيةً وجهها الطاهر نحو الجدار متظاهرة بالنوم؛ لكي لا أرى دموعها! رحمها الله، ورحم تلك الدمعات، ولعلها آثرتْ المكث في (مجلس النساء) على الصعود إلى غرفتها لتسمع صوتي وأنا خارج دون أن تتحمل مواجهتي لحظة الوداع (ذلك أنها كانت كثيرًا ما تقول –رحمها الله – : ما أحب الموادَع) ولصغر سِنِّي – آنذاك – لم أتخذ القرار الصحيح في إلغاء مشاركتي، فليست تلك الرحلة – مع أهميتها – ولا العشرات أمثالها تعادل دمعة تخرج من العين الساهرة على راحتي، سامحيني يا أمي !

ولذلك وبعد ما يزيد على عشر سنين، وتحديدًا في ١٤١٦/٥/١٧هـ، وقد صرتُ أبًا لطفلين (فارس، وعبدالمجيد) أصلحهما الله، تكرر مشهد مشابه؛ حيث كان من برنامجي المشاركة في رحلة طلابية إلى مدينة (الجبيل)، مع صحبة هم مِن أغلى مَنْ تعرفتُ عليهم في حياتي، ولكني لمستُ من أمي –رحمها الله– عدم رغبتها في سفري هذا ! فما كان يسعني وقد عقلت وعلمت غلاء دمعة أمي إلا أن تركتُ السفر مع صحبة غالين على نفسي، لكنهم دون شك لا يساوون دمعة تتكرر من أمّي –رحمها الله – ولذلك ودّعتهم غير قالٍ لهم، ولا زاهد فيهم، ودّعتهم إرضاءً لأمي

– رحمها الله – وإن كنتُ ساعتها بكيتُ على عدم مشاركتي ؛ لكني أبكي غير نادم ؛ فبكائي أهون عليَّ من دمعة تنزل من عينيَّ أمي – رحمها الله – وأذكر ساعتها أنني ودّعت أصحابي معتذرًا بقصيدة، أُورد هنا بعض أبياتها:

يـا مَـنْ ظعنتـم تقصـدون المشرِقَـا ... خلّفتُـمُ قلبًـا كليـمًا مُحْرقـا
وتركتـمُ خِـلاًّ يعـاني بُعدَكـم ... والدمـعُ مـن عينيـه هـلّ تدفّقـا
وأثرتـمُ الأشـجانَ بعـدَ مسـيرِكم ... وبُعيْـدَ قـولي (زادكـم ربي التُّقـى)
وجّهتـمُ نحوَ(الجبيـلِ) بجمعِكـم ... وتركتمـوني في البِعـاد تفرّقـا
وعـزائيَ الميمـونُ أنَّ فراقَكـم ... بـرٌّ بـ(أمّـيَ) يـا لَنبـلَ المرتقـى
(أمّـي) التـي أرخصـتُ فيهـا غيرَهـا ... زوجًـا ونِجْـلاً والشـبابَ المنتقـى
إيهًـا رِفـاق الـدّرب سُـلّمتم لنـا ... وأعاضنـا ربي جِنـان الملتقـى

أما الدمعة الثانية من (الدمعات الأربع) فهي (دمعة فرح) شعرتُ بها عبر تهدّج صوت أمي – رحمها الله – وتقطع دعائها بالبكاء، وذلك ليلة عيد الأضحى المبارك عام ١٤١١هـ عندما اتصلتُ عليها هاتفيًّا، وأخبرتُها أنَّ الله – سبحانه وتعالى – قد يسَّر ولادة ابني الأكبر (فارس) أصلحه الله، فاختلطتْ دعواتها للمولود ووالديه بدمعاتها التي سبقتها، دموع الفرح، من النفس الرضيِّة التي تفرح بالولد وولد الولد ! دمعةٌ شعرتُ بها وإن لم أرها .

وفي عام ١٤١٩هـ كانت (الدمعة الثالثة) حيث أُجريتْ لي عملية جراحية في كتفي الأيسر؛ لتثبيت خلع متكرر، وبعد خروجي من المستشفى طلبتُ من زميلي الذي أخرجني من المستشفى الأخ الحبيب (خالد بن حماد اللزام) أن يتكرم عليَّ قبل التوجه إلى منزلي أن أزور أمي – رحمها الله – في منزلها؛ لأسلم عليها وأطمئنها على سلامتي وخروجي من المستشفى، ذلك أنني بعدها سأبقى على

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الفراش أشهرًا، وعندها دخلتُ على أمّي - رحمها الله - مربوطَ اليد، عليَّ آثار المستشفى، أتهادى في مشيتي؛ حفاظًا على عملية التثبيت لئلا تختلَّ، مع تظاهري بالمزيد من العافية لحظة دخولي على أمي - رحمها الله - إلا أنها - رحمها الله - انفجرت باكية بمجرد رؤيتها ابنها الجريح ! بكتْ ولم تستطع النطق ببعض كلمة! بكتْ فشاركتُها البكاء! وقبلتُ رأسها ويدها، وخرجتُ مباشرة لصاحبي الذي ينتظرني عند الباب، خرجتُ بعد دخولي بدقيتين أو ثلاث؛ مما حمله على التعليق مازحًا : «وش ذا الزيارة» ؟!

أمّا (رابع الدمعات)فليتني ما حضرتُها ! بل ليتها لم تكن أصلاً ؛ إذْ إنها أشدُّ الدمعات التي رأيتها من عينيّ أمّي - رحمها الله - مع أنها دمعة صامتة، نزلت بهدوء، وكأنها لا تريد أن تؤذي بدمعتها من تسبب في أذاها !

تلك الدمعة سكبتها أمي -رحمها الله- بسبب أحد الأقارب الغالين على أمي -رحمها الله -وذلك عندما جاء في ساعة غضب معاتبًا متهجِّمًا على إحدى القريبات الغاليات جدًا على أمّي - رحمها الله - وقد أسمعها ذلك الرجل الكلمات الثقيلات في الانتقاص من تلك القريبة، أسمع أمي -رحمها الله - ما آذاها، وجعلها تتحامل على نفسها، فالقريب الغاضب غالٍ، ولكن القريبة المُتكلَّم فيها أغلى وأحبّ! ولذلك جاء جواب أمي - رحمها الله - باكيًا بصمت، صامتًا ببكاء، ورُبَّ دمعة أبلغ من ألف كلمة.

رحم الله ذات (الدمعات الأربع) وسامحنا جميعًا، وعفا عن كلّ مَن تسبب في إنزالها من العين الطاهرة، على الوجنة المضيئة.

وللحديث بقية إن شاء الله...

١٤- حَمِيمِيَّةُ أمٍّ!

مبخرة أمي رحمها الله

الذي يجمعني بأمي نورة - رحمها الله - أكثر من علاقة! فهي أمٌّ كسائر الأمهات الرائعات، وهي أخت كبرى لأولادها، وهي صديقة بكل ما تحمله كلمة الصداقة من معنى، ولذلك فالمجيء إليها والجلوس معها كان بمحض الإرادة، تدفعنا إليه الرغبة في البرّ، والحرص على الأنس، والراحة في الشعور بالتقدير غير المتناهي!

ولعلَّ هذا كان سببًا أو مسبَّبًا -لا أدري- لعدم بعدي عنها طوال السنوات التي وعيت بها على الدنيا وأمي -رحمها الله - بين أظهرنا، فإنني منذ كنت إلى يوم وفاتها لم أغب عن (الرياض) حيث أسكن مع أمي - رحمها الله - فضلا عن خروجي عن السعودية مدة طويلة، إذ إنني أحرص غاية حرصي ألا أبتعد لسفر ضروري إلا أيامًا معدودات، غير سفرة واحدة وصلت قصاراها عشرين يومًا كنتُ يوميًّا أصبِّحُ أمي - رحمها الله - باتصال أو أمسِّيها، أو تكون هي السابقة بذينك الاتصالين!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومن هذه (العلاقة الحميمية) التي بيني وبين أمي نورة - رحمها الله -أقتطف عدة صور؛ فمنها أنني وأمي - رحمها الله - كنَّا نردِّد الأذكار الصباحية والمسائية معًا، فجلسة الوِرد اليومية كانت لنا في غاية الأهميَّة، وهذا - بحمد الله - استمر ما يقارب العشرين عامًا! سواء في غرفتها - رحمها الله - أو في غرفة الجلوس، أو في السيارة، أو في الطيّارة، بل إنني أذكر بعض جلسات الغروب مع الأوراد كانت في البحر على قارب غربت فيه الشمس ونحن محلِّقين في الذكر داخل البحر !

ولذلك أصبح من الطرائف التي تتردد يوميًّا تقريبًا أنها - رحمها الله - إذا سمعت أذان المغرب ابتسمت وقالت : «يا ولدي وُشو إقبال ليلِك ؟» تذكرني بالذِكر عند المغيب طالبةً منّي أن أردده معها، وهو ما رواه أبو داود والترمذي - رحمهما الله -عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : «علمني رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- أن أقول عند أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك فاغفر لي».

ومن الطرائف في ترادنا الأذكار أن أمي - رحمها الله - كانت إذا انتهت من الدعاء الصحيح المشهور في (كفارة المجلس) تزيد عليه عبارة في آخره بطريقة القفل وهي طريقة طريفة في ورودها من لسانها - رحمها الله - إذ إن الحديث هو: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: « مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَكُونُ فِي مَجْلِسٍ فَيَقُولُ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ» ولكنَّ أمي - رحمها الله - كانت في ختام حديثها أو مجلسها تقول النصَّ كاملاً وتزيد في آخره : عبارة (كفارة المجلس)! وكأن كلمتي (كفارة المجلس) واردتان بعد عبارة «أتوب إليك» !

وكـــمْ (وِرْدٍ) قرأنـــاهُ جميعًـــا إذا حـــلَّ الصّبـــاحُ أو المَســـاءُ

وحِرصًا منها - رحمها الله - على سماع الأذكار بشكل دائم فقد طلبت مني طلبًا رائعًا ؛ ذلك بأنْ أقوم بتسجيل الأذكار في (شريط كاسيت)؛ على أن يكون هذا التسجيل بصوتي ! وكأنها - رحمها الله - أرادت بعاطفة الأمومة أمرين محببين لها معًا، أرادت أن تعيش الأذكار، وقُربَ ابنها في كل وقت ! وهذا ما حصل فعلاً فقد تشرفت بتسجيل الأذكار في حدود عام ١٤٠٧هـ أو ١٤٠٨هـ، واستمر شريط التسجيل ذو اللاصق الأصفر في غرفة أمي - رحمها الله - إلى ما بعد وفاتها مطلع عام ١٤٣٠هـ.

ومن العلاقة الحميمة التي تجمع أمي - رحمها الله - بأولادها الجلسات الثنائية أو الثلاثية في غرفتها -رحمها الله- فلا أحصي المرات التي أزور أمي -رحمها الله- في وقت تكون قد صعدت فيه لغرفتها إما لقيلولة أو مبيت، أو لمزيد ترتيب في الغرفة، فتترك ما في يدها وتستقبلني بالبِشر والترحاب، وربما أصلي في غرفتها، فتبادر لفرش سجادة الصلاة المبطَّنة المريحة، ثم لا أكاد أنتهي من الصلاة إلا وقد أحضرت لي المخدة حتى تقيني الاتكاء على حافة السرير الحادة؛ رغبة منها في مزيد من الراحة في جلوسي، ثم تناولني ما طاب من المشروبات، الساخن منها والبارد! وهكذا يتكرر المشهد بتكرر دخولي (غرفتها) المنيرة بها - رحمها الله - وكأنني أزورها للمرة الأولى، أو كأنني ضيف غريب ممن يُستعد له بمزيد حفاوة وتكريم.

ويا لله كم لنا في هذه الغرفة من ذكريات! منها ما كان بيني وبين أمي - رحمها الله - ومنها ما كان بيننا ويزيد معنا أحد إخوتي وعلى الأخص (صالح) الذي لا أزال أذكر استلقاءه على الأرض في غرفتها - رحمها الله - بعد خروجه من دوامه، وحينها يرفع رجليه على السرير لاستعادة النشاط، حيث كانت تلك الغرفة وصاحبتها - رحمها الله - مصدر الطاقة لنا، ومنبع الحياة، والمزود الحقيقي في هذه الحياة !

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومن روائع العلاقة الحميمية مع أمي – رحمها الله – العناية الفائقة بتجهيزنا في الأعياد، والجُمعات، والمناسبات، فرائحة البخور تملأ أرجاء البيت، وتتمركز في تلك الغرفة حيث مهوى قلوبنا في ذلك البيت، فنصعد إليها لنجد البخور الأصلي، والمباخر المجمَّرة، التي تزدان بيديّ أمي – رحمها الله – حيث اعتادت أن تمسك بالمبخرة احترامًا لأولادها فتجعل المبخرة بين طرفي شماغ أحدنا أو غترته، حتى يتشبع منها، ثم تنحني – رفع الله مقدارها دنيا وآخرة – إلى الأرض لتجعل المبخرة تحت ثياب أحدنا، والسرور لا يكاد يسعها في تطييبنا!

وإنني أذكر بالتفصيل الدقيق خروجنا من غرفتها وقد لبس أخي صالح (بشته) في غرفتها – رحمها الله – فبخّرته تلك الليلة وودّعته بالدعاء أن يوفقه الله في زواجه. ولعل تلك الليلة كانت من الليالي الأخيرة التي اجتمعنا فيها مع أمي – رحمها الله – حيث الغرفة والبخور!

يـا (صالـحٌ) ! والأنـسُ كانَ بـ(غُرفـةٍ) إأضحـتْ بـلا (أمّـي) حديثـاً مُقْلِقـا
كـمْ جلسـةٍ للحُـبِّ قـدْ حَفَّـتْ بِنـا (أمّـي) بهـا عقـدُ الإخـاء توثقـا
يـا (صالـحٌ) ! كـمْ مُتْعَـةٍ مـرَّتْ بِنـا (أكـوابُ شـاي) في صبـاحٍ أشرَقـا
يـا (صالـحٌ) ! كـمْ مِـنْ مسـاءٍ سـامِرٍ كنّـا نبادلُهـا الـكلامَ الشـائقا
يـا (صالـحٌ) ! كـمْ ليلـةٍ كنّـا معـا (أمّـي) هنـا ! حيـثُ الحنـانُ تَدَفَّقـا

وللحديث بقية إن شاء الله ...

١٥- أمي نورة - رحمها الله - وضرب الأمثال

من طَبع أمي نورة - رحمها الله - الاجتماع والأنس بالآخرين، لم تكن تحب الوحدة، ولا الانفراد بعيدًا عن الناس ؛ ومن نتائج هذا الاجتماع وذلك التقارب تبادل الأحاديث، ونقل التجارب، وإفادة الآخر والإفادة منه.

و(الأمثال) والاستشهاد بها من الأمور الواضحة في حياة أمي نورة - رحمها الله - وهذا ما يلمسه كلُّ من خالط أمي نورة - رحمها الله - وعاش معها ولو مدة يسيرة، فكيف بمن لازمها ليلا ونهارًا، سفرًا وحضرًا إلى أن سافرت إلى الدار الآخرة رحمها الله.

مع العلم أن العفوية وعدم التكلف هما السائدان في حياة أمي - رحمها الله - إذ لم تكن تتصنع الحديث، ولا تتكلف في إيراد المثل، ولكنها - رحمها الله - تستحضره إذا جاءت له مناسبة، وهذا ما جعلني أحفظ شيئًا من تلك الأمثال التي كانت ترِد

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

على لسان أمي – رحمها الله – في مناسبات عديدة، مما سأورده هنا.

يخرج أحدنا عن طوره أنا أو أحد أولاد أمي – رحمها الله – فيضرب أحد أطفاله أو يعنّفه أمام ناظري أمّي، وربما أمام مسمعها (من خلال مكالمة هاتفية) فتنزعج أمي – رحمها الله – أيما انزعاج، وتتأذى لهذا الضرب، وكأن الضرب موجَّه إليها – حاشاها – فتنطلق من عاطفة حب الولد وولد الولد قائلة: لا تضربه، اصبر عليه، أدِّبه دون ضرب، وهكذا من كلمات التوجيه ثم تختم ذلك أو تبتدئه بالمثل الذي طالما سمعته من فمها الطاهر : «ضرب الأطفال يحبط الأعمال».

مثل عامة الناس يكون بيننا – نحن أولاد أمي نورة رحمها الله – وبين غيرنا خلاف في الرأي، أو نقاش حول موضوع، أو مشاحة في مطالبة، فتتدخل أمي –رحمها الله – بحكمة ورويّة لترشدنا إلى الطريق الأولى في النقاش، والكلام الأفضل في الحوار، مرشدة لنا بعدم الفجور في المخاصمة، ولا التطاول في الكلام، ومحذرة لنا من الإغلاظ في القول، فتردد على مسامعنا المثل الذي طالما سمعناه منها – رحمها الله – في مناسبات عديدة : « الكلام الليِّن يغلب الحق البيِّن»، وهي بهذا المثل تجبرنا على اللين في المنطق، والبعد عن السباب، وتبادل الاتهامات.

مرَّت أمّي – رحمها الله – بضائقة مالية، وبحكم قربي الشديد منها كنت أعرف تفاصيل ذلك الظرف، فاقترحت عليها دون أن تشكو هي من الحال، اقترحت عليها مبادرة مني أن تكلِّم في موضوعها هذا أحد أقرب الناس إليها ممن أغناه الله تعالى، ويا ليتني لم أفعل ! ويا ليتني لم أقترح ! ولم أبادر بهذا الرأي ! لأن اقتراحي هذا تصادم مع (عزّة) أمي نورة – رحمها الله – ومسَّ – دون قصد مني –كرامتها! ولذلك ردّتْ عليَّ بمثل ولم تزد عليه، مثل يختصر الحالة التي هي فيها، ويبيّن السبب في عدم قبول اقتراحي، مع المحافظة على عدم توبيخي على هذا الاقتراح،

ردَّت – رحمها الله – بهذا المثل : «خالي وهو أدري بحالي» ! فهمتُ من إيراد أمي –رحمها الله – هذا المثل أن اقتراحي إنما هو تحصيل حاصل، إذ إن الشخص الذي اقترحته للتدخل في إنهاء الضائقة المالية ذو قرابة وثيقة بأمي رحمها الله.

وعند تكرر مثل هذا الموقف قالت – رحمها الله – مثلا مقاربًا ؛ وهو :» قال ورا عمك ما يكسيك ؟ قال : عمي يشوفني» !!

أطفالاً، وشبابًا، متزوجين، وآباءً، في كل مراحل عمرنا هذه لم يفارقنا المثل الذي طالما سمعناه من أمي – رحمها الله – في الحث على صلاة معيّنة قد يقع فيها التفريط بنوم أو خلافه، كانت رحمها الله تردد على مسامعنا جميعًا – نحن أولادها الخمسة – تردِّد هذا المثل الذي زرع في قلوبنا تعظيم الصلاة، والمهابة من التفريط فيها، والخوف من الوعيد على تأخيرها فضلا عن تركها – لا قدَّر الله – إذ إنها ما أن ترى أحدًا نام عن صلاة العصر، أو تسمع ذلك حتى لو لم يكن عندها في البيت إلا وتذكِّره بالمثل الذي حفظناه من لسانها – رحمها الله – : « لا تبكِ شقيقك لا مات، وابك عصر الخميس لا فات» ! مثل يجمع في ألفاظه القصيرة العديد من معاني الترهيب ! لا سيما وفيه إجراء مقارنة بين أمرين مهمين زاد ألم أحدهما على الآخر، ومما يزيد وقع هذا المثل في نفوسنا أننا نسمعه ممن تحب الشقيق، وتحثنا نحن الأشقاء على المحبة، وبتربيتها العملية عرفنا منزلة الشقيق، ومع ذلك فهي – رحمها الله – من خلال هذا المثل تبين لنا أن المصيبة بفوات صلاة العصر تنسي المصيبة بموت الشقيق ! لأنها أشد وقعًا، وأعظم خسارة ! فياالله كم ترك فينا هذا المثل من أثر !

ربما بدر نحو أمي نورة – رحمها الله –بعض التقصير من أحدنا – عفا الله عنا وسامحنا – فلم تكن تعتب العتاب الطويل، ولا كانت تكيل الكلمات الجارحة،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

فضلا على أنها لم تقاطع أحدًا من أولادها طوال حياتها - رحمها الله - وإنما كان قصاراها في العتاب في مسمع من تعاتب أو في التلميح له أن تورد المثل القائل: «من بَعد أمّك تكرم ؟!» وكأن هذا المثل يختزل كل رسائل العتاب الموجّهة إلى الابن المقصِّر أوغيره، فمن الذي يستحق الإكرام إن لم تكن هي الأم ؟! ومن الذي يستحق أن ترضيه في سبيل إسخاط أمّك ؟! وهكذا يُوصل لنا هذا المثل المختزل كلَّ رسائل التوبيخ، المبطّن بالمحبة، المصحوب بالاسترحام، المقرون بالاستعطاف بذكر لفظ « أمك «، وهنا تتضافر الخصائص اللغوية في التأثير في نفس السامع؛ فاجتماع لفظ «أم» مع الإضافة إلى « كاف المخاطب المفرد « لمزيد من الحنان والقرب، فالأولى بالإكرام هي « أمك» ! وليس أحد أولى من «أمّك» !

وأما المثل الذي طالما تمثّلته واقعًا عمليًا في حياتها اليومية، وطالما حثَّتنا على العمل به، فهو قولها - رحمها الله - المتكرر على مسامعنا : « انفق ما في الجيب يجيك ما في الغيب». وهذا الذي حبَّب إليها الإنفاق حتى كأنها جُبلت عليه في كريم أخلاقها، ورائع تصرفاتها، ولذلك لا أستغرب ألا يكون في خزينتها مبالغ مالية تستمر طويلا، وكأنما تمثَّلت قول الشاعر :

لا يأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ خِرقَتَنا لكِنْ يَمُرُّ عَلَيها وَهْوَ مُنطلِقُ

وأذكر هنا أنني كنت متشرفًا بالسفر مع أمي نورة - رحمها الله - وفي صالة المطار جاء عامل الخطوط بالكرسي المتحرك ليخفف على أمي -رحمها الله - المشي من الصالة إلى كرسي الطيارة في مسافة ليست بالطويلة، ولما وصلت إلى مكانها قالت لي : «عطه يا وليدي ميّة» ! قلت : يمه أبشري لكن المشوار قصير، قالت: «لا يا وليدي تعبناه عطه ميّة»! وهكذا نال العامل ميّة وربما كان يفرح في مثل

هذا الموقف بالخمسة أو العشرة !

كانت أمي – يرحمها الله – تحب زيارة شقيقتي الغالية (لولو) لها في منزلها، وتشعل الأنوار ابتهاجًا، وفي إحدى زياراتها قامت أمي في فناء بيتنا تطفىء أنواره التي لا حاجة لبقائها مشتعلة ؛ توفيرًا على والدي – حفظه الله – من فاتورة الكهرباء، وكأن إحدى الحاضرات تلك الليلة لم ترغب التوفير لسبب أو لآخر !قائلة : لا داعي للتوفير ! فعاتبتها أمي – رحمها الله –قائلة : « زيّني نيتك تزين لك»، وها هي (لولو) تذكرنا بالمثل ومناسبته بعد مرور سنوات عليه.

وبين وقت وآخر – بحكم طيشنا، وقلة خبرتنا في الحياة – لا نفهم المواقف المتسامحة المتكررة من أمي نورة – رحمها الله – تجاه من يخالفها الرأي، أو يبخسها بعض حقوقها، ولذلك يصدر منا بعض الاعتراضات على هذا التسامح، وكأننا لا نرضى لأمي –رحمها الله – ضياع حقوقها، فكانت تقنعنا بالعفو والتسامح، والصفح والتجاوز، ثم تؤيد كلامها ذلك بالمثل الذي ردّدته علينا مرارا: «ما يندم إلا راعي الرديّة» ! وحقا كلامها، وصدقا فعالها ! فصاحب التصرفات الطيبة لا يندم.

ومما يقرب من المثل السابق ما كانت – رحمها الله – تذكره بين وقت وآخر؛ وهو عبارة عن خلاصة تجربة، وعصارة حياة، حيث كانت تقول منفرة لنا من شتم أحد أو سبّه : «لا تسب أحبَّ منك؛ تُبغض ولا يُوحى منك» ! يعني لا يُسمع منك، وهكذا بعبارة مختصرة تخاطب عقولنا بعدم جدوى السب والشتم.

وأما مثل «مدح النفس سماجة» فقد سمعناه من أمي – رحمها الله – في مواقف عديدة، فأحيانًا يكون في معرض النهي عن مدح الواحد نفسه، في حث على التواضع،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومرات قليلة كانت تورده - رحمها الله - في معرض الاضطرار للحديث عن النفس من باب القدوة ونقل التجارب الناجحة، والنماذج الصالحة. ولكنها تبين أن المنهج ليس ذكر المحاسن الخاصة، ولذك تذكّرنا - رحمها الله - بالمثل : «مدح النفس سماجة»، والسماجة كما في المعاجم اللغوية العربية تعني (القبح).

وكانت -رحمها الله- تردِّد على مسامعنا مثلاً لا زال جرسه يرنّ في أذاننا إلى اليوم، وهو قولها -رحمها الله -مبيّنة حقيقة الدنيا، وألا نعطيها فوق حجمها: «الدنيا كسّر اللي هي له»! وهذا المثل من آخر ما قالته في المشفى قبل مغادرة حياتنا الفانية، عليها رحمات الله السابغة.

أما المثل الذي ينشىء فينا الرقابة الذاتية، والمتابعة الداخلية فهو الذي غرسته - رحمها الله - في نفوسنا منذ الطفولة، حيث كنا نسمعها تقول : «ما قدّمت تلقاه» كبُرنا وكبُر معنا هذا المثل، فالذي ينتظرنا غدا هو ما نعمله اليوم، نجاحنا في الدنيا هو حصيلة أعمالنا فيها، ونجاتنا في الآخرة هو حصاد زرعنا في هذه الحياة الفانية، فالذي نلقاه غدا هو ما قدمناه نحن لا غيرنا، إذًا فليطب وليصلح ما نقدمه، هكذا كانت أمي - رحمها الله - تزرع في نفوسنا المكارم عن طريق المثل.

ولمعرفة الجوهر والمخبر، وعدم الاغترار بالمظهر فقد كانت - رحمها الله - تردد على مسامعنا أن «الزِينْ غِسال يدينْ»! وهي - رحمها الله - مِن خير مَن يعرف الجمال ويطرب له، وهي مِن خير مَنْ تأسره المناظر الجميلة، والأشكال الرائعة، لكنها تبيِّن لنا - رحمها الله - أن الجمال الظاهري ليس مسوِّغًا للتغاضي عن جمال الباطن، وحسن الأخلاق، والتحلي بالمكارم، إذ إن المخبر يبقى، والأخلاق تسود، أما جمال الظاهر المجرد من الجمال الباطن فسرعان ما يزول، لأنه مجرد (زين) ؛ و «الزينْ غسال يدينْ»!

وحتى في أوقات اللعب لم تكن الأمثال تغيب عن أمي - رحمها الله - فها هم أحفادُها أثناء تجمعهم مع أمهم نورة - رحمها الله - في لعبة (الكيرم) كانوا يسمعونها تردِّد معلمة إياهم التسامح، وملقنة لهم التدريب العملي في مواجهة أمور الحياة، ومن مبدأ (التعليم بالترفيه) الذي تطبِّقه أمي - رحمها الله - وإن لم تدرسه يومًا من الأيام، بل ربما لم تسمع بهذا المصطلح في حياتها، لكنها تمارسه مع أولادها وأحفادها، وهذا ما تعلمته حفيدتها (هيفاء) في لعبة (الكيرم) من المثل السائر على لسان أمي - رحمها الله - : «المسامح كريم»! إذاً فليكن هذا المثل منهاج حياة، في (الكيرم) وفي سائر المواقف! لنتسامح!

أمَّا المثل الذي لا تكاد تمرُّ عدة أيام إلا ونسمعه من أمي - رحمها الله - فهو قولها : « القلب دكَّانْ، وكل(ن) له مكان»، وهذا المثل يحمل في طيّاته معاني الحب، والمجاملة، وعدم تكدير الخواطر، والرغبة في إعطاء كل من حولها -رحمها الله- قدره في المحبة، والتقدير، وذلك أنها طوال حياتها تحرص على عدم جرح أحد، بعيدًا كان أم قريبًا، وهي بهذا المثل تطفي نار الغيرة المحمودة بين محبيها بهذا المثل، ولذلك فقد علِق هذا المثل بالذات في نفوس أولادها وغيرهم من محبيها، وطالما سمعتها - رحمها الله - تقوله في حضرة صاحب المقام الرفيع؛ الصهر الغالي، ذي المحل السامي (علي المسند) زوج الشقيقة الغالية (لولو) الذي نزل في (دكان) المحبة المنزلة الرفيعة، حتى لقَّبته أمي - رحمها الله - (خامس الأبناء)، وكذلك كانت - رحمها الله تعامله، فهو بحقٍّ أحد الأبناء؛ وهنا أختم المقام بأبيات في واحد ممن احتل في (القلب / الدكان) ذلكم المكان، أبيات في خامس الأبناء:

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

يـا خامـسَ الأبنـاءِ، يـا صِهـري (عـلي) أهـدي لـكَ الأشـواقَ والشـكرَ الجَـلِي
وأقــدِّرُ المعــروفَ، أنــت وليُّــهُ فلَكَـمْ نَعِمْــتُ بفضْلِكـمْ مِــن أوّلِ
ولَكَـمْ شَرُفـتُ بِقُرْبِكـمْ يـا صاحبـي يـا قامـةَ الأمجـادِ في الطـودِ العـلي
أشــتاقُ رؤيتَكـمْ وطِيــبَ حديثِكـمْ في(الأربعـاءِ) لقاؤكـمْ كـمْ طـابَ لِي
شرَّفتنــا وازدادَ تشريــفٌ لنــا بـ(بنيـكَ) هـمْ تـاجٌ لنـا في المحفَـلِ
(البِكْــرُ) أو (راكانُ) أو (ســلمانُنا) والخـيرُ في خَتْـمِ القـوافي (مِشْـعَلِ)
و(بُنيَّتــينِ) هُــما جَــمَالٌ آسِرٌ في عِفَّــةٍ وثقافــةٍ وتجمُّــلِ
(نــوفُ) الحبيبــةُ (زينــةٌ لبناتِنــا) (هيفـاءُ) يـا نـورًا مـضيءَ المِكْحَـلِ
وهَنيئهـا (أختـي) وقـد فـازتْ بِكـمْ يامعـدَنَ الأجـوادِ ياصِهْـري (عـلي)

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى...

١٦- طعم العيد والجمعة مع أمي رحمها الله !

لِعيدَيْ الفطر والأضحى، وعيد الأسبوع فرحة وابتهاج لدى الكثير،لا شك في ذلك، ولكنَّ طعم هذه الأيام الثلاثة، ومذاقَها لدى كل مَنْ خالط أمي نورة - رحمها الله- يزيد تميّزًا؛ والسبب في ذلك ما توليه أمي نورة -رحمها الله - من العناية الفائقة، والبصمة الخاصة التي تصبغ بها كل يوم من هذا الأيام حسب ظروفه.

فـ(يوم الجمعة) المطلّ كل أسبوع تتكرر فيه بعض الأعمال؛ التي من أولها القيام المبكر، والقهوة والشاي والحليب، وصوت المذياع على قراءة القرآن، يصاحب ذلك أو يعقبه بقليل الروائح الزكية ضحى، فالبخور يملأ جنبات البيت، والأطياب الأخرى تتجاوز جدران الغرف إلى المكان المحيط بالبيت حيث الفناء، وإذا اقترب الظهر تحول المذياع تلقائيًا إلى صوت سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ -حفظه الله - في صوته الجهوري المميز، من وسط مدينة الرياض إلى وسط

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

غرفة أمي رحمها الله.

فإذا عدنا من صلاة الجمعة بتوقيت الرياض إذا بالتفلزيون على القناة السعودية الأولى التي فيها صلاة الحرم، حيث حضور المصلين إلى المسجد الحرام، وانتظار خطيب المسجد الحرام، مع قهوة الظهر المزدانة بالزعفران، والشاي بنوعيه المحلّى بالسكر والخالي منه، والتمور، والبخور، ثم ما هي إلا دقائق حتى يتوافد على ديوانية أمي - رحمها الله -مختلفو الأطياف يتقدمهم والدي حفظه الله تعالى - إذا كان اليوم يوم أمي - رحمها الله - ومن الحضور خالي صالح - حفظه الله- وأولاد أمي نورة - رحمها الله - وبعض الأحفاد، وإخواني غير الأشقاء، وغيرهم من الأقارب ينقصون أو يزيدون بين جمعة وأخرى، في الديوانية شتاءً، وفي غرفة الجلوس الداخلية صيفًا.

مِن الضيوف مَن يسمح وقته بالسلام والقهوة والشاي، وينصرف مبتهجًا مسرورًا بجلسة ملؤها الترحيب والبشر، وكرم الضيافة. ومنهم مَن يتسع وقته لإكمال سرور أمي - رحمها الله - بالبقاء لتناول وجبة الغداء مع أمي نورة - رحمها الله - حيث بوادي الجريش الذي يعلوه البزار المميز، وحلّة القرصان المختلطة باللحم، المزيّنة بالخضار المصفوفة بعناية، وذوق وجمال، والرز ذو النكهات الأخّاذة مع استدارة الكوسا والخضرات فوق الرز، وما يتبع ذلك من إدام الباميا، وصحون السلطات، واللبن، والفواكه، في سفرة تحرص أمي - رحمها الله - أن تكون قطعة واحدة مستطيلة طويلة بحيث يكون الجميع متقابلين مجتمعين مهما كان العدد، دون الاضطرار إلى تقسيمها لئلا نبتعد عن الاجتماع ولو للحظات!

وأما بعد الغداء فمن انصرف فبحفظ الله تعالى، ومن بقي فمع حفظ الله سيجد أمي - رحمها الله - تكمل ضيافتها له بالأحاديث والشاي، ولأن العدد سيكون أقل، فالمجلس سيكون أقل رسمية، ولذلك فربما أكملنا الحديث معها - رحمها الله- وقد

خفّفنا أنوار غرفة الجلوس، في حالة من الهدوء والاضطجاع على المجلس، وتوسّد المراكي في جلسة ودّية ليس فيها إلا الأحاديث التي ما أحلاها ! حيث الأمّ ومَن بقي من أولادها. لحظات وإذا بأذان العصر ينادي، وهكذا الحال في الغالب كل جمعة من الجمعات التي فيها أمي نورة - رحمها الله.

أما (عيد الفطر) ! فالعيد مع أمي نورة - رحمها الله -عيدان؛ ذلك أنها تقلب البيت رأسًا على عقِب، الاستنفار العام ليلة العيد، فمن نكهات الطبخ الشعبي التي تملأ المكان بالبهارات والتوابل، وما يتبع ذلك من إعداد كامل لوجبة العيد الرسمية التي طالما تفاخر بها والدي فجر العيد حينما نأتي بها له في جماعة الحي الذين جرت عادتهم أن يأتي كل واحد منهم بعيده ويجتمعون في قبلة المسجد الجامع من بعد صلاة العيد حتى قبيل اشتداد الشمس، ويالله كم شهد مكان الاجتماع (الساحة الغربية لجامع الذياب في حي الفيحاء) من وجبة العيد السنوية التي تعدُّها أمي -رحمها الله - بكل عناية، في غايةالحفاوة، حتى إني لأرى وجه والدي - حفظه الله- متهللا كل عام وجماعة الحي يتنقلون بين وجبات العيد المختلفة حسب العادة في ذلك اليوم، لكنهم يطيلون المكث أمام (عيد أبي غانم) مثنين عليه مشيدين به، وما علموا أن وراء (عيد أبي غانم) أيادي (أم غانم) رحمها الله.

أعود بكم للحديث إلى ما قبل صلاة العيد فإننا نحضر لأمي نورة - رحمها الله - بعيد صلاة الفجر مباشرة، لنجد البخور والقهوة والتمرات قد جهَّزتها أمي - رحمها الله - فنأخذ منها تمراتنا الوتر؛ تطبيقًا للسُّنة قبل خروجنا لمصلى العيد، ومِن ثمَّ تزدان سيارتي بركوب أمي - رحمها الله- (بحنكتها) الرائعة وهي قطعة القماش التي تلف بها رأسها المزدان بروائح دهن العود، تخرج تشهد صلاة العيد، مصحوبة بمن تيسّر له الذهاب من زوجات الأبناء، والأحفاد الذين يفضلون صحبتها على أية صحبة أخرى! تعجُّ السيارة بالتكبير «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد»

ثم ما أن تنقضي صلاة العيد، إلا ونعود معًا لبيت أمي - رحمها الله - حيث اجتماع الأحباب والأقارب، من الرجال والنساء الذين يرون من أهم برامجهم ذلك اليوم البدء أو المشاركة في مجلس أمي - رحمها الله -فمع كونها تُخرج عيد والدي - حفظه الله - كما ذكرت قبل قليل، فإن المتعيدين معها في البيت يحظون بمثل الوجبة الشهية التي أعدتها لرجال الحي، وجبة تشمل بفرحتها الكبار والصغار، النساء ومَن لا يرغب الخروج لعيد الحي من الرجال، والخادمات لهن النصيب الكبير من فرحة العيد.

ومِن أميز ضيوفنا في كلّ عيد فطر خالتي (منيرة) - حفظها الله - زوجة جدي لأمي (عبد العزيز المانع) - رحمه الله - التي اعتادت لسنوات متتابعة أن تشهد العيد مع ابنة زوجها أمي نورة - رحمها الله - ولم تنقطع تلك الزيارة الرائعة إلا بوفاة أمي نورة - رحمها الله - وكم كانت بينهما (أمي رحمها الله وخالتي زوجة أبيها رحمه الله وحفظها) من أحاديث رائعة كنت أستمع إليها في ذهابها وإيانا لصلاة العيد، ولا زلت أذكر بكاء خالتي - حفظها الله - وهي تحدِّثنا بحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن كون يوم العيد هو يوم الجوائز.

أمَّا (العيدية)فتكون جاهزة مع أمي - رحمها الله -قبل العيد، وعادة ما تطلب منَّا - رحمها الله - قبل العيد أن نجهّز لها مبالغ مالية تحرص أن تكون من مؤسسة النقد مباشرة؛ لتكون الأوراق النقدية جديدة فتزداد فرحة من تعيِّده بها، للأطفال نصيبهم من فئة الخمسة ريالات أو العشرة، ولبعض الأطفال فئة الخمسين والمئة، وأما الخادمات فلهن من الفئات الورقية التي ربما لا يأخذن مثلها ذلك اليوم من غير أمي - رحمها الله - وكم هي فرحة الطفل أي طفل عندما يسلم على أمي نورة - رحمها الله - مقبّلا رأسها فرحًا بما أعدّته له من مبلغ مالي يدخل عليه من

هنا ليخرج به إلى البقالة المجاورة (بقالة روزي الباكستاني رحمه الله) الذي كان يفرح بأي اجتماع عند أمي - رحمها الله - لأن بركة هذا الاجتماع تتعدى إليه وإلى مبيعاته ذلك اليوم!

وهكذا تستمر الفرحة بالعيد مع أمي - رحمها الله - حتى ما قبل الظهر حيث التعب والإرهاق، فإن لم يبق أحد من الزوار، خلدت - رحمها الله - للقيلولة، لتستأنف الاستقبال والحفاوة والتقدير بضيوف العصر والمغرب والمساء.

ومن أروع ذكريات عيد الفطر مع أمي نورة - رحمها الله - ما كنت أتشرف به حينما أصحبها في سيارتي ومَن يتيسر له الذهاب معنا من زوجة وولد، نذهب إلى مرتفعات طريق النهضة في الربوة، أو إلى جوار (أستاد) الأمير فيصل بن فهد في الملز؛ للاستمتاع عن قرب بالألعاب النارية الليلية، لحرصي على أن تشهد أمي - رحمها الله - تلك الفعاليات التي تزدان بأنسها - رحمها الله -

وأمّا (عيد الأضحى) فلأمي نورة - رحمها الله - معه بصمات خاصة، فالاحتفالية تبدأ قبل العيد بيومين أو ثلاثة، منذ أن تصل الأضاحي إلى منزلها -رحمها الله - حيث تعتني بها من حيث المأكل والمشرب، والاستعداد بأدوات الذبح والسلخ؛ من السكاكين، والمسنّ، و(الصواطير)، و(التباسي) المعدة لوضع اللحم.

حتى إذا كانت ليلة العيد، وبعد الإفطار من صيام يوم عرفة، تُخرج أمي -رحمها الله - العدّة الخاصة (السكاكين ونحوها) وتضعها في مكان الذبح في فناء بيتها - رحمها الله - وما أن نرجع معها -رحمها الله - من صلاة العيد، إلا والقهوة والتمر، والشاي معدَّة في (ترامسها) الخاصة التي تمكننا من تناولها دون أن تؤخرنا عن ذبح الأضاحي مع والدي - حفظه الله - وبقية إخوتي، ومن يحضر من زوجات الأولاد، وبعض الأحفاد.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وهنا تكون أمي -رحمها الله- بمثابة قائد الفريق في المطبخ المجاور لمكان الذبح، فما أن ينتهي والدي - حفظه الله - من إحدى الذبائح، إلا وتقوم أمي -رحمها الله - بتوزيعها على الأقارب ممن لها عادة أن تصلهم بلحوم الأضاحي كل عام، وقد جرت عادة والدي - حفظه الله - أن يبتدئ بأضحية أمي نورة عن والديها (عبدالعزيز ومزنة) -رحمهم الله جميعًا - وما أن يشرع في ذبح الأضحية الثانية أو الثالثة إلا وقد جهَّزت أمي نورة - رحمها الله - مع الفريق الذي معها (الحميسة)، حيث نجتمع نحن الرجال على صحون الكبدة (الحميسة)، وتجتمع النساء على مثلها، وذلك بمثابة استراحة قصيرة تُستأنف بعدها عمليات الذبح والسلخ، علينا نحن الرجال، والتقطيع، والتوزيع على أمي نورة - رحمها الله - ومن معها من النساء.

وهكذا ما أن يشتد الضحى، ويقترب الظهر إلا وقد فرغت أمي نورة - رحمها الله - من أعمال ذلك اليوم السعيد الذي ينتهي بكتابة أسماء الأقارب على أكياس اللحم أو كراتينه التي تخصّهم ؛ لنقوم بإيصالها لهم عصرًا في منازلهم، أو إعطائهم إياها إذا أوصلوا ما يخص أمي - رحمها الله - من أضاحيهم.

وأما من شارك أمي - رحمها الله - في أعمال ذلك اليوم، من الشقيقة الغالية (لولو) ومن زوجاتنا نحن أولاد أمي نورة - رحمها الله - فلا تخرج الواحدة منهن ضحى إلا وقد أخذت ما يخصها من لحوم الأضاحي، مودّعين أمي - رحمها الله - متبادلين معها الدعوات بالسعادة والقبول.

وهذا ما كان يتكرر كل عام، حتى كان آخر وداع في عيد الأضحى من عام ١٤٢٩هـ حيث خرجت النسوة من عند أمي - رحمها الله - ولم يعدن إليها عام ١٤٣٠هـ لأن البيت خلا منها - رحمها الله - فلا عيد، ولا ذبح، ولاسلخ، ولا (حميسة)، ولا كتابة على اللحوم بأسماء الأقارب الذين فُجعوا بفقدها بعد آخر عيد بأقل من ثلاثة

أشهر ! رحم الله من كانت عيدًا لنا في أعيادنا، وجامعة لنا في جُمعاتنا، حضرت -رحمها الله - عيد الأضحى ١٤٢٩هـ، ودخلت المستشفى في ٣/ ١ / ١٤٣٠هـ، وصُلي عليها - رحمها الله - في ٣/ ٣ / ١٤٣٠هـ

وللحديث بقية إن شاء الله...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

١٧- عزّة نفس أمي نورة - رحمها الله

من الصفات التي تحلّت بها أمي نورة - رحمها الله - عزّة في نفسها يتحدث عنها من خالطها وعاش معها - رحمها الله تعالى - عزّة من غيرِ كِبْر، واستغناء بالله عن خلق الله، عزّة تعرف بها مكانتها، ولا ترضى أن تُخدش كرامتها، أو يُتكلم فيها أنها أنزلت من قيمتها.

والعجيب أن هذه الصفة استمرت معها سنوات عمرها، في أوائل عمرها وأوسطه، وأواخره. والذي يحضرني في هذه الأسطر بعض المواقف التي تبيّن تلك الصفة الجميلة في صفات أمي نورة - رحمها الله تعالى - فمن ذلك أن والدي الكريم - حفظه الله - أراد أن تتعلم أمي نورة - رحمها الله - في محو الأمية، ولكنه استخدم الحيلة السائغة بين الأزواج، إلا أنها حيلة اصطدمت مع (عزّة نفس) أمي - رحمها الله - فلم تنطل تلك الحيلة! وخلاصة القصة أن والدي - حفظه الله -

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

تزوج زوجة من خارج السعودية، وأخبر زوجتيه التي إحداهما أمي – رحمها الله– أن الزوجة الجديدة متعلمة وأنها تقرأ فلا تكن أفضل منكما، فالواجب عليكما الآن التعلّم ! والانخراط في محو الأمية، ومع سلامة قصد والدي – حفظه الله – وحسن نيته، ورائع طلبه، إلا أنه –ربما – لم يتفطن إلى أنه يتعامل مع عزّة نفس نورة التي لا ترضى أن تعمل عملا يظهر منه أن صادر من غيرة من منافس، حتى لو فوّتت مصلحة متحققة كتعلّم القراءة، ولذلك ردّت –رحمها الله – على والدي طلبه معتذرة إليه – حفظه الله – بعلّة واضحة دون مواراة : «تبي الناس يقولون ما تعلمت نورة إلا غيرة من جارتها !» .

وبعد مرور سنوات على تلك الحادثة، جرى حديث ودّي بين الزوجين (أمي رحمها الله، ووالدي حفظه الله) كان المبتدئ بالحديث والدي –حفظه الله – حيث قال لأمي –رحمها الله – إن زوجة الملك خالد تكتب أسماء عوائل معيّنة من معارفهم، بحيث يصرف لهم الملك خالد –رحمه الله – مكافآت مالية سنوية، واقترح والدي على أمي –رحمها الله– أن تكلّم في الموضوع إحدى قريباتها قريبة جدًا منها، وكانت من زوجات أحد أقارب الأسرة المالكة آنذاك، وهناك تحرّكت (عزّة نفسِ) أمي نورة – رحمها الله – مرّة أخرى، ولكنها أقوى في اللفظ، مع غاية الأدب مع صاحب الاقتراح والدي – حفظه الله تعالى – إذ قالت أمي – رحمها الله – جوابا على هذا المقترح: «بسم الله عليّ ! أنا أطلب من الملك يعطيني ؟! إذا كان الملك يبيني أعطيه أعطيته!». ويالَه من جواب! ظل والدي يعيده متبسّما بين وقت وآخر حتى بعد وفاة أمي نورة – رحمها الله – : يقول أمك تبي تعطي الملك، وهي ما معها ذلك الوقت إلا مئة أو مئتي ريال!

ومن المواقف التي تبين (عزة نفس) أمي نورة – رحمها الله – ذلك الموقف الذي يحمل في طيّاته روح المرح والظرافة، وملخص هذا الموقف أن والدي – حفظه الله–

تزوج فتاة جامعية، ويبدو أن الليالي الثلاث التي هي من حق العروس أول زواجها لم تكن تكفي الزوج الراغب في عروسه الجديدة، فما كان من والدي العريس إلا أن ذهب مستأذنا من زوجاته الثلاث التي إحداهن أمي -رحمها الله- يستأذن كل زوجة منهن أن تهب عشر ليال مما يخصها ليجعلها ليالي للعروس، وكل زوجة تتنازل عن الليالي العشر مقابل عشرة آلاف ! بمعنى أنه سوف يشتري من أمي نورة - رحمها الله - كل ليلة بألف ريال ! ولكن والدي - حفظه الله - تفاجأ بجواب أمي نورة - رحمها الله - حيث جاء جوابها محافظًا على (عزة نفسها) دون تعدٍّ على والدي - حفظه الله - أو إساءة أدب، فما ذا كان ذلك الجواب يا تُرى ؟ جواب أمي - رحمها الله - لوالدي كان بهذه العبارة : «سمعتي أهم عليّ ! والله ما يقول الناس إن نورة باعت لياليها لأجل المال ! لكن إن كنت تبي تأخذ الليالي خذها، ولا تعطيني لها مقابل !» وهنا كان الجواب المقنع المعبّر -بغاية الأدب - عن العزة والكرامة، وهو ما حمل والدي - حفظه الله - كما يقول هو على أن استحيا من أمي - رحمها الله- ومن أسلوبها، ولم يأخذ من لياليها ولا ليلة واحدة، فسلمت ليالي أمي -رحمها الله- وسلمت الآلاف العشرة لأبي حفظه الله.

وللحديث بقية إن شاء الله ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

١٨- مساعدات أمي رحمها الله المالية

مما لا يشك فيه كل من عايش أمي نورة -رحمها الله- لو يومًا واحدًا أنها -رحمها الله - قد حُبِّب إليها مساعدة الآخرين بأنواع المساعدات: المالية، والعينية، وبذل جاهها في سبيل ذلك، بل والقيام بالمساعدة المباشرة عن طريق القيام بالعمل بنفسها؛ مساعدة لغيرها.

وأما مساعداتها لنا نحن أولادها فأكثر من أن تُحصى، فلا أظن أن أحدًا من أبنائها الأربعة تزوج إلا بمساعدتها في المهر، وبعض الحاجات الرئيسة للزواج. وكذلك لو عنّت للواحد منّا حاجة أو رغبة في تجارة، فإنها - رحمها الله - تبذل له من حُرِّ مالها، ومما يتيسّر في يدها في تلك الساعة، ما تسدّ به الحاجة، وتفرج به الكربة، وتنفّس به الضائقة.

ومن ذلك أن (مهر زواجي) كان قد تقسّم أربعة أرباع، ثلاثة منها أعطتنيه أمي

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

– رحمها الله – بكل طيب خاطر، وأكمل والدي – حفظه الله – ربعه الباقي. وكنت حينها طالبًا في الجامعة. ولا والله لا أذكر يومًا من الدهر أنها ذكّرتني بهذا المبلغ، ولا أنها ترى لنفسها فيه فضلاً ! مع أنها – رحمها الله – صاحبة الفضل الأكبر بعد الله تعالى.

وبعد مرور سنوات من تخرجي في الجامعة، حين كنت أكتب في رسالة الدكتوراه، مرّت عليَّ ظروف صعبة للغاية، وزاد من صعوبتها اجتماعها في وقت واحد، ومن تلك الظروف، اعتذار مشرفي عن إكمال إشرافه على رسالتي لاختلاف بيننا في وجهات النظر، مما يعني تأخري تأخرًا الله أعلم بمدته في إنهاء همّ البحث وتسليم الرسالة، ومن الغد مباشرة تفاجأتُ بتصرف من أحد أفراد مؤسسة كنت أتعامل معها في التقسيط بأنه سحب كل ما في رصيدي، بحيث لم يبق فيه إلا مئة وخمسة ريالات! ونحن في أول الشهر، وهناك ضاقت علي الأرض بما رحبت، واستشعرت معنى استعاذة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الأمرين الذينِ أصاباني معًا «غلَبة الدّين، وقهر الرجال» !

ومع هذا الظرف القاسي حاولت أن أنهي الأمر المالي، وكلّمت في تفريج الكربة رجالاً من أقرب الناس إليّ، ولكنْ لم أرجع من تكليمهم إلا بذل السؤال!

وكنت أتوارى عن أمي نورة – رحمها الله – أن تراني مهمومًا لئلا أضيّق صدرها! ولكنها – رحمها الله – رأت من تغيّر حالي، وشرودي مما لم أتمكن من إخفائه، رأت من ذلك ما دفعها إلى سؤالي عن حالي ؟ فلمّا علمتْ –رحمها الله – بالأمر أعلنت دون أن أطلب منها، أعلنت بلسان الرحمة، وبنفس الأم التي حُبِّب إليها البذل والمساعدة، قالت لي بكل لطف ومودّة – والله كأني أنظر إلى وجهها الآن في تلك الجلسة التي لم يكن معنا فيها أحد من البشر – قالت لي بهذه الحروف : «يا وليدي ! لا تِضيق بك ما دمت موجودة» ! ثم أعطتني مبلغًا أخبرتني أنها كانت قد

أعدته لشراء ذهب لها. أعاضها الله – تعالى – من حُليِّ الجنة.

وهكذا خرجت من عند الباذلة المنفقة – رحمها الله – وقد انفرجت (الضيقة)!

ولا أظن أحدًا من إخواني اشترى سيارة، أو أنشأ تجارة إلا ولأمي نورة – رحمها الله – معه مساهمة واضحة، بل ونلمس بركاتها في سلامة السيارة، أو نماء تلك التجارة!

حتى إن أمي نورة– رحمها الله – فيما أظن لا تودّ بقاء المال في يدها دون الانتفاع منه، فما انتفاعها بالمال إلا في إنفاقه، حتى كانت تردّد كثيرًا:» انفق ما في الجيب يجيك ما في الغيب «، وهنا أذكر أنها جاءها يوما ما (شيك) بمبلغ مالي زاد على الستين ألفًا بمئات معدودة، فقالت لي – رحمها الله – « وش حاجتي بهذا المبلغ يا وليدي ؟! لكن اصرفه وعطني ما فوق الستين أفرّح فيها الأطفال، وتبرع يا ولدي بالستين ألفًا في أي مسجد !» وهكذا وزّعتْ –رحمها الله – المبلغ قبل أن يدخل عليها! مع أنها لا تملك – حينئذ – في خزينتها ولا عُشره !

لا حرمها أجر الباذلين المنفقين أموالهم وما يملكون رجاء ما عند الله، وها هي الآن قد ذهبت إلى الله، وعسى أن تكون قد لقيت ما قدمت من الخير.

وهنا أتساءل هل وافقت أمي نورة – رحمها الله – سنةَ الحبيب محمد المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في عدم رغبتها إبقاء المال دون إنفاقه، كما جاء في القصة التي رواها البخاري وغيره عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: «صَلَّيْتُ وَرَاءَ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ».

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

والتبر: ما لم يضرب دنانير من الذهب.

ومما يدخل في حب أمي نورة - رحمها الله - المساعدات والبذل المالي، ما كان يحظى به أولادنا (أحفاد أمي نورة رحمها الله) منها؛ حيث كانت المبالغ المالية التي يحصلون عليها من جدتهم نورة - رحمها الله - كبيرة جدًا مقارنة بهدايا النجاح المعتادة، وهو الذي جعل أحد أحفادها الصغار بعد وفاتها يقول يوم نجاحه - بعفوية الطفل - « يا ليت أمي نورة موجودة تعطيني نجاحتي» !

ولعلّ حبَّ أمي نورة - رحمها الله - هذا للنفقات، وما جُبلت عليه من الرغبة في المساعدات هو الذي جعلها تخرج من الدنيا - رحمها الله - ولم تُبقِ في خزينتها إلا ما تتزين به من ذهبها، وبعض ساعاتها، ومبلغًا زهيدًا من المال.

لكنها احتفظت - رحمها الله - بالذِكر الحسن، وما ينتظرها إن شاء الله عند الله فهو خير وأبقى ؛ جزاءَ ما نفّست فيه من كربات، وما قدّمت من إعانات.

وللحديث بقية إن شاء الله ...

١٩- أمي - رحمها الله - ورمضان

لرمضان مع أمي – رحمها الله – ذكريات وأي ذكريات! وسأحاول أن أشير إلى بعض الومضات التي ارتبطت برمضان في حياة أمي نورة – رحمها الله – ومنها عنايتها الفائقة بالصائمين والقائمين سواء أكانوا من ذويها أم من المسلمين عمومًا.

وأذكر في رمضان عام ١٤٠٧هـ وحينها لم تكن سنة الاعتكاف منتشرة كما هي اليوم والحمد لله، ولذلك فمن أراد الاعتكاف كان عليه أن يخرج للسحور على الأقل خارج معتكفه، وهذا ما كان يحصل لي في ذلك العام عندما كنت – بفضل الله – وأنا في الثانية الثانوية معتكفًا مع إمام جامع الحيّ شيخي وحبيبي الفاضل الشيخ (محمد بن إبراهيم النملة) – حفظه الله – وكنا نفطر في الجامع، ونمكث فيه إلى ما بعد القيام، حيث نخرج على أقدامنا إلى بيتنا، لتستقبلنا روائح السحور المعدّ من يدي أمي – رحمها الله – بكل عناية، فندخل مباشرة الشيخ وأنا إلى مائدة السحور،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وعندها أستغل فرصة خروجي من المعتكف لأسلّم على أمي – رحمها الله – وهكذا يتكرر المشهد طوال ليالي العشر الأواخر المباركة.

ومن الأعمال الصالحة التي كانت أمي نورة – رحمها الله – صاحب الريادة فيها في جامع الحي، ما كانت تقوم به – رحمها الله – كل ليلة من ليالي العشر الأواخر المباركة أثناء استراحة المصلين بين تسليمات القيام، حيث كانت أمي –رحمها الله – تعدّ للمصلين الشاي والقهوة والبخور كلّ ليلة، وتعتني بهذه الضيافة عناية فائقة حتى غدت لها عادة سنوية، لها أوانيها الخاصة من (بيالات) وفناجيل ومباخر، ونحوها من الأواني التي لا تستعمل إلا عشر ليال في العام، ذلك أنها مع نهاية رمضان تقوم أمي – رحمها الله – بتخزين هذه الأواني إلى رمضان المقبل من كل عام، وهكذا استمرت هذه الضيافة الكريمة أعوامًا عديدة بفضل الله تعالى.

ومن الذكريات الخاصة بأمي نورة – رحمها الله – في رمضان اجتماع النسوة المحتاجات عندها كل عام، يأتينها من داخل الرياض وخارجها، يأتين إليها في عزّ الظهيرة، فتجلس إليهن، وتؤانسهن، وتبادلهن الأحاديث، وينصرفن من عندها راضيات بما ييسر الله – تعالى – لهن من يد أمي – رحمها الله – من صدقات.

والعجيب في الأمر أن هذه النسوة المحتاجات لم ينقطعن عن زيارة منزل أمي – رحمها الله – حتى بعد وفاتها بسنوات! والحق يقال : إنهن لئن حصلن في هذ الزيارات الأخيرة على بعض المال، فلن يحظين بمثل ذلك الاستقبال، ولا تلك الجلسات، فنورة – رحمها الله– قد غادرت الدار !

ومن الأمور التي كانت بيني وبين أمي نورة – رحمها الله – في رمضان ما كانت تأمرني به – رحمها الله – من شراء بعض الألبان، وتوزيعها على أماكن تفطير الصائمين في المساجد، وسكن العمال، حيث كنت أتشرف بأن تصحبني أحيانًا

قليلة قبيل المغرب، والأكثر أن أتولى التوزيع دون صحبتها لانشغالها بالإفطار داخل بيتها رحمها الله.

وكم كانت - رحمها الله - تحرص على بعض الأعمال النوعية في رمضان من نحو الإسهام في مكاتب توعية الجاليات في تسيير رحلات العمرة للمسلمين الجدد.

ومما أذكره كل رمضان منذ وعيت على هذه الدنيا ما كانت أمي نورة - رحمها الله - تفعله كل عام، من تمييز ليلة بمزيد عناية في إفطارها وعشائها، وذلك بالدعوة إلى تلك الليلة لحضورها من الأقارب أو المساكين، حتى يحضروا جميعًا ذلك العشاء المميز الذي يُعرف بـ(عشاء الوالدين)، وهو ما يُقدم بنية الصدقة عن الوالدين رحمهم الله جميعًا.

كما أن مما يتميز به رمضان كل عام ما يشارك به شقيقي الأكبر (غانم) -حفظه الله - أمي في عمل برٍّ سنوي؛ إذ يقوم أخي غانم بدعوة موظفيه، وعمال محلاته من مختلف الجنسيات لتناول إفطار ليلة وعشائها في بيت أمي نورة -رحمها الله- التي تفرح بمجيئهم فرحها بذويها، وتقوم بالعناية بهم كعنايتها بعلية القوم، لا تفرق - رحمها الله - بين خادم ومخدوم، ولا غني وفقير، فهم عندها سواء، لأن ضيوفها من حلّوا دارها أيًّا كان مستواهم، ومهما كانت حالتهم.

وأما (مهرجان الإفطار) اليومي - كما يسميه أحفاد أمي نورة -رحمها الله- فهو تجمّع عمال الحي في فناء بيتها - رحمها الله - كل يوم قبيل المغرب بإدارة والدي - حفظه الله - الذي يجمعهم في البيت، حيث تقوم أمي - رحمها الله - يوميا بالإشراف على فرش الفناء، وتتأكد من مناسبته لضيوف مائدتها اليومية، ليهنؤوا بطعام الإفطار والعشاء الذي طلبت - رحمها الله - من والدي - حفظه الله - أن يأذن لها بإعداده في المنزل، قائلة له: « مساكين هالعمال تراهم مشتاقين

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

لطبخ البيوت «! ولذلك احتفت - رحمها الله - بتلك المائدة فخصصت لها القدور الكبيرة، وموقد الغاز الخاصين بهذا (المهرجان)، وعُنيت - رحمها الله - بالطبخ المنزلي بنفسها، معوّضة هؤلاء العمال بعض ما فقدوه من الجو الرمضاني العائلي، لبعدهم عن أهلهم وذويهم. فرحم الله قلبًا يحمل كل هذه الرحمة والمودّة.

وحُقَّ لأبناء أختي أن يسموه (مهرجان الإفطار) لما يجمع فيه ما يقارب مئة وخمسين عاملا من مختلف الجنسيات!

وأما اليوم الرمضاني مع أمي نورة - رحمها الله - فيمكن أن ألخّصه فيما يلي: لنبدأ من الظهر حيث تبدأ استعدادات أمي - رحمها الله - لمائدة (الإفطار)، فالطبخ لموائد رمضان المعتادة، من شوربة، و(سمبوسة)، و(مكرونة)، وأنواع العصير وفي مقدمتها التوت، وقمر الدين، والكريمة الصفراء في أوانيها الزجاجية الخاصة، وهكذا الحال كل ظهر، وإذا كانت عناية أمي - رحمها الله - بالمائدة على وجه العموم عناية فائقة، فإن عنايتها - رحمها الله - بالشوربة عناية تزيد على الوصف من حيث إتقانها، وضبط مقاديرها، ونكهتها الخاصة، حتى صارت أشبه ما تكون بماركة مسجلة عند الأولاد والأحفاد، حيث نتناقل عبارة «شوربة أمي نورة» في معرض الثناء والمقارنات والتشبيه بالرائع من الأكلات.

حتى إذا كان قبيل الإفطار اجتمعنا حول مائدتها العامرة قبل زواجنا نحن أولادها الخمسة، ثم بعد زواجنا نحن ومن يتيسر من زوجات أبناء وأحفاد، وأمي -رحمها الله - هي هي لم تتغير حفاوة وحرصًا علينا، ورغبة في أن ننال أقصى ما يمكن من الإكرام؛ ولذلك فعادتها في إطعامنا طعامها الخاص عادة لازمتها -رحمها الله - منذ صغرنا إلى أن صارت زوجاتنا وأولادنا معنا على المائدة نفسها؛ فقد بات من المعتاد جدًا أن تخرج قطع اللحم أو الدجاج من بادية الشوربة الخاصة بها لتجعلها في بادية شوربة أحدنا، وهي تحلف عليه أن يأكلها، مرددة علينا -رحمها

الله -: «الذي تأكلونه أحب إليَّ من الذي آكله أنا»!

فإذا عدنا من صلاة المغرب مع والدي - حفظه الله - إذا كانت تلك الليلة ليلة أمي - رحمها الله - ومن حضر من الأولاد، فإننا نجد مائدة من بقايا الإفطار موجودة في غرفة الجلوس مجهزة بشكل مصغّر حيث العصير و(السمبوسة)، مع الشاي والقهوة، وذلك لكي يتسنى لمن أراد إكمال الإفطار أن يكمله.

وإذا خرجنا لصلاة العشاء والتراويح فإن من العادات الملازمة لأمي - رحمها الله - في مثل هذا الوقت أن تهيئ فناء المنزل إعدادًا وإشرافًا مع الخادمات بتصفيف الفرشات والمراكي، وتبريد المكان بالصحراوي النقال، والاستماع أثناء التجهيز لصلاة مكة المكرمة من المذياع أو التلفاز حسب المتيسر تلك الليلة، فلا تلبث - رحمها الله - أن تأخذ مكانها من الجلسة الليلية في الهواء الطلق إلا ووفود المحبين تأخذ في التجمّع حولها ؛ أولادها وزوجاتهم، وأولادهم، وأولاد زوجها، أحيانًا زوجات زوجها، وبعض الأقارب والأصدقاء، فمن مسلِّم وشارب الشاي والقهوة ومنصرف، ومن مشاركٍ في تناول العشاء المميز من يدي أمي - رحمها الله - والذي يغلب أن يكون (مكرونة) ذات نكهة رمضانية خاصة، حتى كادت أن ترتبط في أذهاننا جلسة بعد التراويح بالمكرونة لاعتيادنا على ذلك سنواتٍ عديدة، في اجتماع رمضاني مسائي لا يُقدَّر بثمن، اجتماع افتقدناه مع فقْدِ من كانت نوره وبهاءه رحمها الله.

ولم يزل في البرنامج اليومي الرمضاني بقية في جدول أعمال أمي نورة - رحمها الله- حيث إنها لا بد أن توقظ جميع أهل البيت لتناول وجبة السحور الرسمية، والتي عادة ما تكون كبسة الرز المطبوخة في مطبخ أمي - رحمها الله - فلا طلبَ من المطاعم، ولا تحضيرَ لطعام بايتٍ، وإنما هو السحور المتجدد كل ليلة، كبسة الرز تزينها الخضروات، مع التمر واللبن، ثم الماء الذي اعتدنا أن يكون خاتمة السحور

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

والذي نردد معه عبارتنا العامية «نستعقد» عليه.

وهكذا تسير جميع أيام الشهر الفضيل ولياليه، لا أكاد أستثني منه إلا ليلتين اثنتين : أولهما ليلة ختمة الحرم المكي الشريف، تلك الختمة التي توليها أمي -رحمها الله - مزيد عناية، فمنذ عقلت الحياة وأنا أرى أمي - رحمها الله - تجهّز المسجّل وشريط الكاسيت ذا (اللصقة الصفراء)، وتقوم بتسجيل الختمة بنفسها، ويالله كم مرة سجّلت أمي - رحمها الله - الختمة بصوت الشيخ عبد الله الخليفي - رحمه الله - ثم باتت تردد سماعها في أوقات متلاحقة، واستمرت طريقة أمي - رحمها الله - في تسجيل الختمة مع الشيخ عبد الرحمن السديس - حفظه الله- وحتى مع انتشار التسجيلات الإسلامية وتوفّر الختمة المسجلة إلا أن بصمة أمي - رحمها الله - في تسجيل الختمات ذات طابع خاص!

وأما الليلة الأخرى التي لها عند أمي مزيد مزية فهي ليلة ختام رمضان، حيث يمتزج لدى أمي - رحمها الله - شعوران متناقضان، شعور بالفرح على تمام الشهر، وشعور بالحزن على فراق (صديقها) شهر البركات، يزامن ذلك زكاة الفطر، وما يصحبها من إحضار الزكاة إلى البيت، ثم إخراجها إلى أرامل ومساكين ومحتاجين اعتادت أمي - رحمها الله - أن تعطيهم زكاة الفطر كل عام.

أما ليلة العيد وما تعمله أمي - رحمها الله - فيها فقد أفردت لها الحديث فيما مضى في (الحلقة السادسة عشرة)، عند حديثي عن طعم العيد والجمعة عند أمي نورة رحمها الله.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى...

٢٠- يا هلا بالدختور

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة شؤون القبول والتسجيل

بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة تخرج

وافق مجلس جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بتاريخ ١٤٢٩/٠٦/٢٦هـ الموافق ٢٠٠٨/٠٦/٣٠م على منح :
إبراهيم بن عبدالله بن غانم السماعيل ، سعودي الجنسية ، المولود عام ١٣٩١ هـ
درجة الدكتوراه في البلاغة ، من كلية اللغة العربية بالرياض
بتقدير (ممتاز) مع مرتبة الشرف الأولى ، ومعدل (٤,٨٤ من ٥) في العام الجامعي ١٤٢٨/١٤٢٩هـ .
والله الموفق.

مدير الجامعة
أ.د. سليمان بن عبدالله أبالخيل

رقم الوثيقة (٢٠٣٩/أ/٨/٣٢/٢) تاريخها : ١٤٢٩/٠٦/٢٦هـ

أمضيتُ سنواتٍ خمسًا في تحضير رسالة (الدكتوراه)، أكاد أقول إنني أكتب فيها ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، أيام العمل والإجازات، يستوي في ذلك رمضان والحج والأعياد. ومعنى ذلك أن وقتي كلّه أو جلّه سيفنى في هذا العمل الجليل.

ونظرًا لانشغالي إلى هذا الحدّ، فقد حرصت أن أعوض انشغالي هذا بأن أكون قريبًا من أمي - رحمها الله - قدر الإمكان، فالعمل الذي لا يتطلب مني زيارة المكتبات العامة، ولا السفر لمصلحة البحث، كنت أحرص أن أكون فيه قريبًا من أمي - رحمها الله - ولذلك فقد كنت أجمع صور المخطوط بحجمها الكبير، مع أمهات المصادر، وبصحبة جهازي المحمول الذي لازمني طوال السنوات الخمس، وأبقى بصحبة هذه الأمور كلها لأمضي أكثر ساعات بحثي بالقرب من أمي نورة - رحمها الله - حتى أحظى منها بجلسة، وأسعد منها بكلمة، وأفوز منها بدعوة، وهذا ما كان

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

يحصل- ولله الحمد - شبه يومي.

وأحيانًا كنت أضطر إلى الخلوة بالمكتبة المنزلية مع أغراض بحثي، حتى آخذ راحتي أكثر في السهر، ولأعطي الفرصة لأمي - رحمها الله - أن تحظى بالنوم المبكر، ولكني أتفاجأ بأمي -رحمها الله - تدخل عليَّ في المكتبة، ومعها كأس عصير، قائلة لي بكل حنان:» أحبّ أجلس عندك، لو ما نسولف، حتى لا أشغلك عن بحثك، أنت ابحث يا وليدي وأنا جالسة، تكفيني شوفتك»!

ولّما طال عليَّ البحث، وتوالت السنوات أشفقتْ عليَّ- رحمها الله -فكانت تقول لي بين وقت وآخر: «إلى الحين وأنت مع الكتب والكمبيوتر» ؟! ولا أزال أذكر قولها - رحمها الله - : «متى أشوفك دون هالكمبيوتر» ؟! تفاؤلاً بانتهائي من بحثي.

ومع عيشها أيام اختلاي مع مشري- حفظه الله - ووقوي معه على مفترق الطرق، كانت توصيني- رحمها الله - بالصبر، وعدم التعرض للحديث عن أحدٍ مهما أخطأ عليَّ، قائلة لي - رحمها الله -: «يمكن أنت المخطئ يا وليدي! لا تضيّع حسناتك بالكلام بالناس» ! ثم تختم توجيهها المشفق الحاني بدعوات لتخفّف عني طول المشوار، فتردد - رحمها الله -: «الله يَسْخَرْ لك العبيد العاصية، والقلوب القاسية».

وأما يوم الثلاثاء ١٤٢٩/٦/٦هـ فقد كان نهاية المطاف في مشوار (الدكتوراه) الطويل، حيث نُوقشتْ الرسالة ضحى ذلك اليوم، وبفضل الله صار إبراهيم (دكتورًا)، وفور انتهاء المناقشة قبيل الظهر، توجهت إلى أمي نورة - رحمها الله -في منزلها، قبل أن أرى أي شخص خارج قاعة المناقشة، توجهت إليها بعد أن هاتفتها في الطريق مبشِّرًا بالنتيجة، ومخبرًا إياها بنهاية المناقشة والحصول على الدرجة العلمية التي طالما عاشتْ معي - رحمها الله - تفاصيلها.

دخلتُ على أمي في غرفة الجلوس ولا أزال أذكر تلك اللحظة كأنها أمام عيني الآن، دخلت على أمي - رحمها الله - وقد اتكأتْ يدها اليسرى على المركاة، ومدّتْ رجليها النحيلتين، وأمامها القهوة والشاي، تنتظر دخولي، فلمّا رأتني قالت مبتسمةً ممازحة بلفظها : «يا هلا بالدختور» ! فرددت التحية بقولي: يا هلا بأمِّ الدختور ! ثم انكببتُ مقبِّلا رأسها، ويديها، وقدميها.

وجلستُ معها- رحمها الله - جلسة عامرة في الثناء على الله تعالى على تيسير الأمر، وذاكرًا لها حضور والدي - حفظه الله - مناقشة رسالتي، وحضور إخواني، وأبنائي، وزوج أختي (لولو) وأبنائها، وبعض الأقارب، وهكذا كنت أتحدث وأمي -رحمها الله - تتلذذ بالاستماع، وكم كان شرفي كبيرًا أن كانت أمي - رحمها الله- أول من ألامس يديها خارج القاعة بعد أن صرتُ (دختورًا)!

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٢١ - (اللاءات) الثلاث التي قالتها لي أمي رحمها الله

الشيخان محمد وحمد آل الجميح حفظهما اللّه

نَعَم هي ثلاث (لاءات) أسمعها من أمي نورة - رحمها الله - لا أكاد أسمع غيرهن من فمها - رحمها الله - وكلّ هذه (اللاءات) إنما هي لمصلحتي، وأما ما سواها فليس من طبع أمي - رحمها الله - أن تنهاني ولا غيري من أولادها - رحمها الله - عن أمورنا، أو أن تلزمنا بأشياء معينة في طريقة حياتنا، ولذلك فإنها -رحمها الله - إذا قالت (لا تفعل) في أمرٍ معين، فهو أمر يهمها كثيرًا ! وهذا ما سأعرض له في هذه الحلقة من (لاءاتها الثلاث) رحمها اللّه.

والعجيب أن هذه (اللاءات الثلاث) تقولها أمي - رحمها الله - لي متواليات في وقت واحد، وذلك عادة ما يكون إذا خرجت منها مودِّعًا بعد العِشاء.

(لاؤها الأولى) هي تلك المتضمنة الوصية بالرفق بي، والخوف عليَّ، إذ تقولها أمي - رحمها الله - لي بشكل شبه متكرر، متكرر بتكرر توديعي لها بعد جلوسي

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

اليومي معها ! تقول لي - رحمها الله - : « لا تسرعْ يا وليدي» وكأنها ترقبني بلحظها ولفظها وأنا خارج منها مساءً.

«لا تسرع يا وليدي» لفظي معك يا بُنيَّ بالدعوات أن يسلمك الله من أخطار الحوادث، وشرور السيارات، وفجاءة الطريق، «لا تسرعْ يا وليدي» حتى لو كنت مستعجلاً.

وكأنها- رحمها الله - بهذه الوصية الختامية لكل مجلس يجمعني بها تذكرني بميثاق الشرف بيننا بأن أعطيها الوعد ألا أسرع ! فهي -رحمها الله - بهذا الاطمئنان يمكن لها أن تخلد مرتاحة إلى المنام!

وأما (لاؤها الثانية) فهي ما تذكّرني - رحمها الله - به كلّ مساء أخرج منها مع الوصية السابقة بعدم السرعة، إذ تشفعها - رحمها الله -بقولها : «لا تسهرْ، رحْ لعيالك» ! تخاف عليَّ- وأنا أبو الأولاد - من السهر والجهد والإعياء، وتربط عدم السهر بالوصية بالذهاب إلى أولادي، فهل يا تُرى كانت تريد أن أسعد بهم كما سعدت هي - رحمها الله - بولدها في هذه المسامرة، أم أنها - رحمها الله - بما جُبلت عليه من طهارة القلب تودّ الخير كل الخير لغيرها، ومن أهم هؤلاء أقاربها من زوجات الأبناء وأولادهم، أم أنها - رحمها الله أرادت مني أن أقارن بين السهر وبين الجلوس مع العيال لأختار الجلوس على الخروج، والراحة على السهر.

وهنا أحمد الله تعالى أن كانت أمي - رحمها الله - ممن يعينني على القيام بحق أولادي، وليس العكس كما يعاني بعض الأزواج.

و(لا) الثالثة التي أسمعها من أمي - رحمها الله - بين وقت وآخر، هي التي تحثّني فيها على تكرار الزيارة، ولو أكثر من مرّة في اليوم، حيث كانت تقول -رحمها الله - في وداعي إذا كنت عندها ذلك اليوم عصرًا : « لا تخلينا إلى العصر الثاني»!

وكأنها تقول إذا سمح وقتك العشاء مر عليَّ ولو كنت عندي هذا العصر، أما أن أصبر عن رؤيتك إلى العصر الثاني فهو بعيد ! سبحان من جبلها على حبنا، وجعلها متعلقة بنا إلى هذا الحدّ، فهي تود أن نقوم بأعمالنا، ولكنها تستطيل الفراق ولو كان يومًا أو بعض يوم !

وهنا أذكر أن من أعذاري في ترك الجلوس معها في الوقت المعتاد أن نمضيه معًا أن أعتذر إليها - رحمها الله - بانشغالي بأحد أمور ثلاثة، حيث كانت تقدم من يرد في هذه الاعتذارات على نفسها، ولذلك فإنني لا أجد حرجًا في الاعتذار عن إكمال أية جلسة معها - رحمها الله - إذا كنت سأخرج إلى إحدى هذه الجهات الثلاث.

الجهة الأولى: أن أعتذر إليها بارتباطي مع أولادي في شراء حاجات، أو ذهاب معهم إلى مشوار أو صحبتهم في زيارة، أو نحو ذلك، فموضوع أولادي مقدَّم عندها حتى على نفسها رحمها الله.

والجهة الثانية: التي أعتذر بها إلى أمي - رحمها الله - هي قيامي بزيارة أخيها لأمها خالي (عبد الله الفضلية) - رحمه الله - يوم كان منوّمًا في المشفى مدة طويلة، حيث كانت تأذن لي بذلك، بل وتحثّني على هذه الزيارة.

وأما الجهة الثالثة: في العذر الثالث الذي أقدمه بين يدي أمي - رحمها الله- للقيام من جلستها أو عدم الحضور إليها ذلك المساء فهو اعتذاري بزيارة (آل الجميح) الشيخين محمد وحمد - حفظهما الله - في منزلهم إمّا ابتداءً مني، وإما استجابة لاتصالهم وسؤالهم عني -جزاهم الله خيرًا - على لطفهم وكريم أخلاقهم، حيث كانت أمي - رحمها الله - تبادلهم الودّ وتسأل عن حالهم، وتنقل منهم وإليهم السلام.

وأما غير هذه الأعذار فلا أحرص أن أقدمها على جلسة أمي - رحمها الله -

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ولا أن أفوّت على نفسي الجلوس معها، الجلوس مع من ابتسامتها ترافقها طوال الجلسة، ومن تودّعني كل جلسة بـ(لاءاتها الثلاث المباركات): «لا تسرعْ يا وليدي، لا تسهرْ ورحْ لعيالك، لا تخلينا إلى العصر الثاني»!

ويالله كم اشتقت الآن إلى (العصر الثاني)، وكم أحنّ إلى سماع إحدى (اللاءات) مرة أخرى من أمي نورة- رحمها الله - ولو في المنام!

وللحديث بقية إن شاء الله...

٢٢ - حُسن خُلقٍ وعِفّة لسانٍ

سبحان من أكرم أمي نورة - رحمها الله - بحُسن الخُلق؛ عشتُ مع أمي ما يقارب أربعين سنة، إذا حذفت منها الخمس الأولى التي هي مظنة عدم تذكري لتفاصيل العيش معها لصغر سني، فإن ما يقارب خمسة وثلاثين عامًا كفيلة أن تبيّن مدى ما تتمتع به أمي - رحمها الله - من حُسن الخُلق.

ذلك أن كل هذه المدة الطويلة التي عايشت فيها أمي - رحمها الله - بما فيها من مراحل عديدة في حياتها متغيّرات، وما صحبها من تنقلات بين راحة وعدمها، وسفر وحضر، واختلاط بالناس، وصحة ومرض، وحضور زوج وغيابه، وشباب وانسلاخ شباب، وحمل وإسقاط، وصيف وشتاء، وبيت ضيِّق ومنزل فسيح، وبعد أن كانت بين أبويها ثم ما أصيبت به من فقد أمها ثم فقد أبيها، ومعايشة أطفالها وهم أطفال ثم بعد كونهم شبابًا، إلى أن صاروا أزواجًا وآباءً.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

إلى آخر هذه التنقلات التي عشتها مع أمي – رحمها الله – ربما لحظة بلحظة، ويومًا بيوم. عشتها ملاصقًا لأمي – رحمها الله – أحيانًا كثيرة بصحبة باقي أولادها (لولو وغانم وعلي وصالح) وأحيانًا وحدي، وفي كل هذه الأحوال المتنوعة لم أرَ منها – رحمها الله – موقفًا نابيًا، أو تهجّما على أحد، أو إيذاءً لقريب أو بعيد، ولم أسمع منها غيبة أو نميمة، أو سبًّا أو شتمًا.

وهنا أجزم أنني عشت كل هذه السنوات مع أمي نورة – رحمها الله – ولا أذكر أنها يومًا من الأيام أوغلت صدر أحد (أولادها الخمسة) على أبينا، مهما كان بينها وبينه من اختلاف وجهات نظر، بل على العكس تماما فقد كانت في لحظات الاختلاف الطبيعي الذي يقع بينها وبين والدي – حفظه الله – كما يقع بين الأزواج عامة، كانت تحثنا على برّه وبذل المزيد من احترامه، والجلوس معه، والأنس بحديثه إلى آخره من وجوه البرّ.

كما أذكر متأكدًا أنها – رحمها الله – لم تربِّنا على الشحناء أو الحقد، ولم توغل صدورنا يومًا مّا على إحدى زوجات والدي (ضراتها) – حفظه الله وحفظ الموجودات منهن ورحم المتوفاة – كما أنها منذ كنا صغارًا إلى أن صرنا آباءً لم تغذِ في قلوبنا كره إخواننا غير الأشقاء ولا أخواتنا غير الشقيقات، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي جعلت غير الأشقاء من إخواني وأخواتي يودُّونها ويحبونها، ويأنسون بالجلوس إليها، ويكررون الزيارة إليها بين وقت وآخر، ويبكونها بعد فراقها بكاء صادقًا لم يتوقف طوال سنوات الفراق!

ولعل هذا الخُلق الحسن الذي حبا الله – تعالى – به أمي نورة – رحمها الله– هو الذي جعلها ملاذًا لكل ذي شكوى من الأقارب، وقد جرت العادة في كثير من العوائل أن تكون (أم الزوج) هي موضوع الشكوى، وهي مثار النقاش بين الابن وزوجته، لكن الوضع مع أمي نورة – رحمها الله – كان مختلفًا! فإن زوجات أبنائها

يجدن فيها الحضن الدافئ والمكان الآمن؛ لبث الشكوى، والفضفضة إليها مما تعاني منه الزوجة! فمن حُسن خلقها - رحمها الله - أن تشتكي زوجة أحدنا زوجها إلى أمه، وتطلب من الأم أن تقف في صفها مناصرة لها ضد زوجها الذي هو ابن هذه الأم الرائعة بحسن أخلاقها. وهذا ما جعل بعض زوجات الأبناء بعد وفاة أمي - رحمها الله - تشعر بفقدها إذا بدت بادرة خلاف بينها وبين زوجها، فتقول: «لو كانت خالتي موجودة ما رضيت بتصرفاتك»!

ومن روائع الخُلق الحسن لأمي - رحمها الله - أنني لا أنا ولا غيري من أولادها لم نتلقَ منها - رحمها الله - منذ كنا أطفالاً كلمة من تلك الكلمات النابية الرائجة في المجتمع من معجم السب القذر المليء بالألفاظ التي تنبو عن الذوق، وتمجها الأسماع، ومع سماعنا لتلك الألفاظ في المدرسة والشارع وربما في البيت، ولكننا أبدًا لم نسمعها من فم أمي - رحمها الله - يومًا من الدهر لا جادة ولا مازحة.

ومما أذكره هنا في معرض حُسن خُلق أمي نورة - رحمها الله - أنني طوال عمري الذي صحبتها فيه لم أسمعها (تلعن) في يوم من الأيام، ولا طفلاً ولا خادمًا، ولا جمادًا؛ بمعنى أنني لم أسمع (اللعن) على لسانها ألبتة!

ومن الطريف في هذا السياق أنها ربما جاءها أحد الأقارب ممن يجري (اللعن) على لسانه كثيرًا - عفا الله عنه - فيتحدث مع أمي حول موضوع مّا من مواضيع الحياة، وهو عادة لا بد أن (يلعن) في سياق حديثه! فتأتي أمي - رحمها الله - بعد خروجه ونجلس إليها ونحادثها، ومن عادتها - رحمها الله - أن تخبرنا بمن زارها، ومن اتصل بها، وما الذي جرى في مجلسها من أحاديث، فكانت إذا ذكرت قريبنا هذا - حفظه الله وعفا عنه - تذكر قصصه وأخباره لما في تلك القصص عادة من الإيناس، فإذا وصلت إلى الكلام الذي فيه (اللعن) فإنها - رحمها الله - لا تنقل (اللعن) بحروفه؛ بل تقول: «يشتم فلانا أو فلانة» وهكذا فمن طبعها- رحمها

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الله -ألا تلعن ولا تروي اللعن بلفظه، وإنما تهذِّبه بتحويله من لفظ (اللعن) إلى اللفظ الآخر؛ لعدم جرأتها - رحمها الله - على نطق (اللعن) ولو على سبيل النقل والرواية.

ولذلك فإنني طوال المدة التي عايشت فيها أمي - رحمها الله - أو في السنوات التي أعقبت وفاتها - رحمها الله -فإنني أذكر بتصرفاتها قول الرسول الكريم- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الحديث الصحيح: « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ».

كما إنني أرجو لأمي - رحمها الله - أجر الاقتداء بالحبيب العفيف الطاهر محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي يحدثنا عنه أحد الصحابة الذي كان من أشدّ الناس لصوقًا به وهو خادمه أنس - رضي الله عنه - إذ يقول في الأثر الصحيح: «لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاحشًا ولا لعانًا ولا سبابًا».

لا حرم الله بفضله أمي نورة - رحمها الله - أجر الصائم القائم يوم القيامة، وجزاها على حسن خلقها وعفة لسانها، خير ما جزى عباده المؤمنين.

وللحديث بقية إن شاء الله...

٢٣ - (مهندِسة التغيير أمي نورة) رحمها الله

أمي نورة - رحمها الله - هي سيّدة البيت كلِّه، فلها في كل غرفة منه بصمة، ولها في فنائه ومجالسه، وقسمي الرجال والنساء، لمساتها الخاصة، ولها في دوريه الأرضي والعلوي والسطح آثار وترتيبات.

إلا أن لـ(غرفة أمي) - رحمها الله- حديثًا خاصا ! حديث يمتد مع نورة العروس، فنورة الأم، ثم نورة الجدّة، إلى نورة المغادرة تلك الغرفة إلى غير رجعة لها !

سبق وأشرت في أحاديث سابقة في مواضع متفرقة إلى (غرفة أمي) نورة -رحمها الله - إلا أن الحديث في هذه الجلسة سينصبُّ على أمرٍ جُبلت عليه أمي نورة - رحمها الله - جِبلَّة، وطُبعت عليه طبعًا، وهو حب التغيير، التغيير في الملابس، التغيير في الأثاث، التغيير في الأواني، التغيير في أماكن الجلسات، التغيير في طريقة الطعام، التغيير الرائع في هذه الحياة، التغيير الطارد للممل، المزيل للسآمة، المنافي للرتابة.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

أخبرتني شقيقتي الغالية (لولو) - حفظها الله - أن طبيعة التغيير أمر ورثته أمي نورة - رحمها الله - عن أهلها فأبوها وأخواها - رحم الله الأموات وبارك في عمر الحي - كانوا مغرمين في التغيير، ولو في الشكل الخارجي للجلسات، والمناقلة بين الكراسي، بوضع الكرسي الكبير اليوم في غير الجهة التي كان عليها أمس، وغير المكان الذي سيكون عليه الأسبوع القادم، وهكذا تستمر الحركة الدائمة الدؤوب حتى في هذه التنقلات اليسيرة.

ولذلك فلا أكاد أحصي عدد غرف النوم التي رأيتها لأمي طوال سعادتي ببقائها في حياتنا ! وكأنها -رحمها الله- جمعت بين حب التغيير والصدقة، فغرفتها الجديدة اليوم لا تكاد تبقى عندها إلا وتذهب لغيرها ممن يفرح بها من جيران أو معارف أو محتاجين، وهي غرفة بطبيعة الحال في وضعٍ أقل ما يقال فيه إنها شبه جديدة!

ومن الطريف في أمر التغيير لدى أمي نورة -رحمها الله - أنها في آخر غرفة لها في حياتها صعُب عليها ما كانت معتادة عليه من قبل من جعل السرير مكان خزانة الملابس، وجعل التسريحة تحت النافذة حينا، ومقابلها أحيانا أخرى، وتغيير مكان طاولة الهاتف، صعُب عليها ذلك لأن غرفتها الأخيرة كانت كبيرة جدًا، حتى تكاد تملأ الجدران طولا وعرضًا، أي أن تحريكها من قِبل أمي -رحمها الله- نفسها بمساعدة الخادمات وأهل البيت مستحيل، وتحريكها عن طريق العمال صعب للغاية، فقرأتُ ذلك في نفس أمي- رحمها الله - ورأيت تصارع راحتها بهذه الغرفة(الفخمة) من جهة، وعدم قدرتها على التغيير الذي اعتادت عليه طوال حياتها من جهة أخرى ! فاتفقت معها - رحمها الله - على الإتيان بعمال نجارة متخصصين من (الصناعية) ليقوموا بتركيب إطارات(عَجَلات) قوية تتحمل ضخامة الخزانة والسرير وخلفيته، وهذا ما حصل فعلا ! فقد تمَّ من جرَّاء هذا

العمل أن أصبحت أمي - رحمها الله - تشرف على خادمة واحدة وهي تحرّك الخزانة الكبيرة كأنها تحرك عربية طفل في المهد ! ولا تسل ساعتها عن السرور الذي دخل قلب أمي -رحمها الله- من هذا العمل ! سرور لا زلت أتذوق طعمه اليوم كأنني أعيشه يوم كنت جالسًا مع عمال (الصناعية) ذلك اليوم !

التغيير الذي جُبلت عليه أمي نورة -رحمها الله- يجعلنا كلما جالسناها مساءً في فناء بيتها أحسسنا بمذاق خاص لتلك الجلسة، فليلة تكون الجلسة على الجدار الشرقي، وليلة على السور الجنوبي، وأخرى تكون على (الدكة) المطلة، وهكذا يشعر الزائر لها بمزيد الحفاوة حتى في المجلس المعدّ له،مع ما يصحب ذلك من أوانٍ نظيفة، ومشروبات متنوعة، ونفسٍ طيبة مرحِّبة بالكبير، مؤانسة للطفل الصغير، الكل عندها -رحمها الله- ضيوف أعزاء وأهل بيت مرتاحون في الجلوس، لا يمضون الوقت معها تكلّفًا !

حب أمي نورة - رحمها الله - التغيير والتجديد وطرد الرتابة، جعلنا نحن أولادها والضيوف المحبين الجلوس معها، جعلنا جميعًا نستمتع بألوان الطعام، وأصناف الموائد، فوجبة اليوم غير وجبة الغد، وغداء نهاية الأسبوع يختلف عن وسطه، وقهوة العصر ذات نكهة غير قهوة المغرب، وما يصاحب ذلك شكلاً ومضمونًا !

أمورٌ وتفاصيلُ صغيرةٌ ربما لم نكن نستشعرها حال وجودها! لكننا - دون شك- افتقدناها بتفاصيلها افتقدناها يوم فقدنا (مهندسة التغيير) أمي نورة رحمها الله رحمة واسعة.

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٢٤- أمي نورة - رحمها الله - حبيبة الأطفال

أطفالي: مساعد وَعَبَد الله ونورة وبندر بين يدي أمي رحمها الله

للأطفال في حياة أمي نورة – رحمها الله – صولات وجولات، وأحاديث وذكريات، فمنذ أن كنا أطفالا، إلى أن صرنا آباءً لأطفال ونحن نرى تعامل أمي – رحمها الله – مع الأطفال لم يتغير، فهو التعامل الذي يقطر حنانًا ورقّة، ويتدفق مشاعر دافئة، تخاطب الأطفال بأرق العبارات، وألين الألفاظ !

نشيدها في ملاعبتي منذ كنتُ صغيرًا :(برهومْ برهومْ، شيخ العجَمْ والرومْ) ! كلمات تحمل التشجيع مع التلعيب، طفلها شيخٌ، هكذا تزرع في نفسي !

خصوصيتها في (تبريد الحليب) قبيل خروجنا للمدرسة أمر مشهور فيما أسميته (كأس الرحمة) – ذكرته بالتفصيل في حلقة سابقة بعنوان يوم دراسي مع أمي –رحمها الله – عمل امتدَّ لشمل أحفادها بعد أولادها رحمها الله.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

للأطفال مع أمي – رحمها الله – ميعاد مالي متكرر سنويا مرتين حيث (العيديات) المتميزة التي تسعدهم – رحمها الله –بها، عيديات بمبالغ مالية ربما لا تقع في أيدي الأطفال إلا من يدها – رحمها الله – إذ إنها أضعاف أضعاف ما يحظون به في العيد من غيرها، ولذلك فـ(عيدية أمي نورة) باتت مصطلحًا مهما أطلقه المستفيدون منها أطفالنا في العيد.

كما أن للأطفال مع أمي – رحمها الله – موعدًا ماليا متكررًا بتكرر زيارتهم لها يوميًا أو أسبوعيّا، أو أقل من ذلك، موعد رباعي (الأطفال / أمي نورة / الريالات / البقالة المجاورة) !

والأطفال في حياة أمي نورة – رحمها الله – هم الضيوف المُقدَّمون على غيرهم في العناية والاهتمام ! أطفالها الزائرون أيا كانوا، أحفادها أو غيرهم، ولذلك اشتهرت مقولتها المتكررة كلما جاءها إخوتي الصغار (أبناء ضرتها)، الذين اعتادوا صحبة أمهم في زيارتها أمي – رحمها الله – على نحو شبه يومي ! اشتهرت مقولتها المسائية: «حطُّوا العشاء قبل ينام الصغار» !

امتدّت عناية أمي نورة – رحمها الله – بالأطفال لتشمل الأطفال الأعاجم ممن لا يعرفونها ولا تعرفهم ! وذلك ما حدث في موسم حج عام ١٤٢٠هـ تقريبًا، عندما عزم (خالد، ورشيد) العاملان الباكستانيان على الحج مع زوجتيهما، وكانت صحبة أطفالهما ستشق عليهما، فلم يجدا ملاذًا أفضل من بيت أمي نورة – رحمها الله – الذي كان لهؤلاء الأطفال منزلا آمنًا، ومكانا مريحًا حتى عودة أهلهم من السفر ! أطفال العمال ضيوف على أمي رحمها الله.

هذه العناية الفائقة من أمي نورة – رحمها الله – بالأطفال، جعلهم يتسابقون إلى زيارتها، ويتنافسون في المبيت عندها؛ لينعموا بإكرامها ليلا، وحفاوتها صباحًا،

والتنعم بجلستها ضحى، والأنس بأحاديثها؛ لأنها -رحمها الله- تعامل الطفل الصغير كالرجل الكبير حفاوة وتقديرًا.

تعلق الأطفال بأمي نورة - رحمها الله - جعلهم يعبِّرون عن مشاعرهم الصادقة البريئة بعد فقدها - رحمها الله - ومن ذلك أننا بعد وفاتها بأيام قليلة هطلت أمطار غزيرة على الرياض، فخرجت إلى فناء بيتي لأدعو ربي، وكان معي طفلي مساعد (في السابعة من عمره) - أصلحه الله - فقلت له : في وقت المطر الدعاء مستجاب، فقال لي :أيّ دعوة أدعو بها تُستجاب ؟! قلت: نعم إن شاء الله. ففاجأني بقوله : سأدعو الله أن يُرجع لنا أمي نورة !

ومن تعلق الأطفال بأمي نورة - رحمها الله - أن كتبوا قصائد على مستواهم في رثائها - رحمها الله - ومن ذلك قصيدتان لمساعد أصلحه الله:

الرثاء الأول لابني الشاعر الطفل مساعد بن إبراهيم السماعيل المولود في ٤/٢٢ /١٤٢٣هـ

لأمي نورة - رحمها الله تعالى - المتوفاة في ٣/٣ /١٤٣٠هـ

القصيدة الأولى:

جدتي العزيزة

لماذا لا تأتينَ إلينا ؟

لقد طوّلتِ علينا !

بقيتُ معاكِ

سنينًا كثيرة .

لماذا ما شفت (خالدْ)

الأم الصديقة (رحمها الله تعالى)

القصيدة الثانية:

جدتي العزيزة

لماذا بقيتِ في المستشفى ؟

أحتريكِ تطلعين

من المستشفى !

لتجي بيتنا وبيتك .

والرثاء الثاني كان للشاعر الطفل سلمان سبط أمي- رحمها الله وأصلحه- ابن الغالية (لولو):

رثاء الشاعر سلمان بن علي المسند المولود في ١٠/٧ / ١٤٢٣هـ

لأمي نورة - رحمها الله تعالى -المتوفاة في ٣/٣ /١٤٣٠هـ

القصيدة :

ماما نورة الحبيبة

اشتقتلك كثيرًا

لماذا لا تأتين لي ؟

بكينا عليك كثيرًا !!

الله يرحمك يا أمي الحبيبة

أود أن ترجعي لنا مثل الأيام السابقة

كنت آتيك كل يوم

لدي حصاة من قبرك جميلة جدًا

أود الآن أن أتذوق جريشك اللذيذ

وكان وجهك قبل أن تتوفين كان جميلا

والرثاء الثالث كان لحفيد أمي نورة - رحمها الله - ابني عبدالله - أصلحه الله- في قصيدة كتبها بعد وفاتها - رحمها الله - بثلاث سنوات وثلاثة أشهر !

القصيدة :

كل يوم كنت أذهب إليك

ونجلس في الدكة

أين ذهبت ؟ أين ذهبت ؟

فأين ذهبت ؟

فأحبك في قلبي

كنت دائمًا تعطيني المال للشراء من البقالة !

والرثاء الرابع: عبارة قصيرة صادقة، تسميها قائلتها: قصيدة! ذلك أنني استيقظت صباحًا بعد وفاة أمي نورة - رحمها الله - بثلاث سنوات ففاجأتني طفلتي نورة (٢ ابتدائي) -أصلحها الله- بقولها : بابا عندي قصيدة ! قلت : قوليها، فقالت:

الحمد لله إني مسلمة !

حتى أشوف أمي نورة في الجنة !

هذه مراثي الأطفال في (حبيبة الأطفال) أثبتها دون تدخل مني بوزن ولا صياغة!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

لأن إبداعهم يجب أن يُثبت دون تعديل ! ولأن براءة الصغار لا يجوز أن تُخدش بتدخلات الكبار !

رحم الله أمي نورة (حبيبة الأطفال) التي كانت دائمًا ما تردِّد في مسامعنا نحن الآباء : «ضربُ الأطفالْ يُحبط الأعمالْ «.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

٢٥- قَدرُ أمي نورة - رحمها الله- عند والدي حفظه الله

مع والدي حفظه الله على قبر أمي رحمها الله

عاشت أمي نورة -رحمها الله- مع والدي عبد الله -حفظه الله- حياة مديدة لم يفرِّق بينهما إلا الموت! وشاركته كنيته (أم غانم / أبو غانم).

امتدت تلك الحياة وملؤها الاحترام المتبادل، والتقدير المشترك، والحب الراقي، الحب الذي تعرف فيه الزوجة حقوق زوجها كاملة فلا تخل بها، وتعرف خاطره فتتصيّده، وتعرف ما يحب فتأتيه، وما يكره فتجتنبه.

لا أزعم أن حياة أمي -رحمها الله- مع والدي -حفظه الله- لم يشبها خلاف! أو لم تتعرض في وجهات النظر لاختلاف! لكنني أجزم من معايشتي حياتهما أنهما من أكثر الأزواج تفاهمًا، وأكثر البيوت اطمئنانًا.

وهنا سأقتصر على ذِكر خمسة مواقف تبيِّن قَدْر أمي -رحمها الله- عند أكثر

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الناس خُلطة بها والدي -حفظه الله-ثلاثة من تلك المواقف بعد وفاتها واثنان في حياتها -رحمها الله- والأول منهما أنه عندما أجرى والدي -رعاه الله- عملية في عينه عام ١٤٢٦هـ، ولازم المشفى أيامًا، وحان وقت خروجه ليمضي بقية وقت الراحة في أحد بيوته، على ألا يتنقل بينها مدة الاستجمام، فتنافس أولاد والدي من بنين وبنات، كل يريد أن يحظى بشرف مُكث والدي في بيت والدته! ويحق لنا جميعًا هذا التنافس، وأذكر ساعتها - وكنت بحمد الله مرافقًا له طوال مكثه في المشفى- أذكر أنه قُبيل خروجه أجاب إخوتي المتنافسين في استقباله بعد خروجه بقوله -حفظه الله- : «سريري جاهز في بيت أم غانم» يعني أمي نورة -رحمها الله تعالى-وعندها قطع كل محاولات الضيافة، وأغلق باب التنافس المحمود بقراره الخاص المحبب إليه، ولما انفرد بي قال لي-حفظه الله-: «أرتاح لحفاوة أمك، الله يجزاها كل خير»!

وكان هذا ما لقيه فعلا من إعداد مكان استجمامه، ومن رحابة الصدر في استقبال ضيوفه وزواره، من زوجاته وأولاده البنين والبنات، والضيوف من داخل الرياض وخارجها، الكلّ يزور فيجد بيت أمي نورة -رحمها الله- مفتوحًا مضيافًا يبيِّض وجه صاحبه الذي أحسن الاختيار ببقائه عند زوجته نورة التي قامت بواجب زوجها وضيوفه.

وأما الموقف الثاني:فهو أن والدي -حفظه الله- أوقف الاجتماع الشهري لأولاده وأحفاده(الدورية العائلية)، وأوقف -أيضًا- أية مناسبة عائلية لنا، قائلا -حفظه الله-: « ما فيه اجتماعات قبل تطلع أم غانم من المستشفى»! شكر الله لرجل الوفاء وفاءه، ورحم الله المرأة التي استحقت هذه المنزلة!

وكان الموقف الثالث: في أول أيام العزاء في أمي نورة -رحمها الله-عندما دخل أبي بعد المغرب على قسم النساء ليعزِّي (لولو)، ويتلقى العزاء ممن حضر من

القريبات، فقالت إحدى قريباتنا: « يا بو غانم سامح عمتي نورة وحلِّلها الله يجزاك خير»، فالتفت إليها بعين دامعة، وقال : «إيش أحلِّلها منه؟ كيف أسامحها ؟! وأنا والله ما حرجتُ عليها في حياتي أبدًا»! يا لَه من موقفٍ ما أبلَغَه ! رغم قِصَرِ عباراته إلا أنه اختزل حياة تزيد على أربعة عقود ! «ما حرجتُ عليها في حياتي أبدًا».

كيف يحرج على من كانت تراعي ظروفه حلوها ومرّها؟ كيف يحرج على من كانت مكرمة أمه - رحمها الله - غاية الإكرام؟ كيف يحرج على من كانت تقدِّر أخواته كل التقدير؟ كيف يحرج على من كانت تعامل زوجاته الأخريات معاملة الأخوات؟ كيف يحرج على من كانت تحرص ألا تقع عين زوجها على ما لا يحب؟ كيف يحرج على من راعت انشغاله الدائم في مشاغل الدنيا فاعتنت بتربية خمسة من أولاده (بنت وبنين) أكمل عناية؟ كيف يحرج على من كانت تقوم بضيافاته في بيتها (في يومها أو يوم إحدى جاراتها) حين لم تكن الناس تعرف الطباخين، ولا أكل المطاعم؟ كيف يحرج على من لم تردّ عليه كلمة؟ ولم تخالف له قرارًا طوال حياتها؟

والموقف الرابع:قد جرت أحداثه بعد ثلاثة أعوام من وفاة أمي نورة - رحمها الله - عندما كنت عائدًا مع والدي -حفظه الله- من المسجد في يوم من أيام الشوق للماضي الجميل! فتذاكرنا الغداء الشعبي، وأصنافه، ونكهاته، فتنهَّد-حفظه الله- وقال وهو يفتح باب بيته داخلاً: «يا وليدي ما فيه حريم! راح الجريش والقرصان مع أمي وأمك»! وهنا لن أفسد نصّ والدي بتعليقي عليه ! « راح الجريش والقرصان مع أمي وأمك»!

وأما خامس المواقف : فكان في زيارة والدي -حفظه الله- قبر أمي نورة - رحمها الله- ثاني أيام عيد الأضحى المبارك من عام ١٤٣٤هـ، وقد مضى على وفاتها -رحمها الله- أربعة أعوام وتسعة أشهر، عندما خالطت عبراتُ والدي

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

عباراتِه وهو يسير إلى القبر قائلا: «لأمِّك عليَّ حقّ»! سبحان الله! ما أقصر العبارة وما أقوى الدلالة! يا والدي الكريم، ما هذا الحق الذي لأمي -رحمها الله- عليك؟ ما هذا الحق الذي تذكره بعد ما يقارب الخمسة الأعوام على وفاتها؟ ما هذا الحق الذي آثرتَ ذِكره مجملا دون تفصيل؟ ما هذا الحق الذي ذكرتْك به خطواتُك إلى قبر صاحبة الحق رحمها الله؟

الحمد لله أن جعلني ابنا لهذين العظيمين؛ ابنًا لصاحبة حق على أعظم الناس حقا عليها، وابنًا لرجل الوفاء الذي لم ينسَ من قامت بحقه طوال حياتها معه رحمها الله! وللحديث بقية ...

٢٦ - إبراهيم تعال بسرعة

فضيلة الشيخ عبد الله التويجري حفظه الله

التأريخ : أواخر رجب ١٤٢٦هـ.

الوقت: ضحى الخميس.

اتصل بي أخي (صالح) -حفظه الله- الذي كان يسكن مع أمي نورة - رحمها الله - في بيتها مرتبكًا مذعورا، وقال : « إبراهيم تعال بسرعة ! أمي ما أدري إيش فيها!».

لم تمضِ خمس دقائق إلا وأنا عندها بحكم قرب بيتي من بيتها -رحمها الله-

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ولما دخلت عليها في غرفة الجلوس في الأسفل وجدتها - رحمها الله - جالسة يسندها أخي صالح، والخادمة بجوارها تقول: في الصباح مالت ماما نورة على اليمين، ما تقدر تجلس !

خاطبتُ أمي - رحمها الله - ولم ترد عليَّ ! تنظر إلينا دون أن تملك القدرة على الحديث! طلبتُ من صالح أن يتركها دون أن يسندها؛لأرى مدى قدرتها على الجلوس، فمال جسمها إلى اليمين مباشرة، هنا ذُهلتُ من الموقف، إضافة إلى ما رأيتُ من ارتباك أخي صالح، وأُسقط الأمر في أيدينا، فألهمني الله -سبحانه - الاتصال بزميلنا العزيز الطبيب الأخ د. صالح بن فهد الظاهري-حفظه الله- ولما سمع وصف الحالة، قال: اشتباه جلطة، والحمد لله أنكم انتبهتم للأمر في بدايته، والحمد لله على كونها من جهة اليمين، وليست من اليسار حيث قُرب القلب. قلت: ما العمل الآن يا دكتور؟ قال: توجهوا بها مباشرة إلى مدينة الملك فهد الطبية. وبالفعل هذا ما حصل إذْ سارعتُ بإدخال سيارتي داخل البيت وتساعدنا صالح وأنا على إركاب أمي -رحمها الله- السيارة، فأجلسناها في المقعد الأمامي، أقود السيارة، وصالح في المركب الخلفي مادّا يديه للأمام بمثابة الحزام لأمي - رحمها الله -وهكذا كنا طوال الطريق إلى المشفى الذين بادروا بتنويمها حال وصولنا.

وعندما أنهينا ما يجب علينا إنهاؤه من الإجراءات اتصلنا بشقيقتنا الغالية (لولو) وبشقيقنا (علي) لنخبرهما عن الوضع، وأوصلنا الخبر إلى مكتب شقيقي (غانم) لإخباره.

ومنذ تأريخ هذا الدخول إلى خروج أمي - رحمها الله - من المشفى كانت المدة قد بلغت أسبوعين، تخللهما مرافقة (لولو) لها، وزياراتنا اليومية، لا نَخرج من زيارتها إلا أن نُخرج من قِبل المشفى نفسه.

كما شمل هذان الأسبوعان الرقية الشرعية التي يسَّرها الله -تعالى-بما أكرمنا به شيخي الفاضل المربِّي الشيخ/ عبد الله بن عبد الرحمن التويجري -حفظه الله- صديق العائلة، صديق والدي، صديق والدتي، الشيخ الذي طالما كان يشرفنا في مناسباتنا الاجتماعية من ولائم أفراح وعقيقة مولود، ونحوها، فلما علم بما حلَّ بأمي - رحمها الله - لم يتردد ألبتة في الذهاب للمشفى لقراءة القرآن على أمي - رحمها الله - بل إنه كان يأتي في اليوم مرتين! إحداهما: في الفجر حيث كنت أصلي معه الفجر يوميا في مسجده، فما أن ينتهي من إمامة المصلين، إلا وآخذ بيده ليركب سيارتي، فندخل المشفى ما بين الفجر وشروق الشمس في هدأة وسكون، وقلة حركة في الشوارع والطرقات وفي ممرات المشفى، حتى إن موظفي المشفى اعتادوا على (الزيارة الفجرية)، على هيئة الشيخ المهيبة بقامته الطويلة، ولحيته البيضاء المنيرة، ووجهه المشع إيمانًا، وبصيرته التي عوضه الله - تعالى - بها عن فقد بصره، يأتي الشيخ للقراءة كل فجر، وأنا أستمع إلى القراءة، وأرقب وجه أمي -رحمها الله- وأحيانا أشارك الشيخ في القراءة بطلب منه جزاه الله خيرًا.

في هدأة الفجر، وتنفّس الصباح، وبرَكَة البكور، في غرفة المشفى: أمّي - رحمها الله - والشيخ عبد الله التويجري -حفظه الله- وأنا! كلّ فجرمدة أسبوعين كاملين، الله أعلم كم ذرفت حينها من الدموع آخذًا راحتي في ذلك حيث لا يراني في الغرفة أحد!

وأما زيارة الشيخ اليومية الأخرى فكانت بعد صلاة العشاء حيث أصلي معه، وننطلق للمشفى، دون ملل منه ولا كلل، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

ونظرًا لأن الزيارة المسائية تتزامن مع وقت الزيارة المعتاد، حيث تكثر مرافقات المريضات الأخريات وزوارهن، في غرفة أمي - رحمها الله - أو في الغرف الأخرى، فإن ذوي المريضات يطلبون من الشيخ أن يقرأ على مرضاهم، وهذا ما كان يفعله

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الشيخ مشكورًا مأجورًا -إن شاء الله- ولعل هذا من بركات أمي -رحمها الله- على من يجاورها، ومن نفعها للآخرين حتى ولو لم تشعر بذلك، فحضور الشيخ لها -رحمها الله- تسبب في زيارته مرضى آخرين، وقراءته عليهم، فسبحان الله! هل امتدَّ جودُ أمي -رحمها الله- وعطاؤها ونفعُها الذي اعتادته في حال صحتها إلى الآخرين واستمر حتى في حال مرضها ؟!

وخلال هذين الأسبوعين زادت معرفتنا بمحبة الناس لأمي - رحمها الله - من خلال كثرة الزوار، والزائرات الذين كانت تمتلئ بهم الغرفة وممرات المشفى، كل يريد السلام والاطمئنان.

وبعد أسبوعي زمانٍ خرجت أمي نورة - رحمها الله - لتنير بيتها من جديد، ولتملأ الفراغ الذي نشأ في البيت طوال الأسبوعين الذينِ قضتهما في المشفى، عادت أمي - رحمها الله - إلى بيتها وقد زالت عنها - بحمد الله - الجلطة وآثارها، ولم يبقَ لها إلا مراجعات اعتيادية للعيادة أسبوعيا، وأحيانًا تكون المراجعات ما بين أسبوعين إلى ثلاثة.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى...

٢٧ - أمي نورة- رحمها الله - ومراجعة العيادات

استمرت مراجعات أمي نورة -رحمها الله-عيادات القلب والباطنية في مدينة الملك فهد الطبية، وكثيرًا ما تكون هذه المراجعات أيام الأربعاء من كل أسبوع، وربما كانت أيام السبت أحيانًا، وقد تكون كل أسبوعين، أو أكثر بقليل، حتى ملّتْ -رحمها الله- من كثرة المراجعات، ومن أحمال الأدوية المتنوعة، ومن الانتظار قبل الدخول على العيادة، ومن الانتظار على شباك الصيدلية، حتى إن موعد المراجعة يستغرق ذلك اليوم من الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر! مع ما يسبقه ليلة البارحة من التأهب للذهاب، واستثقال رؤية المشفى وما فيه!

كان لي - بفضل الله - شرف صحبتها لأغلب هذه المراجعات، ولذا فإني أحتفظ في هذه المراجعات الدورية مع أمي - رحمها الله - بذكريات وأية ذكريات! فقد كنا نتحدث في السيارة ذهابًا وإيابًا، في كل موضوع يخطر في البال، حتى إذا شارفنا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

على الوصول إلى مدينة الملك فهد الطبية، وأردتُ الدخول من المسار الرئيس بعد جِسر الخليج إلى طريق الخدمة، تقول أمي -رحمها الله- « قرّبنا للمستشفى، أعرف من هالخطوط الصفر !» تعني -رحمها الله- الخطوط التي على الرصيف الفاصل بين الطريق الرئيس وطريق الخدمة! وعندها تشرع بالدعاء بالإعانة، وأن الله يهوِّن عليها، ويعجِّل برجعتنا!

ومن الذكريات في تلك المراجعات أنني كنت أطلب من أمي -رحمها الله- انتظاري مع خادمتها عند باب المشفى، لأذهب إلى داخل العيادة فآخذ لها (الكرسي المتحرك) بعد أن أضع عندهم إثباتي، ليتثبتوا من إعادة الكرسي بعد في نهاية المراجعة. ولما كان هذا الإجراء يباعدني قليلاً عن أمي -رحمها الله- اهتدينا إلى شراء (كرسي متحرك) خاص بأمي -رحمها الله- حتى لا أضطرها إلى انتظاري في وقت استلام كرسي العيادات، وإرجاعه، وبذلك غدا هذا الكرسي صديقًا لنا يلازمنا في مراجعاتنا، وهو الكرسي الذي كانت أمي -رحمها الله- تباعد ظهرها عنه حتى تخفِّف عني دفعه! وكم كنت أرفض أن تقوم الخادمة بشرف خدمة أمي -رحمها الله- في الكرسي؛ لأحظى بذلك الشرف الذي لم أتنازل به لخادمة أمي إلا في الأماكن التي لا أتمكن من دخولها كانتظار النساء، ونحو ذلك، ولي في هذا الكرسي مقال خاص في وداعه!

ومن ذكريات هذه المراجعات ما كانت أمي -رحمها الله- تُتحف به العاملين في المشفى من الممرضين، والممرضات، والخدم، بصدقاتها المعتادة، التي تخرجها من حقيبتها اليدوية الصغيرة، وكأنها على موعد لإدخال السرورعلى هذه الفئة، وفي إحدى الزيارات نسيت أمي -رحمها الله- الحقيبة في المنزل، فرأت أهل هذه الهدايا والصدقات، فطلبت مني - رحمها الله - أن أعطيهم نيابة عنها، « يا وليدي عطني خلّني أفرح هالمساكين».

ومن ذكريات هذه الزيارات العالقة في ذهني انتظارنا الذي يطول أحيانًا كثيرة عند نافذة الصيدلية الداخلية للمشفى، مما يجعلني أتجاذب وإياها أطراف الحديث، فنورد القصة تلو القصة، والحديث عقِب الحديث؛ لأسلي أمي - رحمها الله - وأخفِّف عنها طول الانتظار الذي يزيد من ثقله كونه بعد انتظارات متعددة في العيادة وتوابعها من تحليل وأشعة ونحوهما، وربما عمدتُ أحيانًا إلى الحيلة بأن أخبر أمي - رحمها الله - أن الدواء لن يُصرف الآن! فأرجعها إلى البيت لترتاح في قيلولتها، وأعود وحدي لانتظار الصيدلية، دون أن أشق عليها رحمها الله!

ومن ذكريات هذه الزيارات أننا في إحدى الزيارات التي لم تنتهِ إلا بعد العصر، خرجنا من مدينة الملك فهد الطبية عصرًا (مسيّان) فقالت - رحمها الله - ودي أسلِّم على (عبدالله) تعني أخاها من أمها خالي (عبدالله الفضلية) الذي كان منوَّمًا في مستشفى الملك فيصل التخصصي، تقول لي: «مستحية من ربي، من زمان ما زرته»! علمًا أنه ربما كان - رحمه الله -لا يعرف زوّاره ! فتوجهنا بعد عناء مراجعتها للعيادة، وقضاء الظهر كاملا في الانتظارات، توجهنا إلى حيث خالي عبد الله، فدخلت وسلمت، وهي على كرسيها، وهو على سريره، ولا أعلم هل شعر بزيارتها تلك ؟ أم لا ؟ أم يا تُرى هل كان كل منهما يعلم أنها الزيارة الأخيرة بينهما في هذه الدنيا ؟ دقائق قضتها أمي عند أخيها - رحمهما الله- إنها حاجة في نفس نورة قضتها!

تعبّرتْ-رحمها الله- وكتمتْ عني دمعتها، وودَّعتْه، وخرجتْ! خرجتْ منه ولم تعُدْ.

ولذلك لما توفي خالي عبد الله -رحمه الله- يوم ١٤٢٨/١٠/٢٧هـ لم نخبر أمي - رحمها الله - بوفاته؛ رأفة بها! وإن كانت شعرت بأمرٍ مّا أيام العزاء، لتغيبنا عن ملازمتها -رحمها الله- في بيتها؛ بسبب مكثنا في بيت خالي -رحمه الله- للعزاء،

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

إلا أننا -نحن أولاد أمي- كنا نسدد ونقارب، وذلك أننا كنا لا نذهب للعزاء إلا بعد المغرب، ونحرص أن يكون بعضنا حاضرًا معها، وهكذا مضى على وفاته - رحمه الله -أشهر ولم تعلم بذلك، لا منَّا نحن أولادها، ولا من شقيقها (خالي صالح) حفظه الله.

حتى إن (نوفًا) ابنة خالي عبد الله -رحمه الله- (وكانت من أحب بنات خالي إلى أمي - رحمها الله - للطفها مع أمي، وكثرة نكتها، وضحكها معها) جاءت لزيارة أمي -رحمها الله- في البيت، فسألتها أمّي عن أبيها عبد الله - رحمهما الله جميعًا - « إيش أخبار عبد الله يا نوف؟» فقالت (نوف) مغالبة دموعها: الحمد لله يا عمتي هو الحين أحسن ! وصدقتْ، فهو عند الله - إن شاء الله - أحسن!

وهكذا استمرت تلك المراجعات، إلى أن جاءت مراجعة رمضان عام ١٤٢٩هـ ! التي سأشير إليها في الحلقة القادمة إن شاء الله.

٢٨ - آخر رمضان في حياة أمي نورة رحمها الله

لولو،ابراهيم، صالح، علي، غانم .. حول أمي رحمها الله

توالت زيارات أمي نورة -رحمها الله-لعيادات مدينة الملك فهد الطبية طوال الثلاث السنوات (رجب ١٤٢٦ - شعبان ١٤٢٩هـ)، وأمي-رحمها الله- ما بين تحسّن أواستقرار في وضعها الصحّي، وقد يعتريها بعض التدهور.

إلى أواخر شعبان وبدايات رمضان عام ١٤٢٩هـ حين بدأ الضعف يبدو عليها بشكل ملحوظ، وبدأت حالتها الصحية تترادى، إلا أنها كانت -رحمها الله-تقاوم، وتتحامل على نفسها، ذلك أنها -رحمها الله- كانت كارهة المستشفيات وأجواءها طوال العام، فكيف الشأن في رمضان؟

ولذلك فقد كانت أشبه ما تكون في مستشفى داخلي طوال رمضان هذا، لأنها لم تكد تغادر سريرها الذي أُعدَّ لها في الغرفة الرئيسة أسفل البيت، فقد هجرت غرفتها مع ما كانت تحمل لها من خصوصية! وتركت الدخول إليها والمبيت فيها مع

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

أنها اعتادت عليها عمرها كله!

ومما يسليني أنني في رمضان هذا قد أكرمني الله أنني لم أفطر يومًا إلا مع أمي - رحمها الله - طوال الشهر، كنت أجهز إفطاري وأفطر بحضرتها - رحمها الله - يصحبني من يصحبني من أهل بيتي، وذلك الشهر كله لم أستجب فيه لدعوة من صديق ولا قريب، ولم أسافر خلال الشهر الذي كنت حريصًا فيه على ملازمة أمي رحمها الله.

وما لست أنساه في تلك الأيام أنني كنت عند رأسها بعد مغرب إحدى ليالي رمضان، وبعد مدة صمت، إذ لم يكن في الغرفة غيرنا أمي وأنا، وهي شبه نائمة -رحمها الله- فقالت: إبراهيم ! قلت سمِّي يمَّه . قالت : «يا وليدي رحْ (لأبوك) وقل له يحللني، وخلِّه يجي يقرأ عليَّ» ! طلب غريب جدًا، غريب صدوره من أمي -رحمها الله- وليست الغرابة في طلب التحلل (مع غرابته لعدم اعتيادنا سماع ذلك من أمي رحمها الله)، ولكن وجه الغرابة الكبير أن تطلب مني -رحمها الله- حضور أبي من بيت زوجته الأخرى! وهو ما لم تأمرنا به طوال حياتها ! لا شك أن الأمر الداعي لهذا الطلب أمر جلل ! وكان لا بدّ لي من المبادرة في التنفيذ مع صعوبته عليّ من كل وجه، وفعلا ذهبت إلى بيت أبي المجاور عند زوجته خالتي (أم عمر) فدخلت عليه وقبلت رأسه ويده، فرحَّب بي -كعادته- أحسن الترحيب، ثم قلت له: يبه أمّي... فأجهشتُ بالبكاء ولم أستطع إكمال عبارتي! فقال -حفظه الله: خير إيش فيه يا ولدي ؟قلت: أمّي تقول حلِّلني! وتطلب مجيئك للقراءة عليها ! فوالله كأني أنظر إلى سرعة قيامه من مجلسه، حتى إنه -حفظه الله- لم يكمل فنجال القهوة الذي في يده!

خلال دقائق معدودة كان أبي -حفظه الله- عند رأس أمي - رحمها الله- فسلَّم عليها وجلس عند رأسها وشرع في الرقية الشرعية وهو -حفظه الله- ماهر بها، وكان أثناء القراءة يمرر يديه على رأس أمّي -رحمها الله- ويخلل بأصابعه شعرها!

وكنت أرقب الموقف ظانًّا أنني الوحيدُ الذي غلبه البكاء، وإذا بالبكاء كان ملازمًا لنا نحن الثلاثة: أمي، وأبي، وأنا! بكاء صامت مستمر! ويا له من موقف! وأيّ موقف! لحظات ليس فيها إلا الدموع، والنفث الطاهر، وآيات الكتاب العزيز!

وبعد عدة ليالٍ زادت حالة أمّي -رحمها الله- ضعفًا، واشتدَّ بها المرض، فذهبنا بها يوم التاسع والعشرين من رمضان عصرًا إلى طوارئ مدينة الملك فهد الطبية، ومكثنا في حالة لا يعلمها إلا الله من الترقّب والخوف، حتى إذا أذّن المغرب أفطرنا في ممرات الطوارئ، ثم لم نلبث إلا لحظات حتى أُعلن أن العيد غدًا!

ليلة عيد وأمي -رحمها الله- في الطوارئ على السرير ما بين تحاليل، وأشعة، وأكسجين! ليلة عيد ولن يكون هناك من يملأ البيت عطرًا وبخورًا ! ليلة عيد ولن توجد في البيت من تُعدُّ العيد ليخرج به والدي للمسجد مع المصلين! ليلة عيد ولن يحظى إبراهيم بصحبة الحبيبة إلى مصلى العيد من طريق ليعودا من طريق أخرى مصحوبين بالتكبير والتهليل! ليلة عيد ولن يسعد الأطفال بالعيديات المجزية صباح العيد من البد الحنون المعطاء! ليلة عيد ولن يعمر البيت بدلال القهوة وأباريق الشاي، وسفرة العيد التي يحضرها الصغير والكبير! كل ذلك لن يكون ما دامت سيدة هذه المواقف كلها في الطوارئ على السرير!

ولما انتصف الليل تقريبًا، كنا محيطين بها (لولو، وغانم، وعلي، وصالح، وأنا، وعبد الله المسند ابن لولو أكبر أحفاد أمي رحمها الله)، هناك ألحّتْ علينا أمي -رحمها الله- أن تخرج إلى البيت، وأن تشارك أهل البيت العيد مهما كلّفها ذلك! ومهما دفعت من صحتها مقابل اجتماعها بأحبابها!

وهذا الذي حصل بالفعل فقد وقّعنا على ورقة خروج أمي - رحمهاالله- من المستشفى تحت المسؤولية! ولا أدري هل كانت تشعر -رحمها الله- أن هذا سيكون

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

آخر عيد فطر لها في دنيانا! وهل تحاملت على نفسها إحساسًا منها أنها لن تكون معنا في عيد الفطر القادم!

خرجت أمي -رحمها الله- متحاملة على نفسها، وباتت في بيتها ليلة العيد، وكان العيد سعيدًا بحضرتها، وإن كان حضورها -إلى حدٍّ مّا- حضورًا جسديًا فقط! كنا نعايدها وبصعوبة تتجاوب معنا من الأوكسجين، والإعياء، والتعب الذي لو لم يكن فيه إلا سهر ليلة العيد في الطوارئ لكفى!

وللحديث بقية إن شاء الله...

٢٩ - عيد الأضحى الأخير في حياة أمي نورة رحمها الله

أمي رحمها الله بين شقيقي علي وبيني واضعة يدها على الأضحية

منتصف شهر شوال من عام ١٤٢٩هـ مع ازدياد حالة الضعف الصحي الذي تمرُّ به أمي نورة - رحمها الله - تشاورنا نحن أولادها في ألا نقف مكتوفي الأيدي تجاه هذا الوضع! فاستقرَّ رأينا على السفر بها إلى جنوب المملكة للرقية الشرعية، وهنا تشرفتُ بالسفر معها بصحبة مباركة على رأس تلك الصحبة شقيقتي (لولو)، ومعها ابنها (مشعل)، وأم فارس، سافرنا مع أمي نورة - رحمها الله - سفرة الأربع والعشرين ساعة حيث كانت رحلة الذهاب فجر الخميس، ورحلة العودة فجر الجمعة، وكانت حقًّا رحلة شاقة من حيث الوقت، والمكان، والأحداث المصاحبة، حتى يمكن أن نقول عنها: ﴿لقدْ لَقِينَا فِي سَفَرِنَا هَذا نَصَبا﴾.

عُدنا فجرَ الجمعة، وما كنا نعلم أن تلك آخر طيارة تركبها أمي نورة - رحمها الله - عُدنا وعادت معنا تدريجيا عافية أمي - رحمها الله - وبدأت الحالة الصحية

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

تبدو على أقل الأحوال مستقرة، وهنا يمكن أن أقول إننا نعمنا مع أمي - رحمها الله - في وضع محتمل إلى حدٍّ مّا، بحيث كانت في سريرها في غرفة الجلوس، وربما احتاجت الأوكسجين، فكانت أدواته حاضرة عندها، رغبة منا أن تكون غرفة أمي -رحمها الله - عيادة داخل البيت، حتى نأنس بها، وتأنس بقُربنا.

وقد جرى في هذين الشهرين أحداث جِسام، أولها أشرت إليه في حلقة سابقة من وفاة خالي عبد الله بن نافع بن فضلية (أخو أمي نورة من أمها مزنة رحمهم الله جميعا)

ولذلك لما توفي خالي عبد الله .رحمه الله. يوم ١٤٢٩/١٠/٢٧هـ لم نخبر أمي - رحمها الله - بوفاته؛ رأفة بها ! وإن كانت شعرت بأمرٍ مّا أيام العزاء، لتغيبنا عن ملازمتها -رحمها الله- في بيتها؛بسبب مكثنا في بيت خالي -رحمه الله- للعزاء،إلا أننا -نحن أولاد أمي- كنا نسدد ونقارب، وذلك أننا كنا لا نذهب للعزاء إلا بعد المغرب، ونحرص أن يكون بعضنا حاضرًا معها،وهكذا مضى على وفاته - رحمه الله- أشهر ولم تعلم بذلك،لا منَّا نحن أولادها، ولا من شقيقها (خالي صالح) حفظه الله.حتى إن (نوفًا) ابنة خالي عبد الله -رحمه الله- (وكانت من أحب بنات خالي إلى أمي - رحمها الله - للطفها مع أمي،وكثرة نكتها، وضحكها معها) جاءت لزيارة أمي -رحمها الله- في البيت،فسألتها أمّي عن أبيها عبد الله - رحمهما الله جميعًا -» إيش أخبار أبيك يا نوف؟» فقالت (نوف) مغالبة دموعها: الحمد لله يا عمتي هو الحين أحسن !وصدقتْ، فهو عند الله - إن شاء الله - أحسن!

والحدث الثاني كان يوم ٢٢ / ١١ / ١٤٢٩هـ عندما بلغنا وفاة عبد الله بن إبراهيم الجديعي(أبو علي)، وكان أثيرًا لدى أمي - رحمهما الله - فلم نرد إخبارها بوفاته رأفة بحالها، وأذكر أنني استأذنتها مبكرًا ضحى الجمعة في وقت لم أكن أخرج فيه للصلاة عادة، وأخبرتها أنني سأخرج للصلاة مع والدي - حفظه

الله - في جامع الراجحي، وأنني مشغول بعد الظهر فلن أتمكن من العودة إليها، ولم أخبرها الحقيقة وهي خروجي ضحى مع والدي لإدراك صلاة العصر في القصيم؛ حيث يُصلى على عمي أبي علي الجديعي - رحمه الله - وفي طريق السفر ظهر الجمعة جاءني اتصال من أمي - رحمها الله - فقالت: «ما شاء الله عليك إلى الحين ما رجعتم من الراجحي؟ وإلا رايحين للقصيم» ؟! قلت: أيّ قصيم؟ قالت : « الله يرحم أبو علي، ليش يا وليدي ما علمتني الصبح حتى أدعو له ؟!»، وحقًا فقد كانت وفاة عمي الجديعي من الأمور التي أثَّرت على أمي رحمهما الله جميعًا.

وبعد وفاة عمي (أبي علي الجديعي) - رحمه الله - بستة وعشرين يومًا فُجعنا بوفاة أختي (غير الشقيقة) مزنة - رحمها الله - حيث فارقت الحياة مختنقة بالجمر يوم ١٨ / ١٢ / ١٤٢٩هـ رحمها الله رحمة واسعة، ولم يكن كتمان الأمر عن أمي نورة - رحمها الله - ممكنًا؛ وهنا أذكر أن أمي نورة - رحمها الله - طلبت منا أن تذهب إلى منزل خالتي أم سليمان (أم أختي مزنة رحمها الله) الملاصق لبيت أمي - رحمها الله - لتقوم بواجب العزاء. وعندها كنا نتسابق (شقيقي الأكبر غانم وأنا) إلى الفوز بخدمة أمي في كرسيها من بيتها إلى بيت خالتي أم سليمان، وعندما دخلت أمي - رحمها الله - على خالتي - حفظها الله - تبادلا السلام، والعزاء، والبكاء!

وأما مساء ذلك اليوم فلا زلت أذكر أمي -رحمها الله- وقد اجتمعنا عندها في غرفة جلوسها، أذكرها إذْ خرجنا من مجلس عزاء أختي مزنة -رحمها الله- دقائق نمضيها مع أمي -رحمها الله- وكان ذلك وقت صلاة العشاء، صلينا جماعة حيث تجلس أمي -رحمها الله- وقد كاد الصفُّ أن يملأ الغرفة، خالي صالح- حفظه الله- وأولاد أمي -رحمها الله- الأربعة (غانم، وعلي، وصالح، وأنا) وأحفادها أولاد بنتها (لولو) وأبناء الأبناء، وكأن أمي -رحمها الله- تنظر إلينا في بيتها نظرة مودِّع!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومما أذكره في شهر ذي الحجة هذا أنني اشتريت مع إخوتي الأضاحي، وعندما وصلنا بيت أمي - رحمها الله - خرجت معنا في فناء بيتها، وصورنا معها - رحمها الله - أثناء إدخال الأضاحي للبيت صورنا مع ابني عبد المجيد، وأبناء أخي علي، وكانت من آخر لحظات خروجها - رحمها الله - للفناء، إن لم تكن آخرها!

وكنت قد استأذنت أمي - رحمها الله تعالى - في الحج، وذلك بعدما وصيتُ شقيقي الحبيب (عليا) على أضحيتي، وكان من طبيعة (علي) ممازحة أمي -رحمها الله - وإدخال السرور عليها، وكانت شخصيتا أخي علي وخالي صالح - حفظهما الله -مميزتين في إدخال السرور على أمي - رحمها الله - لطبيعتيهما الفكاهية، وما في ذلك من الارتياح إلى نكت أخي (علي)، وطرائفه، وقفشاته، المحببة جدًا إلى أمي - رحمها الله -ومما جرى من قفشات في ذلك العيد أن إحدى زوجات الأولاد (وكانت زوجة ثانية لزوجها) أوصت أخي (عليا) أن يتولى أضحيتها التي خصصتها لأمها - رحمها الله - فلما كان ضحى العيد، وباشر (علي) الذبح، حتى إذا وصل إلى أضحية هذه الزوجة سمّاها لأمها - رحمها الله -كما أوصته صاحبة الأضحية، واجتهد من نفسه وأدخل في التسمية والد (ضرتها) - رحمه الله - وبعد الذبح أخبر أمي - رحمها الله -بهذه القفشة، فيقول: ضحكت أمي -رحمها الله - ضحكًا لم تضحكه منذ مدة؛ وذلك ما اعتادت عليه مما يروق لها من طرائف أخي علي ومقالبه!

وأمّا أنا في ذلك الحج فكنت أتواصل مع أمي - رحمها الله - هاتفيا في اليوم مرات عديدة، وأحاول أن أدخل الأنس عليها بإخبارها عن تيسّر حجنا، وتبشيرها (بالماء السبيل) الذي كنت أتصدق به عنها، لما أعرف عنها من حب غير محدود للصدقات!

وكانت أمي نورة - رحمها الله - قد لازمت البيت منقطعة عن الخروج إلا

لمراجعات المستشفى، ولم تخرج إلى غيره إلا مرة واحدة هي التي طلبت مني الذهاب بها إلى زوجة أبيها خالتي (منيرة البليهد) - حفظها الله - التي كانت تعدّها أختًا لها، قالت لي: « يا وليدي أم عبد الله تستأهل من يزورها، نطمئن على عمليتها في عيونها، لو غيرها ما طلعت !»، وفعلا فقد ذهبنا لخالتي أم عبد الله (أمي نورة رحمها الله، وممرضتها الخاصة، وخادمتها، وأنا) في زيارة إنسانية لمن كانت لأمي - رحمها الله - أختا وصديقة، وليست زوجة أب فقط!

وهكذا مضى علينا منتصف شوال، وشهرا ذي القعدة، وذي الحجة، ونحن ننعم باجتماع مستقر مع أمي - رحمها الله - حتى إذا دخل العام الهجري الجديد كانت لأمي - رحمها الله - مراجعة اعتيادية لعيادة (د.نوال بخش) في مدينة الملك فهد الطبية، وكانت المفاجأة !وهي ما سأذكره في الحلقة القادمة إن شاء الله ...

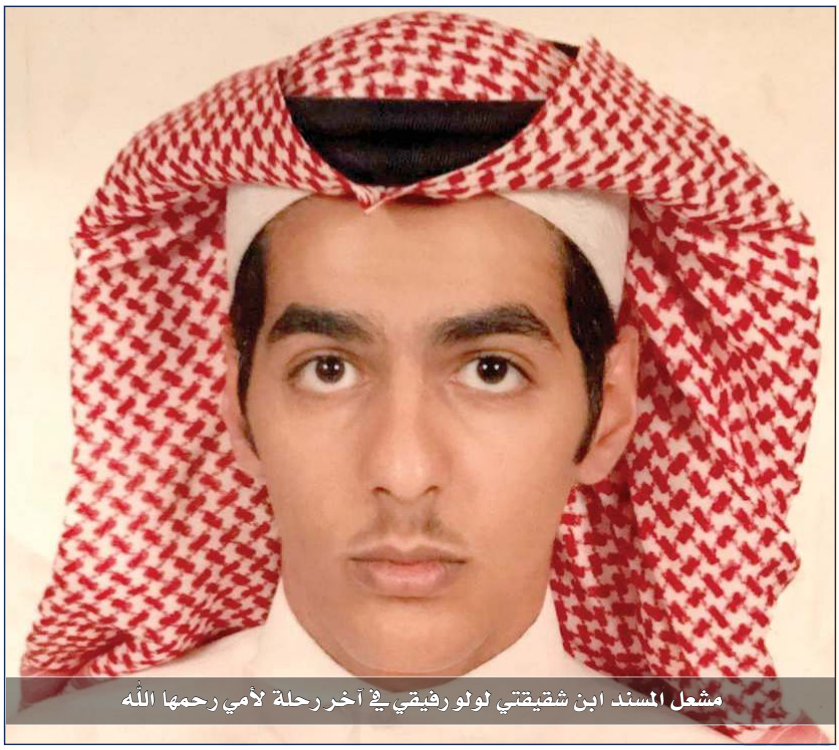

مشعل المسند ابن شقيقتي لولو رفيقي في آخر رحلة لأمي رحمها الله

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣٠ - آخر زيارات أمي - رحمها الله - العيادات الخارجية

منذ ليلة عيد الفطر المبارك عام ١٤٢٩هـ لم تدخل أمي نورة -رحمها الله- المشفى إلا في زيارات اعتيادية للعيادات الخارجية للمتابعة الدورية، ولم تكن تستغرق تلك الزيارات إلا ساعات معدودة، ما بين العيادة والمختبر والصيدلية، حتى إذا كان يوم الأربعاء الموافق ٣ / ١ / ١٤٣٠هـ حيث موعد مراجعة اعتيادية لأمي -رحمها الله- لعيادة الباطنية في مدينة الملك فهد الطبية، كنت عند أمي -رحمها الله- في البيت صباحًا، وقد حرصتُ على أن أكون عندها مبكِّرًا إذ أدخلت سيارتي داخل البيت؛ إكرامًا لأمي -رحمها الله- وتوفيرًا لجهدها عن المشي إلى باب البيت الخارجي، صبَّحتها بالخير وتناولت معها كأس حليب، وآنستُها بالحديث متلطِّفًا لما أعلم من الهمّ الذي تحمله في مراجعة المشفى! وكان مما قلته لها -رحمها الله- ذلك الصباح: يا أميمتي خلينا نروح مبكرين للمراجعة، حتى نرجع إن شاء الله قبل الساعة الحادية عشرة، ونفطر في البيت مع بعض! أقول ذلك؛ لعلمي بأنّ أية كلمة

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

تشير إلى اجتماعنا معها يسرُّها -رحمها الله- أيَّما سرور.

وقد خرجنا من بيتها -رحمها الله- في تمام الساعة الثامنة صباحًا، وفي الطريق إلى مدينة الملك فهد الطبية قالت لي -رحمها الله- : «ترا هذي آخر مرَّة أروح للمستشفى! خلاص تعبت من المراجعات يا وليدي» !قلت : أبشري يا أميمتي بما تحبين ! ولما وصلنا عيادة (د.نوال بخش)، رأت نتيجة آخر تحليل فأصابها قلق، وأعادت الكشف على أمي -رحمها الله- مرة أخرى، ثمَّ صارحتني بقولها: حالة الوالدة لا تسمح لها بمغادرة المستشفى هذا اليوم ! قلت: كيف يا دكتورة؟ قالت: حالتها الصحية تستلزم وضعها تحت المتابعة! لا بد من تنويمها حالاً ! والآن سأحوِّلها إلى التنويم! نريد تنظيم (أنزيمات الكبد) لأنها مرتفعة، وسوف تخرج يوم السبت، كان هذا الحوار بين الأخصائية وبيني في حدود الساعة الحادية عشرة ضحى، فلم يكن بدٌّ من إقناع أمي -رحمها الله- برأي الاستشارية، وحاولت تخفيف الخبر عليها -رحمها الله- بقولي : يا أمي متى يمكن نبقى عندهم إلى الليل، أو إلى صباح الغد بالكثير.

رحمها الله رحمة واسعة كأني أرى وجهها الآن في تلك اللحظة التي استسلمت فيه لقرار التنويم، وهي التي كانت تؤمِّل الخروج قبل الظهر! وعند ذلك أكملتُ إجراءات التنويم، وعندما وصلنا جناح التنويم اتصلتُ بغاليتي المكلومة شقيقتي (لولو)، وأخبرتها، ثم اتصلت بإخوتي(غانم وعلي وصالح) لأخبرهم الخبر، فتحوَّل اجتماع مساء الأربعاء المعتاد لأولادها وأحبابها ذلك اليوم من بيتها -رحمها الله- إلى مدينة الملك فهد الطبية.

ومنذ ذلك اليوم وأمي -رحمها الله- في التنويم، حيث لازمتْها البنت البارّة (لولو) ليلا ونهارًا، لا تكاد تفارقها إلا وقتًا قليلا، وإذا خرجت (لولو) أبقت خادمتها الخاصة الفلبينية (مارسيلا) التي كانت أثيرة عند أمي نورة -رحمها الله- وأما

نحن الأبناء فكنا نأتي يوميًّا قبل وقت الزيارة المتاح ونمكث حتى نهاية الزيارة.

يشاركنا الزيارة بشكل شبه يومي شقيق أمي -رحمها الله- الوحيد خالي صالح أبو عبد العزيز -حفظه الله- كما يشاركنا كذلك أحفاد أمي -رحمها الله- وزوجات الأبناء، والأنساب، والأحباب.

حتى بات مألوفًا لدى المنومين في المستشفى والعاملين فيه أن تعمر غرفة أمي -رحمها الله- يوميًا بالزوار والزائرات، حتى إن أولئك الزوار ربما انتظروا في الممرات وغرف الجلوس لكثرتهم جزاهم الله عنا خيرًا.

ومما أذكره من المواقف أثناء تنويم أمي -رحمها الله- هذا أن الاستشارية (د. ريم البنيان) قررت إجراء (الأشعة المقطعية) لأمي -رحمها الله- ولعلمي بما سيصحب ذلك من انتقال أمي -رحمها الله- من غرفتها إلى مقر الأشعة، والكَلَفة التي ستصحب ذلك الانتقال، ولتخوّفي من نتيجة تلك الأشعة، لهذه الأسباب كلها أقنعت -بصعوبة- أختي الكريمة (لولو) أن تذهب ظهر ذلك اليوم إلى منزلها، وتتركني وحدي مع أمي -رحمها الله- وكنت أهدف من هذا الإقناع إلى أمرين اثنين؛ أولهما: أن أُبعد الغالية (لولو) عن مباشرة رؤية أمي -رحمها الله- أثناء دخولها (الأشعة المقطعية)، لما سيؤلم (لولو) ولا شك عند رؤيتها مزيد معاناة أمي -رحمها الله- والأمر الثاني الذي أهدف إليه: أنني أردت أن آخذ راحتي دون حرج من أحد حتى من (لولو) عندما لا أتمالك نفسي من البكاء!

وقد تحقق الأمران معًا! فقد خرجت (لولو) لبيتها، وقالت: سأعود بعد ساعتين، وصحبتُ أمي -رحمها الله- في المستشفى، متنقلا بين ممراته، وأدواره، خارجًا من مصعد إلى آخر، متخطيا قسمًا إلى ما يليه، في مشهد صامت متحرك! صامت لهيبته، متحرك لتنقلاته، السرير عليه أمي -رحمها الله- وقد شُدَّت من وسطها

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

على السرير، وجُعل الأكسجين في فمها -رحمها الله-والممرضان يتبعان الاستشارية (د. نوال البنيان) التي تتقدم السرير بخطوات متجهة إلى حيث مقر الأشعة، أنا متنقل بين أطراف السرير حيث أمي -رحمها الله- فتارة ألامس قدميها، وتارة أضع يدي على رأسها، وتارة أذهب يمين السرير وتارة يساره، لا أملك في تلك اللحظات السريعة إلا الدعاء المصحوب بوابل من البكاء! كنت لا أدري ما الذي سيستقبل أمي -رحمها الله- في هذه الأشعة غير الاعتيادية؟ وما الآلام التي ربما ستصاحبها -رحمها الله- أثناء الأشعة، وبعدها؟ وصلنا حيث (الأشعة المقطعية)، فأُدخلت أمي نورة -رحمها الله - إليها، ولم أخرج من غرفة الأشعة إلا في اللحظة التي لم يأذن لي الأطباء بمزيد البقاء داخل الغرفة، وعندئذ بقيت عند الباب زادي الدعاء وهجوم البكاء! إلى أن تمت الأشعة، وبعدها عدنا إلى غرفة أمي -رحمها الله- وإذا بـ(لولو) في انتظارنا قائلة: ما تحملت البقاء أكثر خارج المشفى! فعدت لانتظاركم في غرفة أمي-رحمها الله-

وللحديث بقية إن شاء الله ...

٣١- مواقف في الشهرين الأخيرين لأمي رحمها الله

كثيرة تلك المواقف التي تجلّت لنا في أثناء تنويم أمي نورة -رحمها الله- في المستشفى آخر شهرين من حياتها، إلا أنني سأذكر بعضها مما احتفظت به ذاكرتي.

فمنها ما كان في إحدى الليالي عندما زارت زوجتا أبي أم إسماعيل وأم ناصر -حفظه الله وحفظهما- أمي -رحمها الله- وهشّت بهما مع صعوبة حالتها آنذاك، وعند ذلك رأيت الدموع في عيني خالتي أم ناصر، أما خالتي أم إسماعيل فلم تتمالك نفسها من استمرار البكاء، تبكي بصمت، دون أن تتكلم بكلمة حتى خرجت من الزيارة، وهي التي كانت إذا اجتمعت مع أمي - رحمها الله - تدمع عيناها من الضحك وتبادل الطرائف، وتذكّر أيام مرّت عليهما خلال سنوات العمر! الآن خالتي أم إسماعيل تنظر إلى صاحبتها على السرير فتبكي دون كلام.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ومن المواقف العجيبة أن أقاربنا الرجال غير المحارم لأمي نورة -رحمها الله- كانوا يتعاهدون أمي -رحمها الله- بالزيارة وإن كانوا يكتفون بالوقوف خلف الستارة! ويرددون الدعاء، ويخرجون متأثرين بكونهم يرون (نورة) التي طالما رحّبتْ بهم في منزلها، وديوانيتها، يرونها لا تكاد ترد السلام عليهم!

أما نحن أولادها -رحمها الله- وخالي صالح -حفظه الله- وأختها الصغرى خالتي ليلى - حفظها الله- فكنا معها كل يوم، محيطين بها طوال الوقت، وكل ما يمكن تقبيله من جسدها قبّلناه! فمن كان واقفًا عند رأسها قبَّل الرأس، ومن كان قريبًا من اليد قبَّل اليد، ومن كان في آخر السرير قبَّل القدمين!

ومن المواقف العالقة في ذهني كثرة سؤال أمي -رحمها الله- عن أخي (صالح أبي خالد)، فإذا تأخر عن زيارتها يومًا سألتنا: «وين صالح؟ عسى ما صار له حادث؟ أكيد ما فيه شيء؟» وهكذا حتى يكون صالح عندنا مقبِّلا رأسها ويديها فتطمئن ساعتئذٍ!

ومن الأمور التي باتت ديدنًا لنا آنذاك قراءة القرآن عند أمي -رحمها الله- في نية الاستشفاء، وهذا ما كانت تقوم به (لولو) و(علي وصالح وأنا)؛ إلا أن (لولو) و(عليّا) -حفظهما الله- لا يُجاريان في ذلك، فقد كان كل واحد منهما يقرأ سورة البقرة كاملة يوميًّا عند رأس أمي -رحمها الله- دون أن يتركا القراءة يومًا واحدًا.

ومن الأمور التي شغلت بالَنا، وحيَّرت الأطباء (تنقل المرض)، في أماكن متعددة من جسد أمي نورة -رحمها الله- وهو الأمر الذي جعلنا نرى الفريق الطبي (د/ نوال بخش) والأطباء الذين معها، يجتمعون بشكل متكرر، وأحيانًا في مكان قريب من غرفة أمي -رحمها الله- وعلامات التعجب بادية عليهم، ومما يبدو من النقاش عدم وضوح الرؤية في السبب الفعلي لتنقل مرض أمي نورة -رحمها

الله- حتى إن من الأمور المثيرة للدهشة أن الأطباء يكادون يكتبون (أمر خروج) لأمي نورة - رحمها الله - في يوم الأربعاء، ويكون هذا قرارهم مساء الثلاثاء، ثم يتفاجؤون بانتكاسة في حالة أمي -رحمها الله- يوم الأربعاء ! مما يضطرهم إلى إعادة النظر في (أمر الخروج) إلى مطلع الأسبوع الذي يليه! وهكذا تكرر هذا القرار (أمر الخروج، والتراجع عنه) عدة أسابيع!

حتى إذا كان يوم من الأيام جاءت الاستشارية (د/ نوال بخش) ورفعت يديها على هيئة المستسلم، وصارحت شقيقتي المكلومة الغالية(لولو) بقولها: «شوفي يا لولو أمّك حيَّرت الأطباء! ونحن يا أخت لولوة مجتمع مسلم! ولذلك اتجهوا للرُّقية الشرعية! فما عدنا نعرف سبب مرضها تحديدًا» !

كان الله في عون (لولو)، يا ترى ما وضعها -رعاها الله- عند سماعها هذا الكلام؟ لله أخيتي ما أكثرَ دمعها ! وما أرقَّ قلبها ! وما أعظم ما تحمّلت!

وهكذا تتابعت الأسابيع حتى تردّت حالة أمي -رحمها الله- الصحية، مما حمل الأطباء إلى اتخاذ قرارهم الطبي بنقلها -رحمها الله- إلى العناية المركزة ! وهو ما سأشير إليه في الحلقة القادمة إن شاء الله ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣٢ - أمي نورة- رحمها الله- في العناية المركزة

خالي صالح المانع حفظه الله متأملا جواز أمي نورة بعد وفاتها رحمها الله مقبّلا صورتها

نُقلت أمي نورة -رحمها الله- إلى العناية المركزة، نظرًا لتردي وضعها الصحي، وهناك قرر الأطباء أن يجري لها (غسيل كلوي) ولم تكن جرّبت هذا الغسيل من قبلُ! وهو ما استدعى مزيدًا من الأجهزة في جسدها الذي أضناه المرض، وأعيته وخزات الإبر!

وفي العناية المركزة كنا نعاني بالغ الألم لشعورنا بالألم الذي ألمَّ بأمي -رحمها الله- ولذلك كنا نجتمع عندها ولا نملك لها إلا الدعاء والبكاء!

ومع عدم حرص إدارة المستشفى على الزيارات في العناية المركزة،إلا أن بعض القريبات الفضليات لم يستطعن الصبر عن زيارة أمي -رحمها الله-فمنهن من

كانت تزور بصمت، الصمت الذي لا يظهره إلابريق الدمع في عيوننا الذي يَشِي أنَّ كل واحد منا (الزائرات وأنا) لو تكلَّم لانفجر باكيًا!

ومن القريبات الزائرات من كانت تعدّهنّ أمي -رحمها الله- بناتٍ لها، فهي لهن بمثابة الأمّ، وعندما رأينَ أمي -رحمها الله- في العناية في هذا الوضع، لا تكلمهن،ولا ترد عليهن سلامًا ولا جوابًا، تأثرن، وتحاملن على أنفسهن فخرجنَ، ولا زلت أذكر -وقد صحبت بعضهن في ممرات المشفى لإيصالهن إلى سيارتهن- مواساتهن لي، وحثهن إياي على التحلي بالصبر، وأن الأمر أزمة وستعدي إلى خير، يواسينني وهن -معي آنذاك - محتاجات إلى المواساة!

كما أذكر من المواقف في العناية المركّزة أن جسد أمي نورة -رحمها الله- قد امتلأ بالأجهزة؛ ما بين جهاز تنفس، وجهاز قياس ضغط، وثالث لدقات القلب، ورابع لفتحات الغسيل الكلوي، وخامس، وآخر ....، حتى لم يكد يبقى من جسدها موضعٌ يخلو من جهاز إلا أسفل قدميها! وهنا كان الموقف المؤثر لنا جميعًا؛ حيث توجه خالي صالح (أبو عبد العزيز) شقيق أمي نورة الوحيد، ورفيق دربها -رحمها الله-توجّه إلى ذلك الموضع الخالي من الأجهزة، إلى حيث قدمي شقيقته نورة، ليقبِّل هاتين القدمين تحيةً منه لشقيقته التي ملأت أجهزة العناية المركزة باقي جسدها! وهذا ما كنا نفعله نحن أولاد أمي -رحمها الله- حيث نهوي متشرفين إلى قدميها لتقبيلهما!

وأمّا وقت إجراء (الغسيل الكلوي) لأمي -رحمها الله- فقد كان وقتا عصيبًا؛ لما نعلم من الإعياء والجهد المصاحبينِ للغسيل مع جسد المريض غير المنوَّم، فكيف هو والوضع مع جسد أمي -رحمها الله- الذي أخذ منه المرض مأخذًا بالغًا؟!

ولذلك فقد كنتُ وقتَ (الغسيل) أجلس في آخر العناية على كرسي يبعد عن أمي

-رحمها الله- أمتارًا؛ لئلا يمنعني أحد من الممرضين، وأركِّز النظر في سرير أمي -رحمها الله- باكيًا داعيًا، حتى ربما استمر بي الوضع على هذه الحال ساعة من الزمان تزيد أو تنقص، لا يقطعني عن الدعاء والبكاء إلا السلام على أحد زوار أمي -رحمها الله- ممن أغالب نفسي متجلدًا أمامهم!

مكثتْ أمي نورة -رحمها الله- في العناية المركزة ما مكثت، ثم بدت عليها بعض آثار العافية، وعلامات الشفاء؛ فقرر الأطباء خروجها من العناية وإرجاعها إلى جناح التنويم، وهو ما سأتحدث عنه في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى ...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣٣ - العافية التي سبقت الموت

بدت على أمي نورة -رحمها الله- آثار العافية، وعلامات الشفاء، فأخرجها الأطباء من العناية المركزة، وأعادوها إلى غرفة التنويم، وعند ذاك عاودت الوضع شبه الطبيعي، حيث كانت -رحمها الله- تتحدث معنا، وتعرف زوارها، وربما أنِست بهم ومازحتهم.

وأذكر من ممازحتها زوارها وممازحتهم لها أن خالتي جدة أولادي(أم علي) -حفظها الله- زارتها وتحدثت معها (وكانت أمي -رحمها الله- تحب أحاديث خالتي (أم علي) -حفظها الله- وتطرب لطرائفها)، فقالت أمي -رحمها الله- ممازحة خالتي: «سمعت أنكِ يا أمّ علي ناوية تتزوجين! قالت أم علي: صحيح، ولا لقيت أحسن من أحمد سواقي الأندونيسي! وتراني يا أم غانم أجّلت زواجي حتى تخرجي من المستشفى وترقصي في الزواج !» وهنا لم أرَ أمي -رحمها الله- منذ دخلتْ المستشفى تضحك مثل ضحكها ذلك اليوم!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وأذكر أنها -رحمها الله- كانت تسأل عن (زينات) ممرضتها الخاصة التي وصلت من الفلبين آخر أيام أمي -رحمها الله- وتتلطف معها، وترفع معنوياتها قائلة: أنت حلوة يا زينات، شغلك زين! تقول ذلك مع أنها لم تجتمع معها إلا أيامًا قلائل!

عافية ما أحلاها ! فَرِحنا بها ولكن ! لم تلبث تلك العافية طويلا؛ إذْ تدهور الوضع بأمي -رحمها الله- خاصة فيما يتعلق بمنعها من تناول السوائل، بما في ذلك الماء! وهنا كنا نعاني مع أمي -رحمها الله- أشد الألم، حيث كنا بين أمرين قاسيين،أقلُّهما مرارةً مرٌّ : إما أن نمنعها من الماء الذي كانت تطلبه بإلحاح؛ استجابة لأمر الأطباء، مع أنها كانت تنادينا قائلة: أعطوني الماء لا تذبحوني من العطش! وبين أن نعطيها الماء الذي كانت قطرات قليلة منه تسبب لها اجتماع سوائل تضر بها غاية الضرر!

فما كان منا إذا ألحّتْ -رحمها الله- علينا بطلب الماء إلا أن نسقيها بغطاء قارورة ماء الصحة! وما ذا عساه أن يغني عنها من العطش شيئًا؟! وربما اكتفينا -حسب توجيه الأطباء- بتبليل منديل بالماء وتمريره على شفتيها -رحمها الله- وما أصعب -والله- تلك اللحظات التي جعلتنا نحن الأصحّاء لا ننعم بالماء؛ لِمَا نرى من عدم قدرتنا على سقي أمنا -رحمها الله-ولو قليلا منه،مع طلبها الملحّ!

ومن المواقف التي لا أنساها ما بقيت أن أمي -رحمها الله- احتاجت لإخراج اللعاب من فمها ولم تكن تملك من القوة ما يمكنها من استخدام المنديل بنفسها، فتسابقت (لولو) و(علي) إلى مباشرة ذلك بنفسيهما، كلٌّ منهما قام من كرسيه ممسكًا بالمنديل، مسرعًا إلى فم أمي -رحمها الله- ليريحها مما تريد إخراجه، وقد فاز بهذا السباق شقيقي الغالي (علي) إذ نال شرف مباشرة خدمة أمي -رحمها الله- بيديه! فشكر الله لأبي تركي، وشكر للولو.

ومما أذكر أن آخر اتصال هاتفي لأمي -رحمها الله- كان مع ابنة خالي (البندري أم بدر الشنيفي) حفظها الله، وذلك عندما قمتُ تنفيذا لرغبة أمي -رحمها الله- بطلبها في الهاتف، وإخبارها أن أمي -رحمها الله- تودُّ الحديث معها! فتحدثت معها وسألتها عن نفسها وزوجها ووالدتها وأولادها، ثم ودعتها! وأنهتْ المكالمة، وأخبرتني -رحمها الله- بعد المكالمة بعظيم حبها للبندري!

ومما لا أنساه آخر أيام أمي -رحمها الله- أننا كنا حول سريرها فقالت-رحمها الله- «خلّوهم يدخلون! لا يقفون بالباب»! قلنا: مَنْ يا أميمتي؟ قالت: «الرِّجال اللابسين الثياب البيضاء! خلُّوهم يدخلون»! وإلى لحظة كتابة هذه الأسطر لا نعلم ماذا رأت؟ ولا من هم الرجال؟ ولكن عسى أن تكون -رحمها الله- رأت خيرًا؛ من ملائكة الرحمة، ومن منازلها عند ربها الكريم.

ومن العجائب أن الاستشارية (د. نوال بخش) قالت لشقيقتي (لولو) وكانت معها خالتي (ليلى) : «يمكن نكتب لأمك (أمر خروج) يوم السبت القادم»، ثم استدركت قائلة: «هذا إذا ما طرأ جديد»! ولكن الجديد طرأ! فقد تردّت حالة أمي -رحمها الله- الصحية تردِّيًا واضحًا خلال ساعات!

وفي يوم الأربعاء ١٤٣٠/٢/٣٠هـ كان شقيقي (علي) مع أحد المشايخ الذين كانوا يأتون لرُقية أمي -رحمها الله- وكان من عادة هذا الشيخ -حفظه الله- في أثناء قراءته أن يطلب من المريض أن يذكر الله وينطق بالشهادة، فلما طلب الشيخ من أمي -رحمها الله- ذلك وهي في حالة لم تكن تستطيع فيها النطق، أو على الأقل لم تكن تستطيع إسماعنا النطق، إلا أنها - كما يقول أخي علي -لما طلب الشيخ من أمي -رحمها الله -أن تتشهد أشارت بأصبعها السبابة مشيرة إلى قول (لا إله إلا الله)!

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

ومن أشدِّ ما مرَّ علينا آخر أيام أمي -رحمها الله- ما كان يأتيها من ضيق تنفس شديد يضطرّ الأطباء معه إلى استعمال جهاز كهربائي على ظهر أمي -رحمها الله- مما يقابل قلبها للإنعاش، فكانت كلُّ صعقة منه تهزّ جسدها هزة ينتفض معها الجسد كله، دون أن تنطق أمي -رحمها الله- بأية كلمة! مع الألم الذي يصاحب تلك الهزّات!

وأذكر أن ضيق النفس هذا عاودها يوم الجمعة ١٤٣٠/٣/٢هـ في حدود الساعة التاسعة مساءً؛ أي في آخر وقت الزيارة المسموح به، فأحضرت الممرضة الجهاز مباشرة، وقامت غاليتي شقيقتي (لولو) - حفظها الله - بإسناد صدر أمي -رحمها الله- إلى صدرها، لتقوم الممرضة بالصعقات المتوالية على ظهر أمي -رحمها الله- وهنا كنا -نحن أبناء أمي رحمها الله- ننظر إلى وجه (لولو) وظهر أمي -رحمها الله- فكانت كل نفضة على جسد أمي -رحمها الله- تجعلها تنتفض انتفاضة لا تكاد (لولو) تمسكها، ولأننا في حالتنا تلك كنا نرى وجه (لولو) فنتألم لسببين:

أولهما: ما نرى من ألم أمي -رحمها الله- الألم الذي لا يكاد يُطاق!

والسبب الآخر: دموع (لولو) -حفظها الله- التي سالت على خديها؛ تألما لألم أمي -رحمها الله- ألم (لولو)، وصمتها، وجريان دمعها!

ألمٌ عايشناه لِمَا نراه من ضعف حالة أمي -رحمها الله- وقلة حيلتها!

خرجنا بعد زيارة مساء هذا اليوم الجمعة، خرجنا من عند أمي -رحمها الله- وما زالت صورة انتفاض جسدها، ودموع (لولو) هي آخر ما كان عالقًا في مخيلتنا، ومحفوظًا في ذاكرتنا.

خرجنا! ولم يكن في علمنا ولا دار في خَلَدنا أن هذه الخروج هو الخروج الأخير!

وللحديث بقية إن شاء الله ...

٣٤ - إبراهيم ! ماما نورة خلاص

الساعة الثامنة، صباح يوم السبت ٣ / ٣ / ١٤٣٠هـ، اليوم الأول من الدراسة في الفصل الدراسي الثاني بعد إجازة منتصف العام، كنت في الحصة الثانية في المعهد العلمي في الدرعية ألقي درسي في مادة العروض والقافية، اتصلت (مارسيلا) خادمة أختي (لولو) الخادمة الملازمة لأمي نورة -رحمها الله- التي تبقى مع أمي في أثناء خروج (لولو) للبيت، اتصلت عليَّ متأثرة وأخبرتني أن حالة أمي -رحمها الله- صعبة، وأن عليَّ الحضور، فطمعتُ أنْ أكمل شيئًا من شرح درسي، ثم أستأذن إدارة المعهد للخروج، ولكن(مارسيلا) عاودت الاتصال بعد اتصالها الأول بدقائق وصوتها يتقطع من البكاء، وتقول لي: إبراهيم احضر بسرعة، تعال الآن للمستشفى، ماما نورة تعبانة تعبانة!

وعندئذٍ ألقيت أقلام الشرح من يدي، واستأذنت طلابي طلاب الثالثة الثانوية،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وخرجت مسرعًا من قاعة الدرس، وتوجّهت لغرفة المدير فلم أجده، فدخلت غرفة الوكيل ووقفت على بابه دون أن أدخل لأني في عجلة من أمري، وقلت له: أنا خارج لأمي في المشفى، دعواتكم، وخرجت مباشرة، وتوجهت إلى مدينة الملك فهد الطبية، وكان لساني طوال الطريق يلهج بهذا الدعاء الذي لا أعرف كيف جرى على لساني! كنت أردد: « اللهم إني أُعيذ أمي أن يتخبطها الشيطان عند الموت»! لا أدري كيف تجرأت أن أقول هذا الدعاء؟! كل الطريق وأنا أبكي وأردِّد هذا الدعاء، وأظنني لم أزد عليه من الدعاء شيئًا إلا ما خالطه من الاستغفار.

وصلتُ المشفى، ووضعتُ سيارتي في المواقف القريبة التي لا يكاد يُسمح فيها بالوقوف إلا بإذن من مسؤول الحركة، فرأيت أحد منظمي السير في المشفى، وقلت له: وضع أمي حرِجٌ لا يحتمل أن أذهب بسيارتي إلى المواقف البعيدة، وفي نفسي أنه في حين لم يوافق فلا بأس أن يأخذوا سيارتي إلى حيث شاؤوا، أو أن يغرموني ما شاؤوا، فالوضع أكبر من أفكِّر ذلك الوقت في سيارتي، وماذا سيحصل لها؟

دخلت أحثُّ الخطى إلى حيث غرفة أمي وكانت غرفة مشتركة ذات ستة أسرِّة، سريرها -رحمها الله- كان آخر الغرفة تحت النافذة على يمين الداخل، دخلت، تجاوزت الأسرّة حتى وصلتُ إلى سرير أمي -رحمها الله- وهناك كانت المصيبة! أمي -رحمها الله- ممددة على السرير دون حراك، وقد نُزعت منها كل الأجهزة التي كانت عليها ليلة البارحة؛ فلا جهاز أكسجين، ولا مقياس ضغط، ولا مدخل لإبر السُّكر، ولا غيرها.ليس هناك إلا أمي -رحمها الله- دون أجهزة، و(مارسيلا) واقفة عند رأس أمي، معها الممرضة الخاصة الجديدة (زينات) تبكيان، فلما رأتني (مارسيلا) لم تزدْ على قولها: «ماما نورة خلاص»، واستمرت في البكاء!

عند ذلك لم أصدِّق الخبر المشاهد أمامي! لم أصدِّق عينيَّ! فأهويت إلى جسد أمي الطاهر الممدَّد أمامي أتحسّس نَفَسها! وضعتُ أذني على صدرها! ألامس

قلبها الذي طالما نبض بالحبّ! ما باله اليوم لا ينبض؟! أقارب أذني أكثر وأكثر، حتى إذا استيقنت الخبر ألهمني الله -بفضل منه تعالى- الاسترجاع فاسترجعت بصوت لا يكاد يُبين «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، ثم انكببتُ مرة أخرى على جسد أمّي أقبِّلها وأدعو! قبَّلتُ جبينها، قبَّلتُ خديها، قبَّلتُ نحرها، قبَّلتُ يديها كلتيهما، قبَّلتُ قدميها، وأنا في أثناء التقبيل أكرر دعوتين لا أدري لماذا لمْ يجرِ على لساني حينها غيرهما: «اللهم اغفر لأميمتي»، «اللهم صبِّرْ أخيِّتي» ! كررتهما ما شاء الله أنْ أكررهما، بقيت على هذه الحالة بين تقبيل الجسد الطاهر، وبين هاتين الدعوتين، حتى إني لأسمع بكاء المرأة المريضة الأخرى في السرير المجاور لأمي -رحمها الله- أسمعها من خلف الستارة، تبكي وتدعو وتسترجع!

وما هي إلا دقائق إلا وإذا بشقيقتي الغالية المكلومة المصابة (لولو) تدخل علينا، ولم تكشف نقابها عن وجهها، دخلت باكية بإيمان، مصابة باحتساب، دخلت (لولو)، وتوجهت إلى حيث جسد أمي -رحمها الله- فانكبتْ على أمي تقبلها وتبكي، ومكثت مدة لم ترفع رأسها عن جسد أمي -رحمها الله- ذرفتْ على جسدها ما شاء الله أن تذرف من دموع الفراق! وأنا أنظر إلى أغلى امرأتين في حياتي أمي -رحمها الله- وشقيقتي الوحيدة -حفظها الله- أنظر وأبكي، ولم أتدخل في تهدئة (لولو)، تاركًا إياها لتأخذ راحتها في البكاء والدعاء، والتقبيل والتوديع!

ثم رفعتْ (لولو) رأسها عن جسد أمي -رحمها الله- والتفتْ إليَّ فعانقتني وعانقتها (ولم يكن من عادتنا في السلام على بعض طوال حياتنا إلا المصافحة) تعانقنا، وقالت بصوت يتقطع من البكاء: خلاص يا إبراهيم ؟! يعني ماتت أمي؟! فاسترجعنا وواصلنا الدعاء.

وعند ذلك أتت ممرضات المشفى فأخرجنَ أمي -رحمها الله- من الغرفة المشتركة إلى غرفة خالية ليس فيها مريضات أخريات، وهناك لَحِق بنا شقيقانا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

(علي وصالح) وتحلقنا جميعًا (لولو، وعلي، وصالح، وأنا) حول أمي -رحمها الله- جمعتنا بعد موتها، كما كانت تجمعنا طوال حياتها! وهنا أذكر أن شقيقي الأصغر(صالحا) قد اقترب غاية الاقتراب من جسد أمي -رحمها الله- ووضع رأسه عند رأسها كأنه يُسارُّها بحديث! يبكي بصمت! وكلنا يدعو ويبكي!

وقد أنزل الله -بفضله ومنته- العزاء والثبات والصبر علينا جميعًا، حتى إنّ (لولو) وهي التي كنا نخشى عليها من هذه الساعة، صارت أشدَّنا ثباتًا، قامتْ في هذه الغرفة التي ليس فيها إلا جسد أمي -رحمها الله- وأولادها (لولو، وعلي، وصالح، وإبراهيم) قامت (لولو) وتوضأتْ، ثما قالت لنا: صلُّوا الضحى، وأردفتْ توجيهها بقولها: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ ! سبحانك يا الله! (لولو) تحثنا على الصبر! تحثنا نحن الذين كنا نخاف عليها من الانهيار!

وفي هذه اللحظات أوكل أشقائي (لولو، وعلي وصالح) إليَّ إخبار والدي -حفظه الله- بنبأ وفاة رفيقة عمره أمي -رحمها الله- فاستجمعتُ نفسي، وابتعدتُ عن إخوتي في ممرٍّ جانبيٍّ لأنفرد بنفسي في أثناء إخبار والدي -حفظه الله- وعند ذلك حاولتُ إعطاء نفسي الفرصة؛ لإنهاء موجة البكاء قبل المكالمة، حتى لا يفجأني البكاء، فيمنعني من مواصلة المكالمة، وبعد ذلك كلّه اتصلت على والدي -حفظه الله- وسلَّمتُ عليه، ثم تحاملتُ على نفسي وقلت: «الحمد لله ! يبه أمّي تطلبك الحلّ» ! لكنني لم أسمع من والدي -حفظه الله- جوابًا ! إلا قوله : «آمنتُ بالله»! فقد سقط الجوال من يده، وانقطعت المكالمة! ثم اتصل بي -حفظه الله- يدعو باكيا، معزِّيًا معزَّيًا! وعند ذلك استأذناه في وقت الصلاة على أمي -رحمها الله- هل يرغب أن يكون الظهر؟ أم العصر؟ فقال -حفظه الله- العصر أوسع حتى نخبر من نستطيع إخباره، ليحضر الصلاة!

ثم جاءت ممرضة لم نرها من قبل واستأذنتنا في تهيئة أمي -رحمها الله-

للانتقال إلى ثلاجة الموتى، وفعلا فقد ألبسوا أمي -رحمها الله- لباسًا خاصًا بثلاجة الموتى، أحداث مرَّت سريعة، وكأننا في حلم متتابع المشاهد، سريع الإيقاع.

كنا قد تأخرنا قليلا في نقل أمي -رحمها الله- إلى الثلاجة؛ انتظارًا لشقيقي الأكبر (غانم) الذي تأخر في الوصول؛ لأمور خارجة عن يده، إذْ حضر بعد دخولها الثلاجة!

أما في أثناء نقل أمي -رحمها الله- إلى الثلاجة فقد أحطنا بها (لولو، وعلي، وصالح، وأنا) كنا نمشي مع السرير، وندخل معها -رحمها الله- في المصعد، ونسير معها في الممرات، وكنا قد أوصينا ابنَ (لولو) الأكبر(عبد الله المسند) -حفظه الله- أن يمسك بيد أمه المكلومة أثناء تنقلها معنا في الطريق إلى الثلاجة، حتى كانت (لولو) تسير معنا تتهادى بين يدي ابنها (عبد الله).

وعند وصولنا مقر الثلاجة في الأسفل وصل صِهر أمي -رحمها الله- الذي كانت تعده خامس أبنائها (علي المسند) زوج شقيقتي (لولو) - حفظه الله -كما كانت خالتي أخت أمي -رحمها الله- (ليلى) قد وصلت بصحبة زوجها(أحمد الثنيان) -حفظهما الله- كما حضرت زوجتي (أم عبد الله)، فكنا جميعًا في الانتظار الخاص بالثلاجة، وبعد إجراءات نظامية، طلبوا منا أن يخرجوا بأمي -رحمها الله- في سيارة الإسعاف إلى جامع الراجحي، ليتم الغسيل والصلاة على أمي رحمها الله، وهنا تولى شقيقي الأكبر (غانم) -الذي وصل ونحن في مقر الثلاجة- إجراءات الخروج.

خرجتُ من مدينة الملك فهد الطبية في حدود الساعة الحادية عشرة ضحى، متوجهًا إلى البيت لأرى والدي -حفظه الله تعالى- وعندما ركبتُ سيارتي لم يخطر في بالي أحدٌ أتصل به إلا صديق أمي -رحمها الله- وصديق الأسرة كلها، صاحب

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الفضل علينا -بعد الله تعالى- صاحب الفضل والفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن التويجري -حفظه الله- الذي سلمت عليه، ثم بصعوبة بالغة قلت له: الوالدة تطلبك الحل يا شيخ عبد الله، وللمرة الوحيدة في حياتي يسألني الشيخ: من أنت؟ لم يسبق ولم يحصل فيما بعد أن الشيخ - حفظه الله - لا يعرف صوتي! فقد كان منذ أن يسمع تسليمي عليه، يقول : الشيخ إبراهيم؟ لكنه هذه المرة لم يعرف صوت إبراهيم! مع حرصي على ألا يخالط صوتي بكاء! غير أن البكاء غلب على النفس وخالط الصوت! دعا الشيخ -حفظه الله- لأمي نورة -رحمها الله- وتأثر ولأول مرة أسمع بكاء الشيخ عبد الله إذْ امتزجتْ عباراتُه بعبَرَاتِه!

توجهت إلى البيت وفي الطريق الدائري رجعتْ عليَّ سيارة بخطأ بيِّن من صاحب السيارة فاحتكت بجانب سيارتي، وأثّرتْ فيها، فأشرتُ إليه أني سامحتُه، ولم أزد على ذلك، ولم أنزل من سيارتي لأرى مدى الأثر الذي أصابها؛ فالأمرُ ليس خدشًا في جانب سيارة، الأمرُ فقدُ أمٍّ!

وللحديث بقية إن شاء الله...

٣٥ - نقاءٌ باتَ يغسله نقاءُ

دخلتُ بيت أمي -رحمها الله- بعد صلاة الظهر مباشرة، وهناك كان والدي -حفظه الله- وإخوتي(غانم، وعلي، وصالح) وابناي (فارس، وعبد المجيد) -حفظ الله الجميع- كلنا في بيت أمي -رحمها الله- في أول ظهر لا تكون فيه أمي على قيد الحياة! كان والدي -حفظه الله- قد طلب لنا غداءً لنجتمع، ولم يشأ أن يتركنا ويذهب إلى حيث غداؤه المعتاد في بيته الآخر، جلس والدي معنا مؤانسًا وكأنه يريد أن يشبعنا حنانا في أول ظهيرة بعد أمي - رحمها الله - جلسنا ولا أدري كيف جلسنا؟ كيف مضي الوقت من الظهر إلى ما قبل العصر؟ مضى كأنه يوم كامل أو يزيد!

وفي تلك اللحظات البطيئة الثقيلة نزلت إلينا زوجة شقيقي صالح(أم خالد) التي تسكن مع أمي -رحمها الله- في بيتها فسلمت على الجميع والدي ونحن،

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ولما نطقت « أحسن الله عزاءكم» أجهشت بالبكاء ولم تكمل عبارتها! كيف تعزِّي بصاحبة الدار؟ كيف تعزِّي بضياء المنزل؟ كيف تقول: لن تعود أمي نورة -رحمها الله- إلى منزلها مرة أخرى؟ كيف وهي تعزِّي في التي كانت بمثابة أمها حنانا وعطفًا ورعاية، كيف وهي تعزِّي فيمن كانت تعاملها طوال عيشهما معًا بكل احترام وتقدير؟

منتصف الظهيرةكنا في جامع الراجحي حيث كانت أمي -رحمها الله- على سرير التغسيل! كانت أمي في مغسلة الأموات بين يدي شقيقتي الغالية المكلومة (لولو) التي باشرت تغسيل أمها! تغسيل أمها التي صحِبَتْها طوال العمر سفرًا وحضرًا، أمها التي صحِبَت (اللولو) طفلةً وفتاةً وشابةً وعروسًا وأمًّا، صحِبَتْها يوم كانت توقظها للمدرسة، ويوم صارت تعدُّ لها أسباب الراحة في سهرها لدراستها الجامعية، صحِبَتْها أيام خطبتها، ويوم زفافها، صحِبَتْها في فرحتها بأول فرحتها بكرها (عبد الله) وبباقي ذريتها، صحِبَتْها صحبةَ الأخت أختَها! وهاهما الصاحبتان البنت وأمها في الظهيرة للمرة الأخيرة في هذه الدنيا تصطحبان! تصحب (لولو) أمي نورة -رحمها الله- ولكن دون حِراك! تصحبها (لولو) وقد خالط ماءَ الغسيل دمعُها! تصحبها صحبة خاصة؛ فإحداهما جسد دون روح! تصحبها صحبة صامتة!

سبحان من أنزل السكينة على (لولو) المكلومة حتى استطاعت أن تباشر غسيل أغلى الناس لديها أمنا نورة -رحمها الله- وهنا أتساءل كيف استطاعت (لولو) الهشّة الضعيفة تقليب أمي -رحمها الله- على جنبيها للوضوء والغسيل؟! كيف استطاعت (لولو) إدراج أمي -رحمها الله- في الأكفان؟ كيف تمكنت من تطييبها بالسدر والكافور؟ كيف باشرت بنفسها وضع المسك على المسك؟!

حُمِلْــتِ إلى المغسِّــلِ يــا حيــاتي و(لؤلــؤةٌ) تُغَسِّــلُها بِرِفــقٍ
فلــولا الــشّرعُ مــا غُسِــلَ الصّفــاءُ! نقــاءٌ بــاتَ يَغْسِــلُهُ نقــاءُ!

وقد شاركت زوجتي (أم عبد الله)-بفضل الله- شقيقتي الغالية (لولو) في غسيل أمي -رحمها الله- شاركت في الغسيل وقد كانت أمي -رحمها الله- تعدُّ زوجتي بنتًا لها! فقد كانت زوجتي تلجأ -بعد الله- إلى أمي -رحمها الله- في حل مشكلاتها، وتفريج همومها! تشاركها لأن أمي نورة -رحمها الله- أمٌ لها تتحفها بالمحبة والتقدير والمدح والثناء! كانت أمي -رحمها الله- أمًّا لزوجتي التي كانت مفتقرة إلى حنان الأم بعد موت أمها -رحمها الله- قبل سنين من معرفتها بأمي رحمها الله.

لما انتهت (لولو) ومن معها من إدراج أمي -رحمها الله- في الكفن انتقلنا مع والدي -حفظه الله- إلى المغسلة في جامع الراجحي، ودخلنا إلى حيث الطُهر المسجّى! دخلنا وقد امتلأت المغسلة بمحبات أمي نورة -رحمها الله- من أخواتي (غير الشقيقات) وزوجات أولادها -رحمها الله- حتى إذا حضر والدي -حفظه الله- وكان قد ضعُف بصرُه، اقترب من جسد أمي -رحمها الله-فتلمّس رأسها وقبَّلها بدمعٍ ودعاء! ولم يتكلمْ مع أحدٍ! ولم يزد على توديع أمي -رحمها الله- بهذا المنظر المهيب.

ثم حضر خالي صالح شقيق أمي -رحمها الله- الذي طالما عاش معها الحلوة والمرّة ! دخل فتوجَّه إلى وجهها المشعّ من الكفن، فقبَّلها متماسكًا إلا أنه قد غلبه البكاء بصوت رفيع مما جعله ينسحب مباشرة من المكان دون أن يلوي على أحدٍ!

أذكر أنني في أثناء هذه المناظر من التوديع كنتُ أتحسس جسد أمي -رحمها

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الله- من خلف الأكفان، وأمرر يدي على كامل جسدها، ملامسًا ومقبِّلا دون أن أحدِّث أحدًا أو يحدِّثني أحد! وكأنني أرجو أن أحظى بجزء متحرك من جسد أمي -رحمها الله-! ولما انتهينا جميعًا من السلام على أمي -رحمها الله- خرجنا من المغسلة لتباشر (لولو) تغطية وجه أمي -رحمها الله- حتى تتم عملية التكفين، لنذهب بالجسد الطاهر من المغسلة إلى مقرِّ الصلاة.

بعد ذهابنا بأمي -رحمها الله- إلى مقدمة المصلين في المكان المخصص للأموات اتصلت بي ابنة خالي(البندري) -حفظها الله- وسألتني قائلة: إبراهيم أنا في الجامع الآن؟ كيف أصل إلى المغسلة للسلام على عمتي؟ فاعتذرت منها بأن أمي -رحمها الله- الآن خارج المغسلة، وأنها في الجامع مما يصعب معه دخول (البندري) إلى حيث مكان الرجال! ويا للمفارقات العجيبة كانت أمي -رحمها الله- قد أجرت آخر اتصال هاتفي في حياتها بـ(البندري)، وها هي البندري تجري الاتصال ولكن دون أن تتمكن من اللقاء حتى بجسد أمي رحمها الله.

انتظرنا صلاة العصر لنصلي على أمي -رحمها الله- انتظرنا وقد توافد الناس للصلاة قبل الأذان! وكان بعض المعزين يتوجهون قبل الصلاة إلى والدي وخالي صالح -حفظهما الله- ومن معهما من إخوتي في الصف الأول للعزاء، حتى إذا أقيمت الصلاة صلينا الفريضة صلاة لم يقف فيه ذرف الدموع، فلما فرغ إمام الجامع د.حمزة الطيار من صلاة العصر نادى بالمصلين: الصلاة على الأموات، الصلاةعلى ثلاثة رجال وامرأة ! ولا أظن الإمام يعلم ما وقْعُ كلمة (امرأة) علينا تلك اللحظات التي بدأ فيها العدُّ التنازلي لبقاء تلك هذه (المرأة) على ظهر الأرض!

كبَّرنا على أمي -رحمها الله- أربع تكبيرات، ويا لتلك الكلمات التي ختمنا بها صلاتنا: « اللهم اغفر لها وارحمها، وعافها واعف عنها، وأكرم نزلها، ووسع مدخلها، واغسلها بالماء والثلج والبرَد، اللهم نقها من الذنوب والخطايا كما يُنقى

الثوب الأبيض من الدنَس، اللهم قابلها بإحسانها إحسانا وبسيئاتها عفوا منك وغفرانا، ... اللهم لا تحرمنا أجرها، ولا تفتنا بعدها ...»، وإذا بالإمام يقول: السلام عليكم ورحمة الله، معلنًا آخر لحظات أمي -رحمها الله- في الجامع! لنتسابق -نحن أولادها ومن معنا من محبيها- إلى حمل النعش، متوجهين به إلى سيارة أخي غانم.

وهو ما سأتحدث عنه في الحلقة القادمة إن شاء الله...

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣٦ - من المسجد إلى المقبرة، الطريق الذي تمنيت أن يطول

خرجنا من باب الجنائز؛ الباب الغربي لجامع الراجحي حاملينَ على أكتافنا أمي نورة -رحمها الله- حاملين على أكتافنا أمي التي طالما حملتنا! حملتنا في بطنها، حملتنا في حجرها، حملتنا على كتفها، حملتنا بين يديها، حملتنا وحملت همومنا وآلامنا! حملت مشكلاتنا أطفالا، وشبابا، وأزواجا، وآباءً! حملنا أمّنا وهي الحمّالة! توجهنا بها -رحمها الله- إلى سيارة شقيقي (غانم) الذي آثر أن تكون معه في سيارته في آخر مشوار لأمي نورة -رحمها الله- تركب فيه سيارة في حياتنا الفانية!

ومن الموافقات العجيبة أن أول سيارة تركبها أمي -رحمها الله- لأحد أولادهاكانت سيارة ابنها الكبر شقيقي(غانم)! عندما ركبتْ مغتبطة أن ابنها الأكبر قد بلغ مبلغ الرجال وصار معه سيارة! كان ذلك قبل نحو من ثلاثين عامًا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

من ركوب أمي -رحمها الله- الأخير مع (غانم)!ويالله كم بين الموضعين من فرق!

والحمد لله أن أتم الله لأمي نورة أمي -رحمها الله- النعمة بأن يكون أولادها هم خدامها، طوال حياتها، حتى إنهم لم يضطروها إلى سائق! حتى في آخر مشوار لها في هذه الدنيا؛ مشوار (الجامع - المقبرة)!

مما أذكره ذلك اليوم أن أخي الفاضل (د.خالد العيد) لَحِق بنا خارج المسجد ليسلِّم علينا معزِّيا،ولا زلت أُكبر له خروجه حافي القدمين،ووقوفه عند باب سيارة أخي (غانم) مسلِّما معزِّيا، ومكث حتى ركبنا السيارة، شكر الله له مواساته!

ركبنا مع أمي نورة أمي -رحمها الله- في السيارة، والدي -حفظه الله- في الأمام بجوار شقيقي (غانم) قائد السيارة، وخالي صالح (أبو عبدالعزيز) خلف والدي -حفظهما الله- وأما شقيقي (علي) ومحمد المانع ابن خالي صالح، وأنافكنا في المرتبة الخلفية ملاصقين نعش أمي نورة -رحمها الله- تماما،وكنا طوال الطريق أخي(علي) وأنا لم نكفَّ عن تقبيل جسد أمي -رحمها الله- تقبيل ما أمكننا تقبيله من يديها، وقدميها،تقبيلا يشفي نفوسنا وإن كان بيننا وبينها -رحمها الله- الأكفان والغطاء الذي يعلو النعش!

كان المدخل إلى الحي الذي فيه منزل أمي -رحمها الله- يقع على الطريق بين جامع الراجحي والمقبرة، ولما مررنا به ذهب ذهني كل مذهب، وحلَّق بي الخيال، وعادت بي الذكريات سنين عددا، تذكرتُ كم مرة كانت أمي -رحمها الله- تشرفني في سيارتي ونحن ذاهبون أو راجعون من هذه الطريق نفسها!

كم مرة تشرفت بأمي -رحمها الله- آخر المساء وهي تحكي لي في السيارة أخبار زيارتها لزوجة أبيها خالتي (منيرة البليهد) التي كانت تحب زيارتها، وتأنس بها!

كم مرة عدنا من بيت (لولو) أمي -رحمها الله- وأنا نتجاذب الحديث في هذه الطريق، وقد شارفنا على الوصول إلى المنزل.

كم مرة مررنا بهذه الطريق ذاتها عائدين من جلسة محبة وود في بيت خالي صالح -حفظه الله- وقد أهدى أمي -رحمها الله- بعض الخضروات والورقيات الجاهزة كعادته في انتقاء الجميل لشقيقته!

عادت بي الذاكرة في هذه النقطة من الطريق إلى مساء العيد الذي كنت أخرج فيه مع أمي -رحمها الله- للاستمتاع بالألعاب النارية!

عادت بي الذاكرة وقد مررنا من مدخل الحي إلى ما قبل شهرين تمامًا عندما ركبنا في السيارة أمي -رحمها الله- وخادمتها وأنا متوجهين إلى مدينة الملك فهد الطبية، وهي تقول لي : ترى هذه يا وليدي آخر مرة أروح للمستشفى!

وهكذا كنت في مشوارنا للمقبرة بين شريط ذكريات، ودموع، ودعاء، ووابل من القُبُلات!

من يعرف طبيعة أخي (غانم) -حفظه الله- يعلم أنه هادئ في أموره كلها؛ بما في ذلك قيادته للسيارة التي لا يجاوز فيها سرعة ٧٠ - ٨٠ في السفر ولا داخل المدينة إلا ما ندر! وهذا الأمر كان يضايقني ويضايق غالب من يصحبونه في مشاويره ! إلا أنني في طريقنا للمقبرة مع (غانم) المتأني كنت مرتاحًا جدًا لهدوئه في السير، الهدوء الذي من شأنه أن يطيل مدة ملاصقتنا لجسد أمي -رحمها الله- الممدَّد أمامنا ! لأول مرة أحمدُ لأخي (غانم) هدوءه في السير!

ومن الأمور التي كنت أغالط نفسي فيها في طريقنا للمقبرة: أنني كنت أصوب نظري لجسد أمي -رحمها الله- كاملا من رأسها إلى أسفل قدميها، وأضع يدي

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

على صدرها وباقي جسده، قائلا في نفسي -وأستغفر الله- : « ما ذا لو تتنفس أمي الآن ؟!ماذا لو كانت في غيبوبة، وليست وفاة؟!» حديث نفسٍ مكلومة! حديث نفسٍ مصابة بمصيبة الموت! موت مَنْ ؟! موت حياتي!

دخلنا باب المقبرة...

وهو الموضوع الذي سيكون الحديث عنه في الحلقة القادمة إن شاء الله ...

٣٧ - على شفير القبر

راكان المسند ابن شقيقتي لولو حفظهما الله عند قبر أمي رحمها الله

عصر السبت ٣ / ٣ / ١٤٣٠هـ دخلنا المقبرة، أمي -رحمها الله- مسجاة في السيارة حولها شقيقي علي، ومحمد المانع ابن خالي صالح وأنا، أما والدي وخالي صالح -حفظهما الله- فهما في المقاعد الأمامية، وشقيقي غانم -حفظه الله- يقود السيارة بهدوء وروية كعادته في السير، وقد أضيف إلى هدوئه المعتاد اليوم رهبة الموقف، وخصوصية المكان، وعظيم الخطب! الناس قد تجمهروا في المقبرة إذ سبقونا، ينتظرون وصول الجنازة! جنازة أمي نورة -رحمها الله- منهم من صلى عليها في الجامع وسبقنا إلى المقبرة، ومنهم من كان ينتظر الصلاة في المقبرة على الجثمان الطاهر!

لا زلت أذكر في لحظة دخولنا المقبرة ووصولنا قريبا من القبور شخصين -لا أدري لماذا عَلِقا وحدهما في ذهني دون غيرهما- كانا ينظمان السير، ويهيئان

الطريق للسيارة لتقترب من القبر! أحدهما قريبنا الفاضل (أحمد الحبيِّب)، والآخر صديقي الغالي (محمود القويحص)، وإن كان الحضور كثيرًا، لكن لا أدري لماذا علق في ذهني مرأى هذين الفاضلين -فقط- وهما يرتبان للسيارة الدخول بين جموع المشيِّعين!

هبَّ المشيِّعون لإنزال نعش أمي -رحمها الله- من السيارة، وسرعان ما اصطفت الصفوف للصلاة عليها قبل دفنها -رحمها الله- ثم توجهوا بها إلى القبر! وهنا استأذنت والدي -حفظه الله- أن أترك ملازمته قليلا، لأنني بحمد الله وفضله عليَّ قد اعتدت ملازمته في ذهابه ومجيئه، فاستأذنته أن ألازم القبر، ولو ابتعدتُ عن ملازمته -حفظه الله- في هذه اللحظات فأذِن لي، قائلا : خذ راحتك يا وليدي، الله يعينك!

وهناك نزل في القبر شقيقاي الفاضلان(غانم وعلي) -حفظهما الله- ومعهما رجل متطوع -لا أعرف اسمه- ممن اعتاد تقديم النفع للآخرين في مثل هذه المواقف جزاه الله كل خير.

أُنزِلت أمي نورة -رحمها الله- في قبرها على مرأى منّي ! ولم أملك -ساعتئذ- إلاملامسة جسدها الطاهر بيديَّ وهو يُسجَّى في اللحد! وكأني أودِّعها بآخر لمسة قبل الحشر! أودِّعها مردِّدا مع الجموع المشيِّعة: «بسم الله، وعلى ملة رسول الله» ! اللهم صلِّ على رسول الله وسلِّم.

جلستُ على شفير القبر من جهة رأسها مستقبلا وجه أمي -رحمها الله- جلستُ أرقبُ حالة الدفن، شقيقاي غانم وعلي والرجل الفاضل يتناولون اللبناتِ من الرجال المشاركين في الدّفن : «هات لَبنةً، خذ هذه، أعطنا أكبر منها، اخلط معها الطين»، كلمات أسمعها ولا أميِّز من الذي يقولها! لأني مشغول في صمتي،

صامت في شغلي، ذاهل عن الجموع المكتظة حول القبر أفواجًا أفواجًا، حِلَقًا حِلَقًا، لا أكاد أميِّزُ منهم أحدًا -شكر الله لهم جميعهم- فقد أتاني ما يشغلني!

بقيتُ طوال مدة الدفنِ صامتًا لا أتكلمُ بكلمة واحدة، ليس إلا تمتمات الدعاء، وبللُ الخدين بصامت البكاء! لم يقطع عليَّ صمتي إلا شقيقي (صالح) -حفظه الله- الذي كان يجلس على شفير القبر عن يميني، قطع عليَّ صمتي عندما أسرَّ إليَّ بصوت باكٍ متقطِّعٍ لا يكادُ يُبين! أشار إلى جسد أمي -رحمها الله- الذي غطت اللبنات نصف لحده، وكاد أن يتوارى عن أنظارنا، وقال : «إبراهيم! يعني خلاص هذه آخر مرة نرى أمي -رحمهاالله-» ! وقعت كلمته عليّ كَوَقْعِ الصاعقة، عند ذلك شددت بيدي على يده، ولم أجبه بكلمة واحدة، إلا أننا صالح وأنا لم نزد على أن طأطأنا رأسينا وأجهشنا بالبكاء! لا أحد ممن حولنا ساعتها يعلم ما الذي دار بين الابنين المكلومين.

الآن انتهى صفُّ اللبنات، ووضع الطين على الفُرجات بين تلك اللبنات! ولم يبق إلا أن يصعد شقيقي (علي) من القبر؛ لأنه كان آخر الثلاثة صعودًا من القبر بعد صعود الأخ الفاضل المتطوع، وصعود شقيقي (غانم) ليتسع المكان في صف اللبنات، عندئذ صعد (علي) من القبر وكان هو وغانم آخر من لامست أيديهم جسد أمي -رحمها الله- ويا لَغبطتهما بذلك!

خلا القبر الآن إلا من نزيلته أمي نورة -رحمها الله- وتنادى المشيعون يُهيلون التراب، : «شاركوا في الأجر، احثوا ثلاثًا، افسحوا المجال لغيركم»، كل ذلك كان يتم وإبراهيم ما زال في صمته ودعواته وعبَراته! ومع تطاير الغبار من القبر كنت مع عامة من حضر مشغولًا بالدعاء: « اللهم ثبّتها بالقول الثابت، اللهم ثبِّتها عند سؤال الملَكين، اللهم اجعل قبر أمي روضة من رياض الجنة»، وهكذا مضت لحظات الدفن بالأيدي، فتعالت أصوات المساحي وهي تزيد من الدفن! وأُهيلت بعد ذلك

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الحصباء، ورُشَّ القبرُ بالماء!

تنادى الحاضرون: اسألوا لها التثبيت، فإنها الآن تُسأل! وقف عدد لا بأس به على القبر يدعون لأمي -رحمها الله- ويسألون لها التثبيت، يتقدمهم والدي -حفظه الله- وخالي صالح وزوج شقيقتي(لولو) الغالي علي المسند، وأبناء خالي عبدالله الفضلية -رحمه الله- والأقارب والمحبون، والأولاد والأحفاد، ومن أعرف ومن لا أعرف!

عند ذلك جلست عند رأس أمي -رحمها الله- مستقبلا القبلة رافعًا يديّ متوجِّهًا لربي، ملحًّا بالدعاء المختلط بأحرِّ البكاء! وحقًّا لا أدري كم بقيت على تلك الحالة! إلا الذي أعرفه أنني أطلت إطالة عرفت مقدارها من خلال أن المعزِّين -جزاهم الله خيرًا - كانوا قد انتهوا من تعزية والدي -حفظه الله- ومن معه، ولم يبق ممن لم يستقبل العزاء إلا أنا فانتظرني من انتظرني مشكورًا، وغادر المقبرة من غادر مأجورًا معذورًا !

كنت في جلستي هذه عند رأس أمي - رحمها الله - للدعاء بين دافعين يتجاذبانني! دافع مراعاة الجموع التي أودُّ ألا أؤخرهم في الانتظار لتقديم العزاء، ودافع رغبتي في المكث بجوار أمي -رحمها الله- في أول ساعة في منزلها الجديد الذي هي أحوج ما تكون فيه إلى دعوة من ابنها الذي طالما رعته ولازمته ولم تبخل عليه بنصحها ولا مالها ولا وقتها ولا دعائها! وأخيرًا فقد غلّبتُ الدافع الآخر فمكثتُ ما شاء الله أن أمكث بجوار أمي -رحمها الله- حتى إذا قمتُ من عندها كأنني أنتزع نفسي انتزاعا، توجهتُ مباشرة إلى حيث يقف والدي -حفظه الله- فقبّلت رأسه ويديه وقدَّمتُ له العزاء دون أن أكثر من الألفاظ؛ لأني أعلم أن كلامي سيهيِّج المزيد من بكائي! قال لي والدي -حفظه الله- «وينك يا رَجّال! الناس يسألون عنك!» ثم اصطففت بجوار والدي مستقبلا المعزِّين الذين لم يملوا من طول الانتظار،

فجزاهم الله عني خير الجزاء! أذكر منهم في ذلك الموقف شيخي الفاضل الذي درّسني في المرحلة المتوسطة والثانوية الشيخ (صالح الشايع) أتم الله عليه عافيته، فهو من الذين علقوا في ذهني، وأثّر في نفسي مكثه، واحتسابه، وسعة صدره في انتظاري لمواساتي وعزائي!

خرجتُ من المقبرة بصحبة ابنيَّ (فارس وعبد المجيد) -أصلحهما الله- في سيارة الأكبر منهما (فارس)، وتوجهنا إلى البيت قبُيل المغرب، ودخلتُ لأغيِّر ملابسي، ثم توجهت بعد صلاة المغرب إلى بيت والدي -حفظه الله- حيث مجلس العزاء!

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

٣٨ - الأماكن *

شقيقي الغالي علي

انتهت أيام العزاء التي توافد فيها المعزّون المحبون لأمي نورة -رحمها الله- توافدوا رجالا ونساء مقدمين العزاء، مرددين الدعاء، متذاكرين لأمي -رحمها الله- الذكر الحسن والثناء، شكر الله للجميع، شكر الله لهم حضورهم واتصالهم ومراسلاتهم، دون إمكان تسمية أحد منهم هنا.

ولما انتهت تلك الأيام صار أهل المصيبة كمن استيقظ من النوم، أو عاد من السفر، عدنا نحن أولاد أمي نورة -رحمها الله- إلى الحياة التي كانت تملؤها أمي -رحمها الله - عدنا إلى الأماكن التي كانت عامرة بأمي -رحمها الله- عدنا إلى حيث الطيف والذكريات، عدنا إلى اليوم المصحوب بعبق الأمس!

صار كل شيء يذكّرنا بأمي نورة -رحمها الله - كل شيء بمعنى كل شيء! إلا أنني أذكر هنا بعض المواقف أو (الأماكن) التي عدت إليها للمرة الأولى بعد رحيل

* جاءت فكرة هذه الحلقة من إحدى المتابعات الكريمات، اقترحت أن تكون حلقة لما بعد وفاة أمي نورة رحمها الله ، فلها الشكر.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

أمي نورة -رحمها الله- فكانت عالقة في ذهني وكأن أمي -رحمها الله- معنا لم تفارقنا! وكأنها بيننا لم ترحل عنا!

أول مكان أشير إليه هنا بإيجاز هو (غرفة أمي) -رحمها الله- حيث دخلناها (لولو وعلي وصالح وأنا) لتوزيع ما بقي فيها من حاجات، والتصدق بما تملك الراحلة الغالية التي جُبلت على حبّ الصدقات! دخلناها معًا وكل واحد منا يدافع البكاء ولا يستطيع، يحاول التماسك ولا يقوى، كنا نفتح خزانات الملابس فنرى النور في ملابس نورة -رحمها الله- نرى المكيفات، والأبواب والمرايا، والهبّود (الفصفص الصغير)، وسجادات الصلاة، وبرادة الماء، والسرير ولحافه، نرى الهاتف الذي طالما هاتفتنا -رحمها الله- منه، نرى ونرى... فيختلط - مع التجلّد- الدعاء بالبكاء.

وهنا أذكر أن أخي (عليا) حفظه الله خرج من الغرفة مسرعًا، وتوارى عن الأنظار لأمر رآه ! خرج ليخفي عنا البكاء الغالب، خرج لأنه رأى صورته الشخصية يوم كان طفلا وقد علّقتها أمي رحمها على مرآة التسريحة في مكان مميز بحيث تراه يوميا! تفاجأ أبو تركي بصورته هنا! تفاجأ والله أعلم ما الذي دار في خَلَده آنذاك ! والله أعلم مدى الشوق والحنين الذين جذباه إلى من تعلق قلبها بولدها وعلّقت صورته في مرآتها!

ساعة أو ساعتان أمضيناها في غرفة أمي - رحمها الله - وكانت قد فرغت تماما، كل شيء فيها ذهب إلى طريقه صدقة أو إهداءً، وكانت أمي -رحمها الله- في هذه اللحظة وهي في قبرها في يومها الرابع قد أعطتنا درسًا مهمًا في الترتيب والنظافة ووضع كل شيء في مكانه، فمع أنها قد فارقت غرفتها -رحمها الله- قبل أشهر من وفاتها شهرين كاملين في المستشفى، وقبلهما كانت في المنزل في غرفة أخرى لصعوبة صعودها إلى غرفتها الرئيسة، مع ذلك كله، إلا أننا دخلنا على مكان

مرتّب غاية الترتيب، الجناح كله لا ينقصه إلا من كانت سنين عديدة تعمره! رحمها الله رحمة واسعة.

ومن الأماكن التي لا يمكن أن أنساها في أول ورود لها في حياتي بعد أمي نورة -رحمها الله- الطائرة حيث كنت كثيرًا ما أصحب أمي -رحمها الله- في رحلات السفر للعمرة كثيرًا ولغيرها أحيانًا، وشاء الله تعالى أن أسافر لحضور دورة تدريبية بعد وفاة أمي -رحمها الله- بشهر تقريبًا وهناك كانت الذكريات المتجددة، فالكرسي الذي أمامي كان منبع الذكرى ومصدرها، ولا أبالغ إذا قلت إنني طوال الرحلة كنت أتراءى أمي -رحمها الله- معي في الطائرة، أذكرها عند الإقلاع والهبوط، عند ربط الحزام وفكّه، عند ترداد دعاء السفر، كل صغيرة وكبيرة في الرحلة أتذكر فيها أمي -رحمها الله- وأنا حديث عهد بمصاب!

ومما لا أنساه من الأماكن التي كنت أرتادها مع أمي -رحمها الله- منزل شقيقها خالي صالح المانع -حفظه الله- ذلك أني زرته بعد وفاة أمي -رحمها الله- مسلِّمًا عليه وعلى زوجته الكريمة، فأجلسني خالي أبو عبد العزيز حيث كانت تجلس أمي -رحمها الله- في الصالة، وعلى المقعد نفسه، ولم يكتفِ بذلك بل أطال في الحديث عنها وهو المصاب مثلنا بها، صار يسرد لي الأحاديث التي كنت تدور بين الشقيقين في هذه الصالة، والنكت والطرائف، والمودة الطبيعية، ثم ما كان يعطيها إياها من الخضروات والورقيات عند خروجها، وكيف كان يوصلها إلى منزلها بنفسه، وحينما أكرمني بالزنجبيل أثناء حديثنا خنقته العَبرة وقال كأني أمدُّه لنورة وهي معنا! وهكذا تستمر نورة -رحمها الله- مع أحبابها حتى بعد وفاتها.

ومما لا أنساه من بواعث ذكرى أمي نورة -رحمها الله- زيارة المسجد الحرام! الزيارة الأولى بعد وفاتها، الزيارة التي أكون فيها وحيدًا دون أمي! فلا ترداد أدعية، ولا عربة السعي، ولا الجلوس عند ماء زمزم معًا، ولا الصدقات الموزعة على

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

العاملين في الحرم، مشاهد كثيرة كانت تتكرر معي كلما صحبت أمي -رحمها الله- للعمرة، أين هي الآن؟ لم يبقَ من المشاهد وصاحبة المشاهد إلا طيف الذكريات!

ولا يمكنني أن أنسى عيادتي أحد المرضى المنوّمين في مدينة الملك فهد الطبية بعد وفاة أمي نورة -رحمها الله- بأشهر، عدته فهاجني استعبار! عدته مسلّمًا فكان كل شيء يوحي إلى بالأيام التي لازمنا فيها أمي -رحمها الله- في هذا المشفى، بدءًا ببوابة المشفى، فمواقف السيارات، فالمصاعد، والممرات، والأجنحة، والمصلى، وغرف الانتظار، حتى كدت أُشغل عن عيادتي ذلك المريض بشريط الذكريات الماثل أمام ناظريَّ بالتفاصيل الصغيرة التي كانت هنا، هنا يوم أن كانت أمي هنا! رحمها الله رحمة واسعة.

ومن المواقف التي كان عسيرًا عليَّ جدًا كتمان دمعي فيها زيارتي الأولى منزل زوجة والد أمي -رحمهما الله- زيارة خالتي منيرة البليهد-حفظها الله- الزيارة التي لم أكن أدخل بيتها إلا بصحبة أمي -رحمها الله- كنت متماسكًا نوعًا مّا عند وصولي شارع بيتها، ضعفت قليلا عندما رأيت باب المنزل، ازداد الضعف عند طرق الباب، انهرت تمامًا عندما قبّلت رأس خالتي ويدها وهي منفجرة بالبكاء قائلة يالله حيّه، الله يرحم نورة، الله يرحم أميمتك، فهيّجتني على البكاء الذي كنت أصلا أدافعه مدافعة، فما كان منا إلا بكينا حتى فرغنا للحديث! نسأل الله اجتماع الجنة.

وأما ما لازمني طويلا في تجدد ذكرى أمي -رحمها الله- فهو مقعد سيارتي الأمامي الذي كان محل جلوس أمي-رحمها الله- حتى إنني كنت بعد وفاة أمي -رحمها الله- في مشاويري المنفردة ألتفت إلى يميني حيث المقعد الخاوي، فأعلّل نفسي أن أمي فيه ! بل ربما -وقد حصل لي غير مرّة- أنني أحاور أمي بتوجيه الحديث لها من نحو: مسّاكِ الله بالخير يمّه، هلا يُمّه، الله يحييك يا أميمتي!

وليس ثمة إلا المقعد الخاوي!

وأخيرًا فإن من أعز الأماكن على نفسي بعد وفاة أمي نورة -رحمها الله- ذلك المكان الذي كثيرًا ما كان محل اجتماع أمي -رحمها الله- بأحبابها، ذلك المكان الذي كان محل الكرم والضيافات، (ديوانية أمي نورة) رحمها الله رحمة الأبرار، ومن حبي ذلك المكان، كنت بعد وفاة أمي أجلس فيه وحدي أحيانًا، ومع بعض أحبابي وضيوفي أحيانا أخرى. أجلس في تلك الديوانية ولم يتغير فيها شيء، ومع ذلك فقد فقدت كل شيء! فقدت نورها وبهجتها ورونقها! فقدت روحها، فقدت صوت أمّي المرحِّبة بأولادها وضيوفها!

يـا ربِّ إنْ خَلَـت المنـازلُ بعدَهـا فلديـكَ في (الغُرُفـاتِ) نِعْـمَ الملتقـى

والحمد لله رب العالمين أن يسّر كتابة الحلقات، تمت بحمد الله.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الملاحق

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

ما بعد الوفاة

المقال والقصائد (الزفرات السبع) كُتبت ونُشرت متفرقة بعد وفاة أمي نورة رحمها الله، أحببت إعادة نشرها مع حلقات هذا الكتاب، أضيفت هنا بعد الانتهاء من حلقات الكتاب كاملة، وبعد قراءة الأستاذ الدكتور علي النملة وتقديمه سلمه الله.

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وداعًا يا كرسي أمّي

كان ضحى يوم الأربعاء ٣ / ١ / ١٤٣٠هـ هو اليوم الأخير الذي تشرفت فيه بأن أكون خادم أمي – رحمها الله تعالى – في كرسيها المتحرك الذي طالما كان لي معه ومعها صحبة !

(كرسي أمي) فارقها أو فارقته ضحى ذلك اليوم دون عِلم أحد منا (نحن الثلاثة) أن ذاك الضحى هو آخر ساعة ستجمعنا معًا كما اجتمعنا أيامًا عديدة، ذهبنا ذاك الضحى إلى مدينة الملك فهد الطبية لمراجعة اعتيادية ! ولكن الطبيبة الاستشارية أصرت على تنويم (أمي نورة) لأن حالتها لا تسمح بخروجها، فرجعت مساءً أنا والكرسي دون أمي، حيث مكثت أمي – رحمها الله – في المستشفى من ذلك الضحى ١٤٣٠/١/٣ هـ إلى أن كتب الله الخروج منه ضحى السبت ١٤٣٠/٣/٣هـ ولكن هذا الخروج كان إلى مغسلة الأموات في جامع الراجحي ! وبالطبع خرجت

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

محمولة ولم يصحبها كرسيّها !

وفي العشر الأواخر من رمضان المبارك ١٤٣١هـ أخذت (كرسي أمي) رحمها الله، معي إلى مكة المكرمة لأجعله في المكان الذي طالما كانت ترتاح فيه حيث الحرم الشريف، صحبت (الكرسي) وليس عليه (أمي) ! وطلبت من القائمين على خدمة ضيوف الرحمن أن يقبلوه (وقفًا للمسجد الحرام)، وبكل أريحية ولطف أخذه أحد شبابنا السعوديين العاملين في المكان المخصص للعربات ليكتب عليه (وقف للمسجد الحرام) وودعني بالدعاء لمن كانت تنير هذا الكرسي رحمها الله.

خرجت مودِّعًا (كرسي أمّي) وأنا أحمل معي أحمالاً من الذكريات !

أسائلك أيها (الكرسي) أتذكر مثلي عندما كانت (أمي نورة) رحمها الله تجافي ظهرها عنك حتى تخفف عليَّ دفع الكرسي !

أتذكر عندما كانت – رحمها الله – تقول لي بحضورك يا وليدي بإمكاني أن أمشي، خلني أنزل تعبتك يا ولدي !

أظنك لم تشعر بها – رحمها الله – وهي تخرج من حقيبتها ما تفرح به العاملات والعاملين في المستشفى والممرضات بما تخفيها حتى عنك لئلا تحرج المحتاج !

لكنني أظنك كنت تراني وأنا أرتفع على الدنيا كلها حينما أنزل إلى موضع (قَدَمَيْ أمي) رحمها الله ؛ لأصلح لها موضع القدمين منك أيها الكرسي، وهي تردد كلما تكرر مني هذا العمل (الله يرفع قَدْرك يا ولدي) .

أيها الكرسي هل كنت تشعر بالغبطة والسرور عندما تراني أقبِّل (رأس أمّي) رحمها الله أثناء سيرنا من وإلى العيادات وهي ترد على قبلاتي بقولها (حبِّكْ ربّي).

أيها الكرسي ما شعورك وأنت تستمع إلى أحاديثنا الطويلة التي أحاول بها أن أخفف على (أمي) رحمها الله طول الانتظار في (شباك الصيدلية) .

أيها الكرسي كيف كنت وأنا أدنيك جدا من باب السيارة حتى لا أضطر (أمي) رحمها الله أن تمشي خطوة واحدة !

وأخيرًا (أيها الكرسي) هل شعرت بي وأنا وأنت فقط عند الحرم عندما قبّلتك أنت قبلات ممزوجة بدموع تتوارى عن أعين المعتمرين ! نعم قبّلتك وأنا أستحضر ذلك الجسد الطاهر الذي كان عليك يومًا من الدهر ! قبّلتك ولكني لم أسمع هذه المرة (حبِّكْ ربّي) !

رحم الله أمي الغالية (نورة بنت عبد العزيز بن غنيم المانع) التي لا تزيدنا أيام فراقها إلا تعلقًا بها، وشوقًا إليها .

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

ليلة ٢٧ رمضان ١٤٣١هـ

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

الزفرة الأولى : وفي الجنّاتِ يا (أمّي) اللقاءُ

أعتذر إليك أمّي عن هذه الأبيات التي لا تعادل شيئًا من حقّكِ عليَّ، ولكنها نفثة مصدور، وهذه هي (الزفرة الأولى)

نورة بنت عبد العزيز الغنيم المانع

رحمك اللّه إذ ودّعتِ حياتنا الفانية صباح ٣ / ٣ / ١٤٣٠هـ

أعزيــكِ أ(لؤلــؤةٌ) و(نَفــسي) ... و(إخــواني)، فمِــنْ ربّي العــزاءُ

لَقَــدْ بُلِيَــتْ (حبيبتُنــا) بأمْــرٍ ... جَســيمٍ، لِلحشــا فيــهِ اصطــلاءُ

تَمَــزّقَ (بطنُهــا) مِــنْ كلِّ جَنْــبٍ ... وعنــدَ اللــهِ للبلــوى جــزاءُ

تُعــاني أمّنــا (عَطَشــاً) مُميتــاً ... أيُــرْوِي بــيَنَ (منديلــينِ) مــاءُ؟!

تحــيَّرَ (طِبُّهــمْ) في شــأنِ (أمّــي) ... فــما أجــدى لأمــراضٍ دواءُ !

مشــايخُ يقــرؤون كتــابَ ربّي ... عــلى جَسَــدٍ تغشّــاهُ البــلاءُ

فَكَــمْ كانــتْ تنــادي في خفــوتٍ: ... فيكْبــو دونَ مَسْــمَعِنا النّــداءُ

إلهــي ربِّ لا تُطِــلِ البلايــا ... وعنــدَكَ مِــنْ شــديدتنا رخــاءُ

أشَــوْقاً للرّحيــلِ إلى إلهــي ... (فأمّــي) في ضيافَــةِ مــنْ تشــاءُ

دهانــا المــوتُ، قوِّضَــتِ خيــامٌ! ... رحلــتِ أ(أمّــي) أيــنَ لنــا الغِطــاءُ؟

لنــا (أمٌّ) وأيــن وِزانُ (أمٍّ) ؟ ... عزيــزٌ فَقدُهــا، ذاكَ العنــاءُ

فــوا حُــزني (صبــاحَ السّــبتِ) إنّي ... فُجِعْــتُ بهــا، وللأجــلِ انقضــاءُ

هُرِعــتُ إليــكِ في المَشــفَى لعــلّي ... أرى أمّــي، وقــدْ ســبقَ القضــاءُ

عــلى الصــدرِ الحنــونِ وضعــتُ خَــدّي ... أغالــطُ نفــسي إن نفــعَ الرجــاءُ

أهامِسُها : أحقاً ذا رحيلٌ ؟! أجسُّ النَبْضَ ! هل هُدِمَ البناءُ؟
فقبَّلتُ (الجبينَ) جبينَ طُهْرٍ و(يُمناها) التي منها العَطاءُ
و(عينيها) وقدْ شَخَصَتْ لِرَبٍّ و(يُسْراها) و(بَطْناً) لي وِعاءُ
و(ساقاً) حينَ مُدَّت جَنْبَ (ساقٍ) و(بطنَ الرِجْلِ) حيثُ لها حِذاءُ
دعائي حينَها : رُحْماكِ ربّي وثَبِّتْ (أختي) إذ فَدَحَ البلاءُ
أشرتِ بـ(أصبعِ التوحيدِ) أمّي تمنّى ذا (الخِتامَ) الأتقياءُ
حُمِلْتِ إلى المغسِّلِ يا حياتي - فلولا الشّرعُ- ما غُسِلَ الصّفاءُ!
و(لؤلؤةٌ) تُغَسِّلُكِ بِرِفقٍ نقاءٌ باتَ يَغْسِلُهُ نقاءُ!
و(خالي) بعدَ تغسيلٍ أتاها (أبو عبدِ العزيزِ)، وذا ابتلاءُ
فَقَبَّلَها وحَشْرَجَ ثمَّ ولّى علا منهُ أيا (أمّي) البكاءُ
أيا (خالي) عزيزٌ فَقْدُ (أختٍ) ففي (ضَحَواتِكمْ) يحلو الصّفاءُ
وجاءَ (أبي) فَقَبَّلَكِ بحُزن دموعُ الصادقينَ لهمْ وفاءُ
(شريطُ الذكرياتِ) طواهُ دَمْعٌ (شريكةُ عُمري) يا أينَ الإخاءُ؟!
وفي الأكْفانِ (أمّي) أرى ابتساماً (أحبّتها) دنا لهمُ اللقاءُ!
بِحَمْدِ اللهِ لَحَّدَها بنوها (عليٌّ) (غانمٌ)، ذاك السّناءُ
وقفْتُ على (شفيرِ القبْرِ) عصراً دموعُ العينِ زادي والدعاءُ
صَمُوتٌ عندَ قبْرِكِ في ذهولٍ أحقاً غِبْتِ عنّا يا ضياءُ
أسرَّ إليَّ (صالحُ) في خفوتٍ: أ(إبراهيمُ) هلْ خُتِمَ اللقاءُ؟!
أ(صالحُ) كُفَّ، لا تَزِدِ المآسي فطأطأنا، وزادَ بنا البكاءُ
أمَا والتُرْبُ قدْ غطّتْكِ (أمّي) فغايةِ مُنْيَتي أني الفِداءُ!
وكيفَ يطيبُ عَيشي فوقَ أرضٍ و(أمّي) تحتَها ؟ أنّى الهناءُ؟!

وما دامَ الثرى واراكِ (أمّي)   فكلُّ لذائذِ الدّنيا هَباءُ
أأذكرها ؟ محالٌ ! كيفَ أنسى؟   أتُنْسى (الأمّ) ؟ ما هذا الهُراءُ؟
يراها القلبُ في إشراقِ صُبْحي   وتؤنسني إذا هجَمَ المساءُ
وجوفَ الليلِ كمْ زارتْ بطَيفٍ   وإنْ أرقدْ يطيبُ بها اللقاءُ
فَقدتُكِ فَقْدَ طِفلٍ في رَضاعٍ   شريدٌ ليسَ يحْميهِ الوِقاءُ
صَبِيٌّ إيْ وربّي دونَ (أمّي)!   وفي فَقدِ الحنانِ يُرى العَناءُ
مريضٌ إيْ وربّي دونَ (أمّي)!   جلوسي عندَ رِجْلَيها دواءُ
إذا ما نابني همٌّ ثقيلٌ   فضاقَ لديَّ عَيشي والفضاءُ
أجيءُ لها فتمْحَضني بِنُصْحٍ   وإنْ أخرجْ يصاحِبْني الدّعاءُ
سؤالُكِ عنّي في (الغدَواتِ) أمّي   هَناءٌ ما يوازيهِ هَناءُ
فـ(جوّالي) يُصَبِّحُني بدِفءٍ   سلامُكِ لي أيا (أمّي) حداءُ
بـ(بُرْهومٍ) تغنّي في سرورٍ   فيا للهِ هلْ فُقِدَ الغِناءُ؟
وكمْ غشّاكِ يا(أمّي) ارتياحٌ   (بمكّةَ) حيثُ يهوى الأتقياءُ
نطوفُ بـ(بيتِ ربّي) في خُشوعٍ   بِطُهْرِ البيتِ مازجهُ النقاءُ
وفي (يومِ الخميسِ) لنا فُطورٌ   إذ (الزيتونُ والبُرُّ) الغِذاءُ
وكمْ (وِرْدٍ) قرأناهُ جميعاً   إذا حلَّ الصّباحُ أو المَساءُ
يحِنُّ إليكِ (أمّي) كلُّ شيءٍ   (فِراشُكِ) فيهِ (عِطْرُكِ) و(الغِطاءُ)
(حليبٌ) ساخنٌ في (زَنْجبيلٍ)   و(هاتفُ) غُرفةٍ فيها الثواءُ
و(هَبُّودٌ) يُفَصْفِصُ ذا أنيسٌ   فَمُتْعَتُها إذا زالَ اللّحاءُ
و(أشْرِطَةٌ) تؤانسُكِ بِلَيلٍ   (تلاواتُ) الكتابِ بهِ الشِفاءُ
ستفْقِدُكِ (دِلالُ البُنِّ) أمّي   وذاكَ (الزعفرانُ) لها طِلاءُ

و(دِيوانيّــة) فيهــا اجتــماعٌ ... و(مِنفــاخٌ) لِنَــارٍ و(الفِنــاءُ)

وأيــن (جَريــشُ) أمّــي و(البــوادي)؟ ... تُفاكِهُنــا إذا حــلَّ الشــتاءُ

بــكاكِ الــكلُّ يــا (أمَّــاهُ) صِدْقــاً ... وفي (يــومِ الــوداعِ) بكَــتْ سَــمَاءُ!

بــكاكِ الشِــيبُ والأطفــالُ طُــرّاً ... بــكاكِ رِجــالُ قومــي والنّســاءُ

بكَتْــكِ (أرامــلٌ) تَرجــوكِ عونــاً ... (يمــينُ) الــبِرِّ غلَّفهــا الخفــاءُ

وحتــى (الخادمــاتُ) بكتْــكِ (أمّــي) ... فليــسَ بِقَلْــبِ (أمّــي) كِبْرِيــاءُ

بــكاكِ (السـائقون)، أرى وجومــاً ... عــلا قَسَــماتِهِمْ ! أمْــرٌ جــلاءُ

بــكَاكِ (صِغارُنــا) شِــعْراً ونَــثراً ... مشــاعرُ كادَ يخفيهــا الحيــاءُ

فـ(تَفريــحُ الصّغــارِ) لهــا منــارٌ ... يطيــبُ لديهــمُ فيهــا التقــاءُ

تنوّعــتْ المآثِــرُ فيــكِ (أمّــي) ... لــكِ في كلِّ معــروفٍ دِلاءُ

ألا (أمّــاهُ) نَامِــي في هنــاءٍ ... بحِفــظِ اللــهِ يحمينــا الوِقــاءُ

فــلا تَخَــشَي علينــا مِــنْ شــتاتٍ ... (بنــوكِ) مــع (الشــقيقةِ) أوفيــاءُ

لـ(لؤلــؤة) المعــالي كلُّ وَصْــلٍ ... فَــبِرُّكِ أنْ يظــلَّ لهــا الوفــاءُ

و(خــالي صالــحٌ) يــا ريــحَ (أمّــي) ... بقــاءُ (الخــالِ) في الدنيــا رخــاءُ

لـ(ليــلى) بعــدَ (أمّــي) كلُّ حَــقٍ ... فـ(خالتنــا) لهــا منّــا الــولاءُ

وفي (فضليّــةٍ) للوصْــل نبقــى ... بِوَصــلِ (الخــالِ) يــا (أمّــي) اهتــداءُ

(منــيرةُ) خالتــي والــبِرُّ بــاقٍ ... صداقَــةُ (أمِّنــا) فيــكِ اصطفــاءُ

رضِينــا مــا قــضى الرحمــنُ ربّي ... لــهُ التسْــليمُ يفعــلُ مــا يشــاءُ

وأجــرَ (شــهادةٍ) أرجــوهُ (أمّــي) ... لــكِ في (بَطْنِــكِ) اســتشرى الوبــاءُ

ســلاماً (أمّنــا)، ذِكــراكِ فينــا ... وفي الجنّــاتِ يــا (أمّــي) اللقــاءُ

إذا حفِــظَ الإلــهُ لنــا (أبانــا) ... ففيــهِ وربّي يــا (أمّــي) العــزاءُ

الزفرة الثانية : (أختاهُ) فَقدُ (الأمِّ) جَمْرٌ لاهِبٌ !

كانَ مِن شأني في سابق أمري أنني إذا حزبني همٌّ أفزع إلى (أمّي) – رحمها الله تعالى – فأبوحُ لها بما لا أبوحُ بهِ لمخلوقٍ سواها، فما ألبث أنْ أخرجَ منها بالتسلية، والرأي، والدّعاء !

وبعدَ ما يقاربُ أربعين ليلة مِنْ موتِ (أمّي) – رحمها الله رحمة واسعة – حَزَبَني همٌّ من هموم الدنيا، وافتقدتُ ذاك المعين الصافي أحوجَ ما أكونُ إليه !

فدخلتُ (غُرفة أمّي) – رحمها الله تعالى – ظهيرة يوم الأربعاء (يوم الاجتماع واللقاء)، وتقلّبتُ في (سريرها)، وأجلتُ ناظري في أرجائها، وكانت هذه الأبيات، فرحمَ الله مَنْ قيلت فيه، رحمكِ الله فقيدتنا الغالية، الغائبة الحاضرة.

أمي

نورة بنت عبد العزيز الغنيم المانع

(أمّـاهُ) بَعْـدَكِ لمْ أزلْ في لوعـةٍ ... والدّمـعُ مِـنْ بُعْـدِ الحبيبـةِ مـا رَقَـا !

مـا عـادَ يُطْربنـي حديـثُ مُفاكِـهٍ ... كلاّ، ولا جَلَسـاتُ أوفى الأصدقـا !

(أمّـاهُ) هـاكِ قصيـدتي مِـنْ (غُرْفَـةٍ) ... بالأمـسِ كانـتْ في وجـودِكَ مُلْتَقـى

(لمَسـاتُها) تبـدو عـلى جَنَباتِهـا ... (بَصماتُهـا) تكسـو المـكانَ تأنُّقـا !

في (غُرْفَـةٍ) وقـتَ الظهـيرةِ مُفْـرَدٌ ... والحُـزْنُ في أرجائهـا قـدْ أطْبَقـا

متسـائلٌ أيـنَ التـي عَمُـرَتْ بِهـا ... (سُـجادةٌ)، كانـتْ تناجـي الخالقـا ؟

مُتَلَفـتٌ بـينَ الجوانـبِ لا أرى ... إلا (السـكونَ)، فـما أشـدَّ ! وأحرَقـا !

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

متَذكِّـرٌ (أمّـي) الحبيبـةَ عندمـا ... كانـتْ مُرَحِّبـةً تجيـبُ الطارقـا

متلحِّـفٌ بـ(غطائهـا) في (عَـبْرتي) ... في ذا (الغِطـاءِ) أحـسُّ قلبـاً مُشـفِقا

و(وِسـادة) فيهـا بقايـا مِسْـكِها ... مِـنْ بعْـدِ مـا كانـتْ (مِهـادي) الأرفَقـا

ومُـرَدِّدٌ (أمّـاهُ)، في رجْـعِ الصّـدى ... (صَمْـتٌ) يُجاوبنـي، فأبقـى مُطْرِقـا

(مِرْآتُهـا) البيضـاءُ تحـكي طُهْرَهـا! ... و(سريرُهـا) يشـكو الفِـراقَ الساحقا!

(تَسْريحـةٌ) فيهـا (العُطـورُ) بِرَوْحِهـا ... (كُرسـيُّها) بـاكٍ عَشِـيَّةَ فارَقـا !

(مِنْديلُهـا) في (لَفّـةٍ) لمَّـا يَـزَلْ ... يرجو(الوُضـوءَ) لـكي يمـسَّ المِرْفَقـا!

(أمشـاطُها) السـوداءُ تشـكو فُرْقَـة ... حتـى الجـمادُ يـودُّ أنْ مـا فارَقـا !

(حِنّاؤهـا) الخـضراءُ قـدْ حَنَّـتْ لهـا ... مِـنْ بعـدِ مـا كانـتْ خضاباً مُونِقـا

(بنَدُولهـا) (عِلْـكُ اللّبـانِ) و(قَطْـرَةٌ) ... الـكلُّ ذاقَ فِراقَهـا فَتَحرَّقـا

أو(سَـبْحَةٌ) كانـتْ رفيقـةَ دَرْبِهـا ... أوَّاهُ لـو تحنـو (السِّـباحُ) فتنطقـا

و(مَجامِـرٌ) فيهـا (البخـورُ) مُعَتَّـقٌ ... زادَتْ بهـا تلـكَ (المَجامِـرُ) رَونَقـا

(ساعاتُها) مِـنْ كلِّ صِنْـفٍ كَـمْ زَهَـتْ ... في (مِعْصَـمٍ)، واليـومَ تبـكي تَشَـوُّقا!

وبقيّـةٌ مِـنْ نَـزْرِ (مـالٍ) أُفـرِدَتْ ... كيـما توسِّـعَ عيـشَ قـومٍ ضَيِّقـا

مـا كانَ ذاكَ المـالُ رهـنَ (حقائـبٍ) ... فَسُرورُهـا بالمـالِ أنْ تتصدّقـا !

و(الهاتِـفُ) الولهـانُ مـاتَ بِمَوْتِهـا ! ... لـولا (الرِّضـا) لَغَبْطتُـه إذ فارقـا !

و(خِزانـةُ الأثـوابِ) هـا قـدْ أُفْرِغَـتْ ... مِـنْ بَعْـدِ مـا كانَ الحريـرُ مُعَلَّقـا

و(مقابِـضُ) ذهبيّـةٌ في بابِهـا ... مـا حالُها و(البـابُ) هـا قـدْ أُغْلِقـا ؟!

أو(صـورةٌ للابـنِ) في (تسريحـةٍ) ... واهـاً (عـليُّ) ! متـى يكـونُ بهـا اللقـا؟

و(سـتائرٌ) خـضراءُ كانـتْ واقيًـا ... بِحِجابِهـا ذاكَ الزُجـاجَ المُشْرِقـا

و(مُكَيِّـفٌ) قـدْ كانَ يُذهِـبُ حَرَّهـا ... يـا ربِّ جَنِّبْهـا اللهيـبَ المُحْرِقـا

(بــرّادةٌ) بِميــاهِ (زَمْــزَمَ) أُفْعِمَــتْ ... كــم أذهبــتْ في صَيفِهــا مــا أَحْرقــا

(صابونُهــا) (عُلَــبُ الغســيلِ) بِرَفِّهــا ... (غسّــالة) قــدْ لامَســتْ (كَــفّ) النقــا

و(مكينــةٌ) كانــتْ جليســة (أمِّنــا) ... مــعَ (إبــرةٍ) إتقــانُ مــا قــدْ مُزِّقــا

يــا (صالــحٌ) ! والأنــسُ كانَ بـ(غُرفــةٍ) ... أضحــتْ بــلا (أمّــي) حديثــاً مُقْلِقــا

كــمْ جلســةٍ للحُــبِّ قــدْ حَفَّــتْ بِنــا ... (أمّــي) بهــا عقــدُ الإخــاء توثقــا

يــا (صالــحٌ) ! كــمْ مُتْعَــةٍ مــرَّتْ بِنــا ... (أكــوابُ شــاي) في صبــاحٍ أشرَقــا

يــا (صالــحٌ) ! كــمْ مِــنْ مســاءٍ سامِرٍ ... كنّــا نبادلُهــا الــكلامَ الشــائقا

يــا (صالــحٌ) ! كــمْ ليلــةٍ كنّــا معــا ... (أمّــي) هنــا ! حيــثُ الحنــانُ تَدَفَّقــا

يا(غانــمٌ) ! فيــكَ البقيّــةُ ؛ فاســمُها : ... نِصــفٌ مــضى، والنّصــفُ فيــكَ تعلَّقــا

يا(غانــمٌ) ! فيــكَ العــزاءُ ؛ فَبِرُّهــا ... بِبَقائكــمْ فينــا شــقيقي الأوْفَقــا

(أختــاهُ) فَقــدُ (الأمِّ) جَمْــرٌ لاهِــبٌ! ... القلــبُ بــاتَ بفَقدهــا متحرِّقــا

أ(أخيتــي) ! أنــتِ الملــاذ بِبُعْدِهــا ... أنــتِ العــزا، أنــتِ الوفــاءُ تَرَقْرَقــا

يــا (غرفــة) مِــنْ بعــدِ (أمّــي) أقْفَــرَتْ ... أوَّاهُ ! مــا أقــسى الفــراقَ الحارقــا !

يــا ربِّ إنْ خَلَــت المنــازلُ بعدَهــا ... فلديــكَ في (الغُرُفــاتِ) نِعْــمَ الملتقــى

محبك الباكي فقدك الداعي ربه الاجتماع بك

ابنك

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

١٢ / ٤ / ١٤٣٠هـ

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

أمي الغالية

نورة بنت عبد العزيز الفنيم المانع

رحمها الله تعالى

رغمَ مرورِ الأيامِ على وفاتها – رحمها الله تعالى – ما زالت تتراءى أمام ناظريَّ في غالب أحوالي، وفي ليلة (عيد الأضحى المبارك) الذي كانت تزينه بمجلسها البديع، وقد أدارت (حِنكتها السوداءَ) على وجهها المشرق، حينما كان للعيد في وجودها معنى، فَزاد الشوق إلى مجلسِ أمّي – رحمها الله تعالى – وكانت هذه الأبيات، فإلى (أمّي نورة) مع الدعاء لها بالرحمة والغفران:

حَنِينٌ إلى (أمّي) أراهُ مُرَدَّدا ... إذا ساقَ هديًا مَنْ أهَلَّ وعيَّدَا

وبحرٌ مِن الشوقِ المُمِضِّ لِوَجْهِها ... فَعَيناي ظمأى كادَ يقتلُها الصدَى

لئنْ كانت الأيامُ يُسْلي مُرورُها ... فإنَّ مصابي في الرؤومِ تجدَّدَا

أفِرُّ مِن العيدِ الذي كنتِ عيدَهُ ... فما عادَ عِيدِي بعدَ وَجْهِكِ مُسْعِدَا

أفِرُّ وفي قلبي تباريحُ مِن أَسَى ... أرى أبيضَ الأيامِ بَعْدَكِ أَسْوَدَا

إذا أبْصَرَتْ عيني طَعاماً ومَشْرَبًا ... تراءيْتُ كفًّا كَمْ أجَادتْ لنا الغَدَا

وكَمْ مَرَّةٍ غافلتْ نَفْسي مناديًا ... (أأُمي) (يا أمَّاهُ) جِئتُكِ واردَا

أظلُّ قريباً مِن نوافِذِ غرفةٍ ... وأدعو بأعلى الصَّوتِ : (أمّي) مُرَدِّدَا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

وأُوهِـمُ نفـسي أنَّ (أمّـي) تُجيبُنـي ... فَيُسْـعِدُني وَهْـمٌ أراهُ مُفَنَّـدَا

وكَـمْ جُمْعَـةٍ أَلْصَقْـتُ خَـدّي بِقَبْرِهـا ... فأشْـعُرُ - إيْ واللـهِ - قَلْبـي تَقَـدَّدَا

أُمَـدِّدُ جِسْـمِي عِندَهـا غـيرَ مُوسَـدٍ ... وقـدْ كُنـتُ قَبـلاً عنـدَ (أمِّـي) مُوَسَّـدَا

أُمَـرِّرُ كَفِّـي فـوقَ حصبـاءِ قَبْرِهـا ... أُهَدْهِـدُ طُهْـرًا في الـتُّرابِ مُمَـدَّدَا

أكادُ أرى وِرْدِي ونَجْـوايَ كلَّهـا ... دُعـاءً لـ(أمّـي) كلَّـما قمـتُ مُـوردَا

أراكِ أيـا (أمّـاهُ) أيـامَ عِيدِنـا ... أرانـا ولا عيـدٌ إذا غِبْـتِ أسْـعَدَا

وأيـنَ لنـا عيـدٌ كَعيـدِكِ (أمَّنـا) ؟ ... نَـرى كلَّ مَـنْ نهـوى عليـكِ تَـرَدَّدَا

أراكِ أيـا (أمّـي) ويبـدو (مُنَيخِـلٌ) ... أرى (حِنْكَـةً سَـوداءَ) غَيَّبَهـا الـرَّدَى !

أراكِ أيـا (أمّـاهُ) إنْ زَفَّ مُخْـبِرٌ ... تباشـيرَ مَوْلُـودٍ يَصِيـحُ مُمَهِّـدَا

أراكِ أيـا (أمّـاهُ) في ضَـوءِ مَحْفَـلٍ ... تَرَاءَيْـنَ في عَيْنَـيَّ كالـرّوضِ مُـوردَا

أراكِ أيـا (أمّـاهُ) في هَجْعَـةِ الدُّجـى ... فَأَدْمَـعُ في صَمْـتٍ ! وأهجُـرُ مَرْقَـدَا

أراكِ أيـا (أمّـاهُ) في كلِّ لحظـةٍ ... عـلى ضَـوءِ جَمْـرٍ في الفـؤادِ تَوَقَّـدا

تَعَـوَّدتُ، نـونُ العَـينِ وَجْهُـكِ، إنّمـا ... « لـكلِّ امـرىءٍ مِنْ دَهْـرِهِ ما تَعَـوَّدَا «

أُقلِّـب طـرفي في السـماءِ وأرْتَجـي ... لـ(أمِّـي) نعيـمًا في الجِنـانِ مُخَلَّـدَا

عَـزائي بـأنَّ اللـه أكْـرَمُ واهِـبٍ ... وأنَّ لهـا عيشًـا هُنالـكَ أرْغَـدَا

ابنك المشتاق

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

ليلة عيد الأضحى المبارك ١٤٣٠هـ

أمّي الراحلة

نورة بنت عبد العزيز الغنيم المانع

رحمها الله تعالى رحمة واسعة

مضى على رحيلها حولان كاملان ! ولم تزدنا أيام فراقها إلا شوقًا للقائها !

أراها أمام عينيَّ كلَّ حين ! ولكنَّ أجواء (الشتاءِ) والاجتماع على (الوِجار) ورائحة الدّلال، وإحاطة الأهل والزوّار حولَ (أمّي)، لكنَّ ذلك كلّه يبعث على ذكرى أمّي – رحمها الله تعالى – بمذاق خاص، فهي ساعات لا يُغني عنها غيرها ! فإليك (أمّي المفارقة بجسدها) هذه الأبيات مع الدعاء بواسع الرحمة لروحك الطاهرة:

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

يحــلُّ الشــتاءُ فأذكــرُ أمّــي ... وأنَّى السُّــلوُّ ليــومِ النّشــورْ
وأذكُــرُ أُنْسًــا بمجلــسِ أمّــي ... وطَعْــمَ (الحُنَينــيِّ) وقــتَ الفُطــورْ
و كأسَ الحليــبِ مــعَ الزنجبيــلِ ... وحــولَ (الوِجــارِ) بقايــا البُخــورْ
وريــحُ (الغضــا) حــينَ أُشــعِلَ دِفــأً ... يذكِّــرُني يــومَ جَمْــعِ الــسرورْ
أراكِ أأمّــيَ في الضــوءِ ظِــلا ... وتغمــرُني فيــكِ ذِكــرى الحُبــورْ
فأذكــرُ أمّــي بمجلــسِ أنــسٍ ... تؤانِــسُ أمّــيَ كلَّ الحُضــورْ
تمــازِحُ (خَــالِي)، ترَحِّــبُ فينــا ... تُقَبِّــلُ خــدَّ وليــدي الصغــيرْ
ضيوفُــك أمّــيَ مــنْ كلِّ طَيــفٍ ... فللــهِ دَرُّ الفــؤادِ الكبــيرْ
تُظلِّلُنــا مِثــلَ ورقــاءِ دَوحٍ ... فواحسرتــا ! كيــفَ سِرْبُ الطيــورْ؟!
فهــذي ليــالي شــتائِيَ أمّــي ... تمــرُّ بِبُــطءٍ ! لفقــدِ السّــميرْ؟
إذا كانَ أُنْــسٌ ذكرْتُــكِ أمّــي! ... وإنْ كانَ هــمٌّ فــما مــن مُجــيرْ
إذا مــاتَ خِــلٌّ تجــدَّدَ حُــزني ... فأشــعُرُ في القلــبِ وَقْــدَ الســعيرْ
و واللــهِ إنّي لــدى كلِّ حَفــلٍ ... أراكِ أمامــي ! ومــا ذا بِــزورْ
وإنّي وربّي حفيــظٌ شــهيدٌ ... لأبــصِرُكِ بــينَ هــذي الســطورْ
إلهــيَ فامــلأْ فــؤادي يقينًــا ... فــما عِــدتُ أملِــكُ كَتْــمَ الشــعورْ
فـ(عامــانِ) تمَّــا بُعَيــدَكِ أمّــي ... أطــاوِلُ لَيْــلِي بِعَــدِّ الشــهورْ
أقــول : سأســلو، و ذاك مُحــالٌ ... وأنَّى ســلوُّ مُصــابٍ أســيرْ!
وأبحَــثُ بعــدَكِ عــنْ ظِــلِّ أمْــنٍ ... فأرجِــعُ أمّــي كطَــيرٍ كســيرْ
تَزوريــنَ ليــلاً منامِــيَ طَيفًــا ... فــأزدادُ شــوقًا كطِفْــلٍ صغــيرْ!
وسِــيَّانِ بَعْــدَكِ أيــامُ عيــشي ... فــما كِــدتُ أشــعُرُ يــومَ الــسّرورْ
تســاوتْ بُعَيــدَكَ لــذاتُ دُنيــا ... فسُــكنى الــبَراري كسُــكنى القصــورْ

وإنّي بدونِــكِ يــا نــورَ عينِــي تَبَــدَّلَ كَــوني ظلامًــا بِنــورْ
وإنّي وربّيَ عــلاّمُ حــالي لأبــصِرُ أُنــسيَ بــينَ القبــورْ
وإنّي وأســتغفِرُ اللــه ربّي أُقَبِّــلُ قــبْرَكِ رَجْــوى الحُبــورْ
أُقبِّــلُ قــبْرًا أحــسُّ بأمّــي تُقَبِّلني رَغْــمَ تلــكَ الصّخــورْ
يــكادُ فــؤادي يَطِــيرُ لأمّــي وليــسَ ســوى خالقــي مِــنْ مجــيرْ
ومِــمَّا يُخَفِّــفُ لَوعــاتِ حُــزني (أبي) بدعــاءِ الشــفيقِ الوقــورْ
دُعــاءُ (أبي) حــينَ ذِكْــرِكِ أمّــي يفيــضُ وفــاءً بِصِــدْقِ الشّــعورْ
وأســلو بِبيــتِ الكريمــةِ (لولــو) تُلَمْلِمُنــي في حَجاهــا المَــزورْ
أراهــا فأبــصِرُ أمّــي تطِــلُّ بــروحٍ رَفِيــفٍ ووجْــهٍ مُنــيرْ
ولا يَجْــبُرُ الــرُزءَ أمّــاه إلا يَقِينــي بفضــلِ الرَّحيــمِ الغفــورْ
يَقِينــي بوعْــدِ إلهــي يَقِينــي وعُقْبَــى المُوَحِّــدِ دارُ الــسّرورْ

ابنك المشتاق

د / إبراهيم بن عبد اللّٰه الغانم السماعيل

ظهر الجمعة المباركة ١٧ / ٢ / ١٤٣٢هـ

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

أمّي الراحلةُ جَسَدًا الحاضرةُ ذِكْرى وطَيفًا

نورة بنت عبد العزيز الفنيم المانع

رحمها الله تعالى رحمة واسعة

مُنذُ وفاتها قبل عامين وشهرين(ضحى يوم السبت ٣ / ٣ / ١٤٣٠ هـ) وعيناي تراها يقظةً بِطيفِها المشرق، ومنامًا حينما تزورني في رؤى صالحة أنعمُ بها ليالي عديدة، فجاءت (الزَّفْرَةُ الخَامِسَةُ)

أمّي بها فِكري يَجولُ وَيُطْنِبُ ... أمّي بها قلبي الجريحُ مُعذَّبُ

ربّاهُ فامْلأ باليقينِ فؤادَ مَنْ ... قد باتَ في أحزانِهِ يتقلَّبُ

مُتقلِّبٌ بينَ الحنينِ لوجهِها ... والشوقِ حينَ أجيئُها فَتُرَحِّبُ

ترحيبُ أمّي لا يقومُ بِوَصفِهِ ... شِعري ولو أفنيتُ دهري أكتُبُ

وظننتُ وقتي قد يُخَفِّفُ لَوعَتي ... لكنَّ حُزني بالحبيبةِ مُطْنَبُ

ماذا سأذكرُ ؟ دمعَها لِسرورِنا ؟ ... تبكي لنا فَرَحًا بِقَلْبٍ يَطْرَبُ

ماذا سأذكرُ ؟ حُزْنَها لِغيابِنا ؟ ... فتظلُّ تَرْقُبُ أنْ يعودَ الغُيَّبُ

ماذا سأذكرُ ؟ إنْ تألَّمَ نِجْلُها ... للهِ تشكو حُزنها، وتُطَبِّبُ

ماذا سأذكرُ ؟ أُنْسَهَا بِنَجاحِنا؟ ... تَشْجِيعَها إن كانَ أمرٌ أصْوَبُ ؟

ماذا سأذكرُ ؟ مِنْ وصاياها التي ... ترعى بها أولادَها كي ينجُبُوا

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

مـاذا سـأذكرُ ؟ إذْ تُشَـنِّفُ مَسْـمَعي: اِلــزَمْ أبــاكَ، فإنَّــهُ نِعــمَ الأبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ مِــنْ وصاياهــا لنــا: اِرعــوا أُخوَّتكــمْ ولا تتشــعَّبوا

مــاذا ســأذكرُ ؟ إذ تــردِّدُ نُصْحَهــا : بِنتــي الوحيــدةُ يــا بَنِــيَّ فقرِّبــوا

مــاذا ســأذكرُ ؟ إذْ تُعاتِبُنــا عــلى ضَرْبِ الصِّغــارِ ؛ فإنــهُ لا يُكْسِــبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ إذْ تُراعــي خَادِمًــا؟ إنَّ الضعيــفَ إلى حِماهــا الأقــربُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ نِســوةً يأتينَهــا ؟ إكرَامُهــا يغشــاهُ صَــدْرٌ أرْحَــبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ وَصْلَهــا ؟ صَدَقاتِهــا؟ إنَّ العطــاءَ بِطَبعِهــا لمُحبَّــبُ

وبِسَــوقِ فِطْرَتِهــا تَعَــدَّدَ نَفعُهــا يحظــى البعيــدُ، وكَــمْ ينــالُ الأقــرَبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ عِفَّــةً لِلِســانِها ؟ طُهْــرٌ، فحاشــاها الــكلامُ الأخيَــبُ

مـاذا سـأذكرُ ؟ صَمْتَهـا ؟ وحياءَهـا ؟ جُبِلَــتْ عــلى خُلُــقٍ كريــمٍ يُرْغَــبُ

مـاذا سـأذكرُ ؟ مِسْـكَها ؟ وعبيرَهـا ؟ مِــنْ كلِّ صِنْــفٍ ريحُهــا متطيِّــبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ إذْ تُــبرِّدُ كأسَــنا ؟ كأسًــا بــكأسٍ في إنــاءٍ يُسْــكَبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ طَعْــمَ إفطــارٍ لنــا ؟ نبقــى صِغــارًا مِــنْ يديهــا نَــشْرَبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ نكهَــةً لِغدائنــا ؟ كُنَّــا مُلــوكًا في قِراهــا نُسْــهِبُ

مــاذا ســأذكرُ ؟ نومَنــا بِجِوارِهــا ؟ ولِوَجْهِهــا بِمَبيتِنــا نَتَطلَّــبُ !

مــاذا ســأذكرُ ؟ كلّــما تدعــو لنــا؟ أوَّاهُ ! إنَّ دعاءهــا لا يُحْجَــبُ

مـاذا سـأذكرُ ؟ لَـمْ يَغِـبْ وَجْـهٌ لها ذاكَ المُحَيَّــا مُــشرِقٌ لا يَغْــرُبُ

ولِــمَ التذَكُّــرُ ؟! إنهــا موجــودةٌ ! ذا طَيفُهــا مُتَلأْلِــئٌ لا يَعْــزُبُ !

ابنك الداعي لك بالرحمة

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

ضُحَى السبت ١٤٣٢/٥/٥هـ

أمّي

نورة بنت عبد العزيز الفنيم المانع

رحمها الله تعالى رحمة واسعة

جاءت هذه الزفرة بعدَ (ثلاث سنين) على مواراةِ (جَسَدِ) أمّي الطاهرِ الثرى، جسدها فحسبُ، أمّا هي، فلا أبالغُ إذا قلتُ : أمّي هُنا، أثَرًا، وتربيةً، وطَيْفًا، رَحِمَ الله أمّي، الراحلة في ٣ / ٣ / ١٤٣٠هـ كم لفقدِها من ألَم !!

تساوتْ بفقدِكِ أيامُ دَهْرِي ... وذقتُ المرارةَ في كلِّ حينِ
وكلُّ الصباحاتِ بعدَكِ أمّي ... ثِقالاً تمرُّ، حُدَاها أنِيني
فَما عادَ بَعْدُ (خَميسٌ) يسرُّ ... وما عادَ (سَبْتٌ) يَجيءُ بِشَينِ
أيَا (أربعاءُ) أمَا كنتَ أُنسًا؟ ... نسامرُ أمّي بدِفءِ الحنينِ
ويا (أربعاءُ) أراكَ صَمُوتًا ... أحزنُكَ مثلي لِفقدِ المعينِ؟!
فقدتَ الأنيسَ الذي كانَ فينا ... يؤانسُنا قبلَ ريبِ المنونِ!
فأينَ سُويعَاتُ مَجلسِ أمّي؟ ... وأينَ هَنَائي بقولٍ رزينِ؟
(ثلاثُ سنينَ) مَررنَ بِبُطءٍ ... دليلي تباريحُ قلبي الدفينِ
(ثلاثُ سنينَ) وفقدُكِ أمّيَ ... في القلبِ وَقْدٌ كنارِ الأتونِ
أأمّي ! آهٍ، وفَقْدُكِ مرٌّ ... فقدتُ بفقدِكِ حُلْوَ السنينِ

الأم الصديقة رحمها الله تعالى

أأمّــي ! آهٍ، وفقْــدُكِ ثَلْــمٌ ... فقــدتُ حِمايــةَ حِصْنِــي الحَصــينِ
أأمّــيَ ! إنّ فــؤادي مَشُــوقٌ ... لوجهــكِ ! آهٍ، كشــوقِ السّــجينِ
ينــوبُ عــن الشِعْر في وصــفِ حَــالي ... تعابــيرُ وجهــي بِدَمْعــي السّــخِينِ
يقولــونَ : تســلو ! وأنّى ســلوٌّ ؟! ... وفي الــتُرْبِ جِسْــمٌ لأمّــي الحَنُــونِ!
أفي الــتُرْبِ ؟ كلاّ ! أراهــا أمامــيَ ... في البيــتِ، في الــدرسِ، بــينَ بَنِينِــي
وفي خَلَــواتي أخاطِــبُ أمّــي ... رُويــدًا، رُويــدًا ؛ بِهَمْــسِ الأنــينِ
ووالله إنّي لأسْــمَعُ صوتًــا ... يُجيــبُ حَدِيثــي برَجْــعٍ حزيــنِ
وعنــدَ قِيامِــي عــلى قَــبرِ أمّــي ... أحَدِّثُهــا عِلْــمَ مــا في سِــنِينِي:
فــلانٌ تُــوُفِّي ! وهــذا وَليــدٌ ! ... وذاكَ عَريــسٌ ! بِفَيــضِ الشّــجونِ
فآنــسُ في بــثّ نجــوايَ حِينًــا ... وأســألُ ربّيَ لُطْــفَ المعــينِ
لِيرحــمَ قلبًــا تفطّــر حُزنًــا ... يــكادُ يُلامِــسُ حَــدَّ الجنــونِ
ومِــمّا يُؤانِــسُ في فَقْــدِ أمّــيَ ... حُسْــنُ الخِتــامِ عــلى خــيرِ دِيــنِ
بِنَجْــواكَ ربّي ارتيــاحُ فــؤادِي ... ففيهــا مفاتيــحُ كَنــزٍ ثمــينِ
وليــسَ يُخفِّــفُ عنّــي مُصَــابي ... ســواكَ إلهــي، بِــبَرْدِ اليقــينِ
يقينًــا بــأنّ لقــاءكَ حــقٌّ ... وقــرّة عَينِــي بأمّــي الحنــونِ
جِنــانُ الخلــودِ ورحمــةُ ربّي ... نؤمِّلُهــا بــينَ كافٍ ونــونِ

ابنك المشتاق

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

٣ / ٣ / ١٤٣٣ هـ

الزَّفْرَةُ السّابعةُ : أمّي مُعَطِّرةٌ لنا رمضانَنا

كلُّ الأوقاتِ تُذكِّرُنا بالفقيدة الغالية

أمّي

نورة بنت عبد العزيز الغنيم المانع

رحمها الله تعالى رحمة واسعة

« رحمَ اللهُ مَنْ لا يزيدُها البُعدُ إلا تذكّرًا، اللهمَّ عوِّضها الفردوسَ الأعلى من الجنة».

طـالَ اشـتياقي نَحـوَ وجهِـكِ يـا سَـنَا ... « فأتيـتُ قَـبْرَكِ، والحبيـبُ يُـزارُ»

مَـنْ كانَ مُتّـعَ في الحيـاةِ بأمّـهِ ... فَصَبَاحُـه ومَسـاؤه أنـوارُ

ربّـاه فارحـمْ مَـنْ تَقطّـعَ قَلبُـهُ ... مِـنْ بُعـد أمٍّ هاجَـهُ التِّـذْكارُ

رمضـانُ جَـدّدَ للحبيبـةِ ذِكرَهـا ... وَجـهٌ مُنـيرٌ، هكـذا الأقـمارُ

أمّـي مُعَطِّـرَةٌ لنـا رمضانَنـا ... أمّـي بِهـا يَتكامـلُ الإفطـارُ !

أمّـي أرى طَيفًـا لهـا مُتَطَهّـرًا ... تَـزدانُ في تَسـبيحِها الأسْـحارُ !

أمّـي أراهـا إنْ تَصَـدّقَ مُحْسِـنٌ ... صَدَقَاتُهـا الـلائي لَهَـا أنـوارُ

أمّـي أراهـا حـينَ يَقنُـتُ مَسْـجِدٌ ... أو حِـينَ تُذكـرُ في الدُّجَـى الأذكارُ

أمّـي أراهـا حِـينَ أُبـصِر (عَامِـلاً) ... مِـنْ حِـينِ رؤيتِـه يُقـالُ عِثـارُ

أمّـي أراهـا في وجـوهِ أحِبَّتـي ... في بيـتِ أختـي، يـا لَنِعـمَ الـدارُ

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

أمّــي أراهــا حِــينَ يُطْنِــبُ والــدي ... في ذِكرهــا تَتَــواردُ الأفــكارُ

أمّــي أراهــا حِــينَ تَخْنُــقُ عَــبْرَةٌ ... خــالي، فكــمْ قَــدْ هَاجَــهُ اســتعبارُ

أمّــي أراهــا إنْ بَكــتْ خالاتُنــا ... فالدَّمْــعُ مِــنْ تِذكارِهــا مِــدْرارُ

أمّــي أراهــا في وجــوهِ صِغَارِنــا ... رمضــانُ كانَ، وكانــت الأخبــارُ

يتســابقونَ إلى الجلــوسِ بِقُرْبِهــا ... الــدفءُ ثَــمَّ وثَمَّــتِ الأنــوارُ

أمّــي هُنــا، أمّــي هُنــا، أمّــي هُنــا ... لا تعجبــوا، فكذلــكَ الإسْــفارُ !

مَــنْ لَمْ يــذقْ طعــمَ الفِــراقِ ووَخْــزَهُ ... ســيقولُ - جَهْــلاً - هــذهِ أشــعارُ !

ابنك المشتاق

د / إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

أستاذ البلاغة والنقد / كلية اللغة العربية

جامعة الإمام

مع بزوغ شمس يوم الإثنين

٤ / ٩ / ١٤٣٣هـ - ٢٣ / ٧ / ٢٠١٢م

الأم الصديقة
رحمها الله تعالى

إخراج وتصميم

COLOR DROP
قطرة لون للدعاية والإعلان
0555 42 1313

أهدي هذا الكتاب مع خالص البِرّ، وموفور الدعاء لمقام سيدي والدي رفيق درب أمّي ﴿نورة﴾ رحمها الله تعالى طوال حياتها، **الشيخ عبدالله الغانم السماعيل** متّعه الله بالصحة والعافية، ومتّعنا به في عمر مديد، وعملٍ رشيد.

ربَّاه إني قد رُزئتُ حبيبتي
(أمّي) ! فسَلِّم يا إلهي لي (أبي)

إذا حفِظ الإلهُ لنا (أبانا)
ففيهِ وربِّي يا (أمّي) العزاءُ

خادمكَ ابنكَ
إبراهيم